

مليكة الروم

قراءة أصيلة في هويتها وسيرتها

حسن يوسف بن نخي

مَلِيكَةُ الرُّومِ

قراءة أصيلة في هويتها وسيرتها

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

وَصَلَّى ٱللَّهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ

• الكتاب: مليكة الروم قراءة أصيلة في هويتها وسيرتها

• تأليف: الشيخ حسن يوسف بن نخي

• مراجعة وتدقيق: الشيخ حسين زكي الصالح

• الغلاف: تاج ذهبي مهدى إلى ضريح السيدة نرجس عليها السلام في سامراء مرصع بالماس والياقوت والزبرجد والدر والزفير والزمرد، وفي ذؤابته فيروزة بيضاء نادرة منقوش عليها (يا قائم آل محمد).

وهو من عمل النقاش السيد حيدر أبو السيوف في الكاظمية المقدسة.

• ظهر الغلاف: الآثار الباقية من معالم الدولة الإسلامية في سامراء، ومعالم الروم في القسطنطينية وقت الحادثة.

الطبعة الأولى

ذي الحجة ١٤٤٤هـ

مَلِيكَةُ الرُّومِ

قراءة أصيلة في هويتها وسيرتها

حسن يوسف بن نخي

تقريظ

هذا ما جاد به سماحة العلامة الشيخ نزار آل سنبل حفظه الله متفضلا في تقريظ الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سادة الخلق أجمعين، نبينا محمد وآله الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين.

وبعد؛ فقد أرسل إلي جناب فضيلة الشيخ حسن بن نخي حفظه الله ورعاه كتابه الموسوم بـ(مليكة الروم)، ورغب إلي أن أكتب شيئاً حوله، فأقول:

قال الشاعر:

جزى الله الشدائد كل خير وإن كانت تغصّصني بريقي

وما شكري لها حمداً ولكن عرفت بها عدوي من صديقي

وسوف نبدل الشدائد بالشبهات، والعدو بمشوب الإيمان، أو بالقلِق علمياً، ونبدّل الصديق بثابت القدم إيماناً وعلماً، والسبب في ذلك: أنا لاحظنا الشبهات التي أثيرت في هذه الأزمنة المتأخرة قد صارت سبباً لبروز أقلام علمية

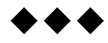
حرة فأحاطت بها من جميع الجهات، فأبرزت عُوارها وخللها للناس عامة، فاتضح لصحيح الحواس نزول قيمة الشبهة في سوق العلم، وشاهد بعيني عقله أن الحقيقة سافرة كالشمس في ضاحية الصيف.

وهذا الكتاب أحد الشواهد على هذه الدعوى، فقد تناول المؤلف وفقه الله رواية (مليكة الروم) ودرسها دراسة تحليلية من جهات مختلفة، تأريخية ورجالية وجغرافية..، وصار يدور في أرجائها بقلم الناقد الخبير، والمحلّل البصير، فيستفيد من كل كلمة هنا، أو جملة هناك، كما يفعل رجال الأمن الجنائي، أو عليّة المحامين، فلم يبقِ للمنكر عموداً يتمسّك به، أو ركناً يستند إليه، وقد أعجبني تتبعه، وملاحقته للقضية في جوانبها المتعددة. فلله درّه وعليه أجره.

نزار آل سنبل القطيفي

الجش - القطيف

١٩/ ١٢/ ١٤٤٤هـ



المدخل

توطئة - جهود مبذولة - العمل في الكتاب - إذن الدخول

توطئة

في قلب النجف الأشرف، وبين أسطوانات الجامع الهندي وحلقات الدروس الحوزوية، في زوايا يتضوع منها عبق علوم آل محمد ﷺ، هناك استوقفني بعض الفضلاء ليطلعني على الشبهة المثارة حول والدة صاحب الأمر عليه السلام منبِّهًا على خطورتها، وضرورة التصدي، وكنت قد اطلعت على الشبهة قبل ذاك لكن لم أكن أعلم أنها لقيت رواجها! فتنبهت لخطورة الأمر، وطفقت أتتبع ما ذكر في المسألة.

ثم إنني قبل خوض البحث قرأت الشبهات فارتبت أشد الارتياب، فلا أدلة معتبرة ولا موازين علمية تحكم، ولا غرض نبيل يقود مثيرها، وأكثر ما زاد في الأمر ريبة أن الشبهة تزامنت مع إثارة بعض الناصبة لها، بنفس البيان والبرهان، كأن الطرفين يستقيان من منبع واحد، لكن الناصب يشكك بولادة

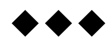
صاحب الأمرعليه السلام والآخر يدعو إلى تنقيح التراث!

وحين شرعت في الرد وجدت الأمر يكفي في إثباته وإبطال دعوى المنكر سطورًا يسيرة، غير أني وجدت أن في تمامه واستيفائه فائدة ونصرة لبقية الله الأعظم أرواحنا فداه، وقد يسّر الله ذلك فله الحمد والشكر.

ثم إني زرت جملة من المكتبات العامة والمؤسسات الأكاديمية –وقد كنت بعيد العهد بها– واطلعت على عدد وافر من المصادر والمراجع، وشعرت ببركة وعناية خاصة كانت تسرّع وتيرة البحث؛ أبحث عن سؤال فتقع يدي على كتاب فيه الجواب، أو يخطر في بالي خاطر فأجد فائدة لم أحسب حسابها؛ منها أني كنت في إحدى المكتبات منهمكا في القراءة في قسم التاريخ، فعرض لي أن أترك كل ما في يدي وأتوجه إلى قسم الجيوجليا لأقرأ، فوقعت عيني على أخبار الزلازل وهو ما لم أكن أحسب أن أجد له ربطًا بما نحن فيه! ونحو ذلك كثير من التوفيقات كانت حافزا لمواصلة الكتابة، ما جعل إنجاز البحث سريعًا.

وقد كنت أعرض كل جديد من الاستنتاجات في البحث على الأخوة والفضلاء بين الدروس صباحًا في محلة الحويش من النجف الأشرف، وأرى ما كان قريبًا للذائقة السليمة من التحليل وربط الأحداث بعيدًا عن التكلف موافقًا للأصول والقواعد لأثبته، وما كان يحتاج إلى تقويم في المطالب العلمية لأقومه، فانتفعت في ذلك كثيرًا ما طوى الوقت طيًّا سريعًا وهذه من بركات جوار أمير المؤمنينعليه السلام لا عدمناه.

كما أعانني بعض الأخوة من الأكاديميين في ترجمة النصوص، والتثبت من المصادر الأجنبية المشار إليها في المراجع العربية، كما عرضت النتائج والرؤى عليهم، وأخذت بآرائهم لما لها من قيمة علمية في كثير من جوانب البحث.



جهود مبذولة

على الرغم من كثرة البحوث في القضية المهدوية إلا أن التوفيق بين ما ورد في مصادرنا وبين ما أثبته التاريخ عموما، لم يستوفِ حقه من التحقيق، ولعل شح المصادر وتداخل العلوم من أهم العوائق في سبر أغوار هذا البحث.

لكن على الرغم من ذلك فقد تصدى جملة من العلماء والباحثين للتحقيق في هذا الموضوع، منهم: المرحوم السيد محمد علي الحلو ضمن بحث بعنوان: أم المولود، لم يطبع ولكن نشر منه مقال موجز بهذا الخصوص. ومنهم أيضًا سماحة الشيخ نزيه محيي الدين حفظه الله في مقال له بعنوان: أم المهدي عليه السلام حقيقة ثابتة. ومنهم سماحة الشيخ علي الكوراني حفظه الله في مقال له بعنوان: رسالة حول والدة الإمام المهدي صلوات الله عليه، كما تفرق في مطاوي كتبه الإشارة إلى هذا المطلب. ومنهم أيضًا مقال لسماحة الشيخ علي الفياض حفظه الله بعنوان: السيدة نرجس عليها السلام شبهات وردود.

كما تعرض لهذا الموضوع آية الله السيد هادي الميلاني قدس سره في كتابه قادتنا كيف نعرفهم، وتعرض له أيضًا الشيخ نجم الدين الطبسي حفظه الله في تحقيق له

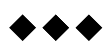
حول والدة صاحب الزمان عليه السلام، وغيرهم ثلة من الفضلاء جزاهم الله خيرًا.

غير أن هذي البحوث جلّها كانت تناقش المسألة ثبوتًا من حيث إمكانية وقوعها، دفعًا لما يثار من شبهات من عدم إمكان وقوع الحادثة وأنه لا قيصر ولا حرب تنطبق عليها المواصفات المشار إليها، فلم يكن غرض الباحثين استيفاء البحث وحسم نتيجة تامة لتفاصيل الحادثة سوى القول بأنها حادثة وردت في مصادرنا المعتبرة لا تتعارض مع التاريخ عموما.

ومن الجهود المهمة أيضًا سلسلة من المقالات العلمية باللغة الإنجليزية للأساتذة الأكاديميين: إحسان روحي، وهادي تقوي، ونويد كريمي. وتفضل بترجمتها للعربية الأخ الدكتور محمد حيات. كما كتب الشيخ محمد مبيريك قراءة نقدية في الرد على الشبهة بشكل مفصل، وتصدى أيضًا جملة من الباحثين للرد على الشبهة في محاضرات أو مقالات مختصرة. وغيرها من جهود مباركة كانت مفتاحًا وطريقًا لتأليف هذا الكتاب.

وأهم ما لفتني في هذه الردود والبحوث التي كتبت بغرض تحقيق شخصية القيصر تطابق النتائج الأساسية رغم اختلاف المنابع التي انطلق منها كل باحث.

نسأل الله أن يجزي جميع العاملين بأحسن الجزاء ويتقبلها بأحسن القبول.



العمل في الكتاب

لتشعب البحث وتداخل مطالبه أثر في كيفية العمل، وكانت خطة العمل من البداية مطالعة المصادر وجمع المعلومات إجمالا ثم تدوين المناسب منها، لكني وجدت أن في المصادر كثرة قد تربك القارئ ولا أظن ثمة حاجة لتكثيرها.

فمثلا لو أن باحثًا غير مسلم أراد إثبات أن النوم من مبطلات الوضوء عند المسلمين فإن هذه المعلومة يكفي لإثباتها الإرجاع إلى مصدر واحد من كتب الفقه ولا معنى لتكثير المصادر، خلافًا ما إذا أراد مناقشة قضية جدلية بين عامة المسلمين.

ونحن هنا نتحدث في غالب الأحيان عن واضحات في التاريخ البيزنطي، لذلك سعيت إلى الاكتفاء قدر الإمكان بما يتيسر للقارئ الرجوع إليه، وفضلت الاستعانة بما هو متوفر على شبكات البحث دون ما وجدته في المكتبات ولم أجد له نسخة مصورة على المواقع الالكترونية.

وارتأيت أيضًا الاقتباس من المصادر العربية أو المترجمة إلى العربية وعدم الاستعانة بالمصادر الأجنبية ما أمكن وذلك لسهولة رجوع الطبقة المخاطبة إليها، لكنني قمت بمطابقة المعلومات مع تلك المصادر وتتبعت فانتخبت من المصادر العربية ما هو موافق للمصادر المعتمدة، وأشرت في بعض المواطن إلى اشتباهات وقع فيها الكتاب العرب، إما لخطأ في التعريب أو لأسباب أخرى.

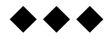
كما أنني استعنت بجملة من المقالات العلمية، ورغم أنه كان من الممكن

الانتفاع من هذه المقالات واقتباس المصادر دون إرجاع إلى أصل البحث الأكاديمي، إلا أنني حفظا لحقوق الباحثين أحلت إلى المقال العلمي ولم أحل إلى المصادر الأصلية، لكنني تتبعت مصادر المقالات، فلم أعتمد إلا على من وثقت بدقته، وقد وجدت بعض المقالات غير دقيقة في نقل المعلومات فلم أعتمد عليها.

وقد وجدت من عوائق البحث أمام القارئ كثرة الأسماء الأجنبية فسعيت إلى تجاهل من لا مدخلية له في صلب البحث، فذكرت الوصف دون الاسم (بعض الفلاسفة، أحد الأباطرة..) وحاولت الاكتفاء ما أمكن بذكر من له دخل مباشر فيما نحن فيه.

كما أنني اعتمدت في كيفية الإحالة إلى المصادر الطريقة المتعارفة عندنا ولم ألجأ إلى النظام الأكاديمي في الإحالة إلا في المصادر الأجنبية، أما في قائمة المراجع فلم أدوّن تفاصيل الطبعات في الكتب المفرغة على أجهزة الحاسب الآلي فإن الرجوع إلى المصادر سهل فيها، أما الكتب الورقية فقد ذكرت التفاصيل المهمة ليتسنى للقارئ الرجوع إلى رقم الصفحة المشار إليها بسهولة.

ولا يفوتني أن أشكر كل من كانت له يد في إتمام هذا العمل، فأسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء وأن يضاعف أجرهم وأن يديم توفيقاتهم للعلم والعمل الصالح.



إذن الدخول

كان أبو الطيب[١] أحمد بن محمد رحمه الله لا يدخل مشهد العسكريين عليهما السلام ويزور من وراء الشباك، وكان يقول: للدار صاحب.

قال رحمه الله: جئت يوم عاشوراء نصف نهار ظهير والشمس تغلي، والطريق خالٍ من أحد، وأنا فزع من الزعار ومن أهل البلد أتخفى، إلى أن بلغت الحائط الذي أمضي منه إلى الشباك، فمددت عيني فإذا برجل جالس على الباب ظهره لي كأنه ينظر في دفتر.

فقال لي: يا أبا الطيب، بصوت يشبه صوت حسين بن علي بن أبي جعفر بن الرضا عليه السلام. فقلت: هذا حسين بن علي[٢] قد جاء يزور أخاه. قلت: يا سيدي، أمضي أزور من الشباك وأجيئك فأقضي حقك.

قال: ولم لا تدخل، يا أبا الطيب؟

---

(١) قال أبو محمد الحسن بن محمد الفحام: كان أبو الطيب رجلا من أصحابنا، وكان جده بوطير غلام الإمام أبي الحسن علي بن محمد عليه السلام وكان ممن لا يدخل المشهد ويزور من وراء الشباك، ويقول للدار صاحب، حتى أذن له. (أمالي الطوسي ٢٩٩)

(٢) المقصود هو السيد حسين بن الإمام علي الهادي بن الإمام أبي جعفر الجواد عليه السلام.

قال الشيخ عباس القمي رحمه الله في مفاتيح الجنان بشأنه: ويبدو لي أنه من أعاظم السادة وأجلائهم، فقد استفدت من بعض الأحاديث أنه كان يعبر عن مولانا الإمام الحسن العسكري عليه السلام وأخيه الحسين هذا بالسبطين، تشبيها لهما بسبطي نبي الرحمة جديهما الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام. وقد ورد في حديث أبي الطيب أن صوت الحجة صلوات الله عليه كان يشبه صوت الحسين عليه السلام.

فقلت له: الدار لها مالك، لا أدخلها من غير إذنه.

فقال: يا أبا الطيب، تكون مولانا رقًّا، وتوالينا حقًّا، ونمنعك تدخل الدار! ادخل يا أبا الطيب.

فقلت: أمضي أسلم عليه ولا أقبله منه؛ فجئت إلى الباب وليس عليه أحد فيشعر بي! وبادرت إلى عند البصري خادم الموضع، ففتح لي الباب ودخلت.

فكان يقول: أليس كنت لا تدخل الدار؟

فقال: أما أنا فقد أذنوا لي، بقيتم أنتم.(١)

لولا توفيقات أحسبها إذن صاحب الدار ما كنت أخوض في هذا البحث. فمنه الإذن، وله النصرة أرواحنا له الفداء.

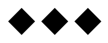
وعلى أعتابه أضع هذا الجهد راجيًا القبول.

١٨ ذي الحجة ١٤٤٤هـ

مثوى آبائي ودار سكناي

مدينة أمير المؤمنين عليه السلام النجف الأشرف

حسن يوسف بن نخي



---

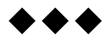
(١) أمالي الطوسي ٢٨٧

الفصل الأول

اللوازم الفاسدة - ثمرات هامة

أهمية البحث

بعد التسالم على كون والدة الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف تنتسب إلى قيصر الروم من جهة الأب، وتنتسب إلى وصي عيسى شمعون من جهة الأم فإن لهذا البحث ثمرات هامة، وللتشكيك به لوازم فاسدة؛ لذا فإننا في هذا الفصل سنسلط الضوء على أهمية البحث وفوائده، وفي الفصول التالية نناقش ما ورد من روايات وأخبار بهذا الخصوص.



اللوازم الفاسدة

من الملفت للنظر أن أطروحة إنكار انتساب السيدة نرجس عليها السلام إلى قيصر الروم تزامن معها أطروحة من المخالفين في التشكيك بأصل ولادة الإمام صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف؛ بنفس الأدلة والمقدمات، ولكن الأهداف المعلنة والنتائج مختلفة.

بالضبط مثل نظرية انتحال الشعر الجاهلي، حيث قدم الأديب المصري طه حسين نظرية مشابهة لما قدمه المستشرق البريطاني مرجليوث بأن الشعر الجاهلي أكذوبة، وقد اختُلق في عصور متأخرة ونسب إلى الجاهلية. ومن لوازم هذا القول أن العرب لم يكونوا متفوقين أدبيًّا، فلا معنى لتحدي القرآن العرب أن يأتوا بسورة من مثله، وعليه يبطل القول بإعجاز القرآن!

بغض النظر عن كون هدف طه حسين علميًا صِرفًا أو غير ذلك، فإن طرحه البحث استدعى الرد السريع خصوصًا مع تزامنه مع طرح مرجليوث، فإن من لوازم البحثين التشكيك بإعجاز القرآن، وإن لم يصرح طه حسين بذلك.

الأمر مختلف تماما ما لو شكك أحد نقاد الأدب في الشعر الأندلسي زاعمًا أنه كُتب في بغداد مثلا لا الأندلس، وافترض نظرية وهمية بهذا الخصوص، إذ لا لوازم عقائدية تترتب عليه ولا عدو يترصد موقفنا من الأدب الأندلسي فعلا! فلا ضرورة للتصدي السريع سوى البحث العلمي.

وبتعبير آخر إن طرح طه حسين وإن كان ظاهره بحثًا أدبيًّا لكن حين

ترتبت عليه جملة من اللوازم الفاسدة مما له مساس بالعقيدة تحتم ردّ دعواه وإبطال زعمه بالأدلة القاطعة منبهين على خطورة ما ادعاه، فحوكم البحث الأدبي بتشدد عقدي، لأن الخصم اليهودي أو النصراني يبحث عن ثغرة من هذا النوع ولا يبحث عن ثغرة في الأدب الأندلسي.

وما نحن فيه من التشكيك بهوية والدة الإمام عجل الله فرجه من هذا القبيل؛ وقد التبس الأمر عند البعض فتوهم أمرًا آخر في هويتها عليها السلام واستعجل ونشر ما توصل إليه من نتائج لا أظنها تعدت دائرة البحث في موسوعة ويكبيديا!

لابد من التنبه إلى ما يُثار في ساحة المخالفين اليوم من أن الشيعة وبعد أكثر من ألف سنة لا زالت شخصية إمامهم محاطة بالغموض ما يعني أنها محض خرافة، الشيعة لا يعرفون إن كانت أمّ إمامهم من السند أو المغرب أو الروم أو النوبة؟ ابتيعت من سوق النخاسة أو ولدت في دار السيدة حكيمة؟ اسمها نرجس أو مليكة أو خمط أو صقيل أو سوسن؟

وهكذا تتكرر الأسئلة، رغم أن الأجوبة واضحة، فهويتها عليها السلام معلومة وهي من نسل قيصر الروم وهذا ما ورد بالسند الصحيح، وغير ذلك لم يرد بسند صحيح ولا ضعيف أصلا! وأسماؤها متعددة كما هو شائع عند الإماء في ذلك العصر متعارف عند كثير من الناس إلى يومنا هذا.

خروج شخص من الوسط الشيعي يروّج لهذا الطرح لا يخدم إلا أعداء المذهب، وليس من الصحيح أن يقول القائل لا يهمنا أيًّا كانت هي؛ المهم أنها أم

إمامناعليه السلام ولها مكانتها! نحن لا ننكر أن لها مكانتها بأي حال من الأحوال إذ اختارها الله وعاء لإمامنا المنتظر أرواحنا فداه، لكن ليس من الحكمة الاكتفاء بهذا القول مع وجود حملة تشكيك في أصل وجودهاعليها السلام.

إن تشكيك الأعداء بأصل وجودها يعيدهم إلى دائرة اتهامنا بالأساطير والخرافة ثم إنكار ولادة الإمامعجل الله فرجه، فهل يكون كل ذلك برضا وقبول منا رغم مخالفته لما ثبت في رواياتنا؟ وهل يجوز لنا احترام الرأي الباطل المبني على تخرصات تضعف عقائد الناس، وأن نستخف بالحقائق والمسلمات؟! إنه هذيان علمي لا علاقة له بأدب الحوار أصلا!

ثم إن مما طرح من المخالفين أو من المحسوبين على المذهب –سواء بغرض الإساءة إلى السيدة نرجسعليها السلام، أو لمجرد المناقشة وتسقيط الرواية– أن اعتماد خبر مسير السيدة نرجس من الروم إلى بغداد ثم إلى سامراء يلزم منه عدة أمور فاسدة وهي: نشأتها في بلاط حاكم فاسد، وولادتها على غير الإسلام، ثم حداثة عهدها بالإسلام، وانتقالها في ملك النخاسين! وأن هذه الخصال لا تليق بشأن والدة الإمامعجل الله فرجه، فهذا مما يلزم الرد عليه لأن التسليم به أو غض النظر عنه أنكى وأشد!

أما قولهم: بأن حياتها في بيت طاغية وحاكم جائر انتقاص لحقها لا يليق بشأن أم المهدي المنتظرعجل الله فرجه؛ فما هو إلا محاولة لاستدرار عواطف العامة، فهذي آسيا بنت مزاحم ما ضرها أن عاشت في بيت فرعون، حتى كملت حين لم يكمل من النساء إلا قليل، ولا أظن قيصر الروم النصراني أشد كفرًا من فرعون موسى

القائل أنا ربكم الأعلى! بل هو فضل وشرف أن يكمل الإنسان رغم شدة الظروف وحرجيتها فيختار الصواب ويعيش مؤمنا بين أعتى الخلق حتى صارت آسيا بنت مزاحم ضرة خديجة بنت خويلد في الجنة(١)، فياله من شرف!

فإن سلمنا بكون قولهم منقصة فهذا يلزم انتقاص والدة الإمام زين العابدينعليه السلام، ويلزم انتقاص صفية بنت حيي بن أخطب زوجة النبيصلى الله عليه وآله(٢)، وهذا ما لا يقبله أحد لكنه لازم كلامهم على كل حال!

أما قولهم: أنها ولدت(٣) على غير الإسلام وتأخرت في إسلامها؛ وما في هذا من النقص أن تتنبه فتاة بعمر الثالثة عشر من عمرها إلى بطلان النصرانية وتهتدي إلى الإسلام؟ أليس هذا عين الفضل والكمال؟ أم أن القائل لا يرى المسلم

---

(١) دخل رسول اللهصلى الله عليه وآله على خديجة وهي لما بها، فقال لها: بالرغم منا ما نرى بك يا خديجة، فإذا قدمت على ضرائرك فأقرئيهن السلام. فقالت: من هنّ يا رسول الله؟ قالصلى الله عليه وآله: مريم ابنة عمران، وكلثم أخت موسى، وآسية امرأة فرعون. قالت: بالرفاء يا رسول الله. من لا يحضره الفقيه ١/ ١٣٩

(٢) جاء في تفسير القمي: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَ﴾ فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، وَكَانَتْ زَوْجَةَ رَسُولِ اللهِصلى الله عليه وآله، وَذَلِكَ.. إلى أن قال: كَانَتَا تُؤْذِيَانِهَا وَتَشْتِمَانِهَا وَتَقُولَانِ لَهَا يَا بِنْتَ الْيَهُودِيَّةِ، فَشَكَتْ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِصلى الله عليه وآله، فَقَالَ لَهَا: أَلَا تُجِيبِينَّهُمَا؟ فَقَالَتْ: بِمَاذَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: قُولِي: أَبِي هَارُونُ نَبِيُّ اللهِ، وَعَمِّي مُوسَى كَلِيمُ اللهِ، وَزَوْجِي مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، فَمَا تُنْكِرَانِ مِنِّي؟ فَقَالَتْ لَهُمَا، فَقَالَتَا: هَذَا عَلَّمَكِ رَسُولُ اللهِصلى الله عليه وآله. فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ..﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ﴾.

(٣) والصحيح نشأت لا ولدت؛ لأن كل مولود يولد على الفطرة إلا أن أبويه يهودانه أو ينصرانه.

إلا من ولد لأم مسلمة كما ترى اليهود أن اليهودي ليس إلا من ولد لأم يهودية؟!

رأت الحق فاتبعته وخرجت إلى دار الإمامة لتلحق بإمامها، تركت الدنيا وقصورها لتعيش في إقامة جبرية بين سجن وتشريد، واعتقال واقتحام مسلِّمة في كل ما جرى لإمام زمانهاعليه السلام ثم يعاب عليها ذلك؟!

لعمري ما في هذه الإنشائيات التي سردوها منقصة، سوى تغرير العوام باسم الثقافة، ولا نرى في حديثهم سوى جهالات واقتطاع كلام وخيانات علمية!

أما اعتراضهم على انتقالها في سوق النخاسة، فلعمري إن كانت هذه الأمور منقصة فإنها تسري على كل أبناء الجواري من الأنبياء والأئمة والصالحين والخلفاء وغيرهم ممن انتقلت أمهاتهم بأيدي النخاسين؟

هل يقولون ذلك في نبي الله إسماعيلعليه السلام لأن أمه جارية[1] انتقلت في أيدي أسيادها حتى صارت تحت إبراهيمعليه السلام؟ إن هذا القول راجع لنزعة جاهلية

(١) هذا الأمر من أسباب تعالي اليهود عن دخول الإسلام في بداية البعثة! فإنهم يرون السيادة لأبناء سارة أما أبناء هاجر فلا يحق لهم أن يسودوا لأن أمهم جارية. من شواهد ذلك ما ورد في أخبار النبيصلى الله عليه وآله بداية هجرته إلى المدينة، حيث دعا اليهود إلى الإسلام فاستمهلوه وطلبوا الهدنة، فلما خلا يهود بني النضير بعضهم ببعض قال حُيي بن أخطب لأخويه جُدي وأبي ياسر ابني أخطب في شأن النبيصلى الله عليه وآله: هو الذي نجده في التوراة، والذي بشّرنا به علماؤنا، ولا أزال له عدوًّا؛ لأن النبوة خرجت من ولد إسحاق وصارت في ولد إسماعيل، ولا نكون تبعًا لولد إسماعيل أبدًا. (راجع إعلام الورى للطبرسي ١/ ١٥٨)

بعيدة عن الإسلام الذي شرّف المؤمن بإيمانه لا بحسبه ولا بإنسانيته، إنما العقيدة والعمل! لا أدري كيف يتحدث هؤلاء باسم الدين لنبذ ما جاء به الإسلام من قيم وأخلاق!

ثم إن الابتلاءات سُنّة تسبق بلوغ المراتب العليا؛ هذا يوسف الصديق نبي حكم مصر وخضعت له الرقاب وما كان يقع ذلك دون أن يُلقى في غيابت الجب ثم يباع بثمن بخس[1]، ثم يبتلى بالسجن، وغير ذلك من محن مر بها حتى صار بعدها عزيز مصر، وذاك أبوه إبراهيم ما كان ليبلغ الإمامة حتى يُبتلى بكلمات، ومثل ذلك كثير مطرّد في سِيرِ الأولياء؛ فما الضير أن تُختبر ابنة القيصر بذلك، قبل أن يؤذن لها بأن تكون وعاءً لولي الله الأعظم؟ فتختار السبي بنفسها تقطع الفرات بزورق بعد أن غادرت قصور القسطنطينية بزي الخدم، حتى تبلغ بغداد لتباع في سوق النخاسة، كل ذلك يسبق الإذن لها بأن تكون أمًّا لإمامنا الحجة عجل الله فرجه الشريف، ولك أن تقول شاء الله أن يراها كذلك قبل أن تنال هذا الشرف!

لعمري لا أقرأ في قولهم غفلة عما أقول، غير أني أراه تعريضًا بأمهات الأئمة عليهم السلام! فوالدة الإمام زين العابدين عليه السلام سُبيت من بلاد فارس، ووالدة الإمام الكاظم عليه السلام سُبيت من بلاد البربر، ووالدة الإمام الرضا عليه السلام سُبيت من مدينة مرسية[2] وجاء بها نخاس مغربي إلى الحجاز، ووالدة إمامنا الجواد عليه السلام جارية نوبية

---

(١) في الرواية كان الثمن البخس قيمة كلب الصيد! بحار الأنوار ١٢/ ٣٠٠

(٢) مرسية مدينة معروفة في شرق الأندلس. واحتمل البعض أن مرسية تصحيف مريسية الموجودة في ←←←

من صعيد مصر، ووالدة إمامنا الهادي عليه السلام جارية مغربية، ووالدة الإمام العسكري عليه السلام جارية أيضًا. وكل ما قيل في السيدة نرجس عليها السلام يرد في سائر أمهات الأئمة عليهم السلام، وهو مقصودهم لا غفر الله لهم.

وإنه لما بلغ بنا المقام إلى هنا فإنه من المناسب ذكر ما روي في الكافي من أن الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام لما اشترى السيدة حميدة المصفاة عليها السلام لولده الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال لها: أخبريني أبكر أنتِ أم ثيب؟ قالت: بكر. قال عليه السلام: وكيف، ولا يقع في أيدي النخاسين شيء إلا أفسدوه؟! فأخبرته أنه كان يحرسها رجل[1] أبيض الرأس واللحية عليه السلام.[2] وورد عن الصادق عليه السلام في شأنها أيضًا: حميدة مصفاةٌ من الأدناس، كسبيكة الذهب، ما زالت الأملاك تحرسها حتى أُدّيت إلي؛ كرامة من الله لي والحجة من بعدي.[3]

وكذلك روى الشيخ الصدوق رحمه الله عن علي بن ميثم[4] عن أمه: أن السيدة

النوبة وهي مدينة والدة الإمام الجواد عليه السلام. وكون النخاس مغربي يرجح عدم التصحيف وأنها مرسية الأندلسية، والله العالم.

(١) يظهر من الرواية التالية أن الرجل كان من الملائكة.

(٢) راجع الكافي ١/ ٤٧٦ ودلائل الإمامة ٣٠٨

(٣) الكافي ١/ ٤٧٧

(٤) علي بن ميثم: روى الصدوق بسنده عن عون بن محمد الكندي أنه لم ير أحدا قط أعرف بأمور الأئمة عليهم السلام وأخبارهم ومناكحهم من أبي الحسن علي بن ميثم.

نجمة والدة إمامنا الرضا عليه السلام كانت بكرًا حين اشتُريت.(١)

وقريب منه ما قاله إمامنا الهادي عليه السلام في والدته السيدة سمانة: أمي عارفة بحقي، وهي من أهل الجنة، لا يقربها شيطان مارد، ولا ينالها كيد جبار عنيد، وهي مكلوءة بعين الله التي لا تنام، ولا تتخلف عن أمهات الصديقين والصالحين.(٢)

وقريب منه ما قاله إمامنا الهادي عليه السلام في والدة الإمام العسكري عليه السلام السيدة سليل، قال عليه السلام: سليل مسلولة من الآفات والعاهات والأرجاس والأنجاس.(٣)

وكل ذلك مؤيد بما جاء في الزيارة المباركة(٤): السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَئِمَّةَ الْهُدَىٰ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ التَّقْوَىٰ... لَمْ تَزَالُوا بِعَيْنِ الله يَنْسَخُكُمْ مِنْ أَصْلاَبِ كُلِّ مُطَهَّرٍ، وَيَنْقُلُكُمْ مِنْ أَرْحَامِ الْمُطَهَّرَاتِ، لَمْ تُدَنِّسْكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ.

وإنما جئت بهذه الروايات ردًّا على تعريضهم لا غفر الله لهم بأمهات الأئمة عليهم السلام فإنهن طاهرات لا يختلفن عن أمهات الصديقين مكلوءات محروسات بعين الله، وإن انتخاب الباري عز وجل لهذه النسوة من بين نساء الأرض شرف ما بعده

---

(١) راجع عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢/ ٢٦

(٢) دلائل الإمامة ٤١٠

(٣) إثبات الوصية ٢٤٤

(٤) من زيارة أئمة البقيع عليهم السلام تهذيب الأحكام ٦/ ٧٩

شرف، لا يضره سبي واسترقاق، وهبة أو بيع في سوق نخاسة، فإن الله حارسهن من كل شيطان مارد.

هذا ما لزم التنويه به من لوازم فاسدة تعقب قبول هذه الأطروحات والتشكيكات في انتساب السيدة نرجس عليها السلام لقيصر الروم.

وأضيف على ذلك أن هذا التشكيك هو فصل من فصول حملة التشكيك بالموروث الأصيل، وهذا التشكيك يختلف عن المناقشات المتعارفة في الأوساط العلمية، بل هي حملة مؤداها الأخير العبث بهوية المذهب، فالمشروع لو نظرت إليه عن كثب وجدت نتائجه رد تراثنا الروائي، والتكذيب بتاريخنا، والاستخفاف بمقدساتنا، والتنكر لشعائرنا، وتقويض أسس منظومة التدين في الوسط الإيماني.

والسكوت يفتح باب التمادي، كالمؤدب يضرب الصبي ضربًا مبرحا ليكتب (ألف) على أنه إن فعل وكتبها توقف عن ضربه، والصبي يتحمل الضرب ولا يكتب! يُسأل الصبي عن ذلك: اكتب الألف وانج بنفسك من هذا الضرب المبرح! فيجيب: إن كتبت الألف، طالبني بالباء، إنه يريدها عن آخرها حتى الياء، وإن زعم أن مراده الألف وحسب! قال تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

◆◆◆

ثمرات هامة

سرعة التوسع العلمي بعد الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر الميلادي لحقتها نتائج علمية مهمة، أهمها انقراض فكرة موسوعية الفيلسوف، ولم يعد الفيلسوف هو الطبيب الرياضي الكيميائي عالم النفس والجغرافيا والتاريخ وكل شيء في وقت واحد! لم يعد بوسع الإنسان أن يجمع هذه التخصصات في آن واحد.

لذلك اتجه كل عالم أو باحث إلى التخصص في علم واحد بل في فرع منه، وانتهى زمن الموسوعية، فأصبح المتخصص في الهندسة مثلا يدرس فرعًا منه، كالهندسة المدنية، لا كلها بل فرعًا منها كهندسة الطرق، لا كلها بل فرعًا منها فيتخصص بدراسة الجسور، وفي هذا التخصص فروع تزداد كل ما ازداد العلم تقدمًّا!

ومع سرعة دوران عجلة التقدم العلمي ظهر نمط آخر في التخصص، وهو الدمج بين علمين لاستحداث فرع علمي جديد، كالدمج بين هندسة الطرق والجيولجيا، لدراسة أثر الزلازل على الهياكل الإنشائية.

وعلى سبيل المثال فإن عجلة الصناعة لما كانت شديدة البطء، كانت حركة الإنتاج أبطأ من حاجة السوق، ثم إن الثورة الصناعية دفعتها إلى السرعة، حتى صار الإنتاج أكثر من حاجة السوق، ففضلت البضائع في المصانع، فنتج عن ذلك استحداث علم التسويق، ثم إن التوسع العلمي والقفزات العلمية المتكررة آلت

إلى دمج التخصصات لمواكبة التطور، فانقسم التسويق إلى فروع واحتاج المختص به إلى أن يتخصص في التغذية مثلا، ما يعني أن يدرس فضلا عن تخصصه التجاري، تخصصا بيولوجيًّا، ليتمكن من معرفة حاجة السوق، أي أن تاجر الأغذية بحاجة إلى متخصص يجري بحوثه في التسويق والأنظمة الغذائية معًا ليصل إلى كيفية جلب الزبائن وفق حاجة السوق.

ومن الأمثلة أيضًا أن المتخصص في برمجة الحاسب الآلي قد يضطر إلى دراسة النحو والصرف وعلوم اللغة ليتسنى له العمل على برامج الترجمة أو التصحيح التلقائي، وهو ما يعرف بعلم اللغة الحاسوبي.

كما ظهر في الوسط العلمي تخصص علم الأحياء الأثرية، كفرع لعلم الآثار لا يستغني عن البيولجيا لفهم آثار عظام الحيوانات أو ربما بقايا النباتات.

والأمثلة في ذلك كثيرة، لكن الذي يهمنا أن ثمة فروع في بحثنا التاريخي يمكن دراستها من زوايا تستدعي إحاطة بعلوم أخرى، أرى أن لها ثمارًا هامة جديرة بالتوقف والتأمل، أذكر بعضها على نحو موجز لعل باحثًا متخصصًّا يتصدى لمناقشتها لاحقًا، وهي[1]:

---

(١) تعمّدت هنا نقل المطالب العلمية دون إرجاع إلى مصدر، حتى لا يتصور القارئ أن المكتوب هنا بحث علمي تام، وإنما الغرض إثارة تساؤلات علمية لفتح باب في مناقشة هذه المطالب دون جزم مسبق بالنتائج. فالكلام هنا تنبيه للمتخصصين لفتح هذه الملفات ونحوها من القضايا التخصصية المرتبطة ببحثنا.

مهدي الأديان أو المخلص

من الخصال الثابتة في المخلص الذي تترقبه اليهود وتعتقد به النصارى أن يكون داودي النسب، كما أن الثابت في مهدي الإسلام أنه عليه السلام هاشمي النسب من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن ولد فاطمة عليها السلام.

وقد روت العامة أيضًا أن المهدي الموعود لونه عربي جسمه إسرائيلي، وهذا منسجم مع كون والدته من نسل شمعون أي من بني إسرائيل، فإن فيه عرقًا من بني إسرائيل.

وهذه الخصال مجتمعة في مولانا بقية الله الأعظم عجل الله تعالى فرجه الشريف، حسب ما ورد في قضية السيدة نرجس عليها السلام برواية الصدوق رحمه الله لأنه لأبيه العسكري عليه السلام من ولد فاطمة عليها السلام، ولأمه السيدة نرجس عليها السلام فإنه من نسل شمعون، أي من ذرية داود.

والمعلوم أن النسب يثبت عند اليهود والنصارى من جهة الأم كما يثبت من جهة الأب، بل عند اليهود الانتساب عن طريق الأم أولى، أما النصارى فلا حيلة لهم في تعيين نسب مخلصهم إلا عن طريق أمه السيدة مريم.

لا أظن أن اجتماع هذه الخصال في مهدينا عجل الله تعالى فرجه الشريف تحققت عن طريق الصدفة، بل إن الاعتقاد به يفك معضلة النصارى وما اعتقدوه في عيسى عليه السلام، لأن عيسى لم يكن داوديًّا، فنسبوه إلى داود عن طريق خطيب مريم العذراء يوسف النجار حسب عقيدتهم، فهو ابنه وفق السجلات الرسمية حسب قولهم لا ابنه واقعًا.

والواضح أن هذا الانتساب لا اعتبار له، فلا يصلح أن يكون عيسى ابن

مريم هو المخلص حسب معتقد النصارى، لأن أمه هارونية النسب لا داودية، وأشار إلى ذلك القرآن ليحاججهم بقوله: ﴿يَا أُختَ هَارُونَ﴾!(١)

وهنا يأتي دور الباحث في الأديان أن يجمع ما قيل بشأن المهدي (أو المسيا أو المسيح أو الماشيح على اختلاف التسميات). وقد ذكر لي أحد الفضلاء(٢) أنه عرض هذا الأمر على أحد النصارى فأخذ القول بمجامع قلبه، ورأى في ذلك بابًا للتأمل لمراجعة عقيدته، ثم إنه استعان برسام أيقونات ليرسم له الفكرة(٣).



(١) قال العلامة الطبطبائي رحمه الله في تفسير الميزان: قوله تعالى ﴿يَا أُختَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمرَأَ سَوءٍ وَمَا كَانَت أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ ذكر في المجمع أن في المراد من هارون أربعة أقوال أحدها أنه كان رجلاً صالحاً من بني إسرائيل ينسب إليه كل صالح، وعلى هذا فالمراد بالأخوة الشباهة ومعنى ﴿يَا أُختَ هَارُونَ﴾ يا شبيهة هارون. والثاني أنه كان أخاها لأبيها لا من أُمها. والثالث أن المراد به هارون أخو موسى الكليم وعلى هذا فالمراد بالأخوة الانتساب كما يقال أخو تميم. والرابع أنه كان رجلاً معروفاً بالعهر والفساد، انتهى ملخّصاً. والبغي الزانية، ومعنى الآية ظاهر.

وذكر الفيض الكاشاني رحمه الله في تفسير الصافي: ﴿يَا أُختَ هَارُونَ﴾ في المجمع عن المغيرة بن شعبة مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وآله أنّ هارون كان رجلاً صالحاً في بني اسرائيل ينسب إليه كلّ من عرف بالصلاح. وفي سعد السّعود لابن طاووس رحمه الله عنه مرفوعاً أنّ النبي صلى الله عليه وآله بعثه إلى نجران فقالوا ألستم تقرؤون ﴿يَا أُختَ هَارُونَ﴾ وبينهما كذا وكذا؟ فذكر ذلك للنّبي. فقال صلى الله عليه وآله: ألا قلت إنّهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصالحين منهم. والقمّي أنّ هارون كان رجلاً فاسقاً زانياً فشبّهوها به.

(٢) وهو سماحة السيد وليد البعاج، وقد عزم على كتابة بحث مفصل في هذا الموضوع.

(٣) وقد ألحقنا صورة الأيقونة في آخر الكتاب.

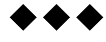
علم الوراثة والتنوع الجيني

من الثابت اليوم في علم الوراثة ارتفاع نسبة احتمالية الإصابة بالأمراض والإعاقات البدنية في حالات زواج الأقارب، ثم إن العكس ثابت أيضًا، فإن التنوع الجيني يعطي فرصة لسلامة صحية وطول عمر للمولود.

ويجدر التأمل بالأعراق التي توارثها إمامنا صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف، من بني هاشم سادة الخلق، إلى فارس والبربر والنوبة والمغرب والروم وغيرها، فإن هذا التنوع لا شك أن له جانبًا ماديًّا طبيعيًّا في ولادته سلام الله عليه. مضافًا إلى وجود احتمال طبيعي في أن يتوارث سلام الله عليه كل الكمالات البدنية من سائر الأعراق التي انحدر منها صلوات الله عليه.

والخلاصة والمؤكد أن هذا التنوع في أعراق أمهات الأئمة لم يأت عبثًا، فإن الاصطفاء الغيبي قد لا يخلو من جانب طبيعي وراثي يجعلهن مختلفات عن سائر النساء، فضلا عن الكمالات المعنوية الثابتة لهن سلام الله عليهن.

هي رؤية على نحو الاحتمال تحتاج إلى تخصص وتدقيق للوصول إلى نتائج نافعة.



المنجمون وولادة المهدي عليه السلام

روي عن أحمد بن إسحاق أنه كان بقم منجم يهودي موصوف بالحذق بالحساب فأحضره أحمد بن إسحاق وقال له: قد ولد مولود في وقت كذا وكذا فخذ الطالع واعمل له ميلادا. قال: فأخذ الطالع ونظر فيه وعمل عملا له، وقال لأحمد بن إسحاق: لست أرى النجوم تدلني فيما يوجبه الحساب أن هذا المولود لك، ولا يكون مثل هذا المولود إلا نبيا أو وصي نبي وإن النظر ليدل على أنه يملك الدنيا شرقًا وغربًا وبرًّا وبحرًا وسهلًا وجبلًا حتى لا يبقى على وجه الارض أحد إلا دان بدينه وقال بولايته.[1]

إن فهم قواعد التنجيم يتوقف على معرفة اسم الأم مع تفاصيل أخرى ترتبط بالمولود، ورغم أننا لا ندعو إلى التنجيم ولا نثق بقولهم، إلا أن ما جاء منهم يكون حجة عليهم، ولا يُتوقع أن العلامة المجلسي رحمه الله نقل الرواية عبثًا دون أن يكون فيها نفع.



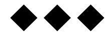
(١) بحار الأنوار ٥١/ ٢٣

آثار في الدولة البيزنطية

من الأمور النافعة في البحث التاريخي اليوم تتبع الآثار لدراسة ظروف كل حقبة زمنية، وبعد تتبع جملة من آثار القرن التاسع الميلادي في الدولة البيزنطية وجد بعض الباحثين(١) آثارًا للقيصر المحتمل كونه جد السيد نرجس عليها السلام، واحتملوا وجود آثار للسيدة عليها السلام ووالدها على بعض الأختام البيزنطية.

الأختام عادة تحمل أسماء الشخصيات وأوصافها، فأما الأوصاف مثل ابن القيصر وحفيدته فإنها واضحة، أما الأسماء فإن كثيرًا منها تكون مجهولة عند علماء الآثار، ولابد من تحليل البيانات لربطها بالتاريخ بعد إرجاع الأسماء إلى أصلها، مثل اسم والد السيدة نرجس عليها السلام فإنه في رواية الشيخ الصدوق رحمه الله: (يشوعا) وفي بعض النسخ (يشوعاز) وفي بعضها (يسوع) وفي بعضها (يوشعا) وغير ذلك من نسخ، وقد يكون أصلها (Joshua) أو (Iesous) ونحو ذلك.

ومن الآثار التي ينبغي التنقيب فيها ما ذكره فازليف في كتاب العرب والروم في أحداث معركة سميساط سنة ٨٥٩م من وجود خمسة شواهد نقشية محفورة على أسوار قلعة أنقرة، يمكن الرجوع إليها وتحليلها فلعل لها ربطًا بالأحداث، لأنها معركة يحتمل أن تكون هي التي أسرت فيها السيدة نرجس عليها السلام.



(١) الباحثان الأكاديميان: إحسان روحي وهادي تقوي، في مقالهم الأكاديمي:
An Ignored Arabic Account of a Byzantine Royal Woman

النقد التاريخي للأدب البيزنطي

في النقد الأدبي الحديث فضلا عن المدارس النقدية، فإن هناك نظريات ومناهج متعددة يتم من خلالها دراسة النصوص الأدبية: مناهج نفسية واجتماعية، وربما أنثروبولوجية وغيرها. والذي يهمنا المنهج التاريخي في نقد وتحليل النصوص الأدبية.

يقول أحد فلاسفة القرن العشرين: إنه لا يوجد ما يمكن أن نطلق عليه الرواية التاريخية؛ لسبب بسيط وهو أن كل رواية لا بد أن تكون تاريخية! وغاية ما هنالك أنها إذا كانت تدور عن القديم فهي تتصل بالتاريخ القديم، أما إذا كانت تدور في الوقت الراهن فإنها تتصل بالتاريخ المعاصر، وليس من حق الأدب أن لا يكون تاريخيًّا.

الناقد يحلل الفنون على اختلافها، شعرًا كانت أو نثرًا، لوحة فنية كانت أو هندسة معمارية، بل أي نوع من أنواع الفنون يمكن تحليلها وفق نظريات النقد الحديث.

والنقد التاريخي محل اهتمامنا يأخذ من حوادث التاريخ وسيلة لتفسير الأدب، ومن الأدب وسيلة لفهم التاريخ! لأن النص ثمرة الأديب، والأديب ثمرة لثقافته، وثقافته إفراز للبيئة التي يعيشها، وبيئته جزء من تاريخ مجتمعه.

هكذا يمكن أن تفهم لماذا كثر المجون في شعر العصر العباسي، واختلف الشعر الجاهلي عن الأندلسي، فهذا يبكي على الأطلال وذاك يصف الطبيعة، وهذا

خشن في مفرداته وهناك لا تجد أثرًا للبداوة، عند التأمل تجد الفارق شاسعًا بين التاريخ الجاهلي والعباسي والأندلسي، حين تعرف الظروف والمعطيات وكيف عاش هؤلاء، ستعلم لماذا كتب كل منهم ما كتب.

هذه البداية الواضحة عند عامة الدارسين، أما ما يجدر أن يبحث فيه هنا بعد دراسة وتمعن واطلاع على الأدب الإغريقي والتاريخ البيزنطي[1]، والربط بينه وبين ما رواه الصدوق رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ في كمال الدين، فهو ما يرتبط بالحقبة الزمنية محل البحث، أي القرن التاسع الميلادي وما يقرب منه.

من أشهر الملاحم اليونانية ملحمة (ديجينيس اكريتيس) وهي فائقة الشهرة، لا يسع المطلع على الثقافة البيزنطية أن لا يمر عليها، بل قيل أن ملحمة ذات صبغة تاريخية في العصور الوسطى لم تحظ بالدراسة كما حظيت هذه الملحمة! كتبت في القرن العاشر الميلادي، وإذا كانت العرب تضرب مثلا فتقول: أشهر من قفا نبكِ؛ فإن على البيزنطيين أن يضربوا مثلا: أشهر من ديجينيس اكريتيس!

تدور قصتها حول أميرة بيزنطية اسمها إيرين (وتعني: السلام بالإغريقية) عاشت في القصور وحولها الخدم والحشم، تنبأ العرافون أنها ستختطف من أمير عربي، ولما بلغت الثانية عشر من عمرها، بدأ قلبها يتعلق بشخص رأته في منامها وطلبت منه أن يرحمها لتصل إليه! فأخبرت بذلك إحدى وصائفها حين استيقظت.

---

(١) الإغريقية (اليونانية) هي لغة بيزنطة الرسمية من بعد عصر هرقل.

وفي يوم ما حينما كان أبوها مسافرًا خارج المدينة، خرجت مع خادماتها ووصيفاتها إلى الريف للتنزه، فاختطفها هناك الأمير العربي منصور، وتزوجها، وأنجبت له ديجينيس أكريتيس.

وسمي (ديجينيس) لأنه ولد من عرقين مختلفين: عربي ورمي، وسمي (أكريتيس) لأن مهمته جلب السلام بين المسلمين والروم.

وحين كبر ديجينيس (ابن الأمير العربي والأميرة الرومية) واستطاع نشر السلام على الحدود الإسلامية الرومية استدعاه الامبراطور وقلّده رتبة بطريق، ومنحه امتيازات الملك وغير ذلك من مزايا.

ثم إن ديجينيس هذا له اسم آخر في القصة وهو باسيل، وهو اسم الامبراطور الفعلي الذي كان يحكم بيزنطة في السنوات المقاربة لتأليف الملحمة، كما أنه كشخصية وردت في الملحمة فإنه الذي نفى جد ديجينيس وأخرجه عن الإمبراطورية!

والأسطورة طويلة جدًا، فيها تفاصيل كثيرة لا يمكن فهمها دون دراسة شاملة، لكن عدة أمور واضحة تقوي احتمال ارتباط الأسطورة بالواقع، منها أنه أشير فيها إلى أحداث واقعية كمعركة عمر بن عبيد الله الأقطع على الحدود الرومية، وهي ضمن معارك وقعت في فترة غياب السيدة نرجس عليها السلام عن القسطنطينية فعلا، وكانت المعركة قريبة من حصن معروف على الثغور اسمه حصن منصور لا يبعد أن اختيار الاسم للأمير العربي مرتبط فعلا بمعاني النصرة وبموقع المعركة التاريخي.

كما يلاحظ أن الامبراطور باسيل المقدوني تاريخيًّا هو الذي قضى على وجود الجد المحتمل للسيدة نرجس عليها السلام وتضمُّنُ الأسطورة إشارة إلى هذا المعنى ليس محض صدفة.

كما أن رؤى السيدة نرجس عليها السلام ومناماتها الواردة في كتاب كمال الدين للشيخ الصدوق رحمه الله ورد شبيهه في الأسطورة الإغريقية وأن هذه الأميرة كانت تحدث بها وصائفها!

كما أن تنبأ العرافين بأن يكون لهذه الفتاة مستقبل مع أمير عربي ينسجم مع ما رواه الصدوق رحمه الله من اهتمام جدها الخاص بها!

ويمكن التأمل في موقف هرقل عند سقوط الشام بأيدي المسلمين وخروجه من الشام إلى القسطنطينية، فإنه لما وصل إلى سميساط[١] التفت منها نحو بيت المقدس وقال: عليكِ السلام يا سوريّة سلاما لا اجتماع بعده، إلا أن أسلم عليك تسليم المفارق، ولا يعود إليك رومي أبدًا إلا خائفا حتى يولد المولود المشؤوم ويا ليته لا يولد، ما أحلى فعله وأمر عاقبته على الروم[٢]!

أي أن ربط الأسطورة بثقافة الروم وتنبؤات العرافين وما ورثوه من فكرة

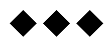
---

(١) في المصدر شمشاط، وهو من التسامح في التعريب، والصحيح ما أثبتناه لأن الرواية ذكرت طريق هرقل الذي يمر بسميساط لا شمشاط.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير في أحداث سنة خمس عشرة، وراجع أحداث نفس السنة عند الطبري وابن الأثير.

المخلص والمولود الذي يولد في آخر الزمان، وبين ما ورد في التاريخ سيكون أوضح بعد الدراسة التاريخية الدقيقة لظروف النص وما روي عن منامات رآها القيصر في تلك الفترة كل ذلك يؤكد أن ثمة حالة وعناية خاصة كانت في بيزنطة تجاه قصة هذه الأميرة.

إننا هنا لا ننقد النص اليوناني وندرسه على نحو التفصيل! ولكننا نشير إلى ما يمكن للناقد الأدبي أن يدرسه دراسة دقيقة، فالأساطير خيالات تنشأ من الواقع وتعاد صياغتها أدبيًّا بما يراه الأديب مناسبًا، وعلى الباحث أن يعيش النص وظروفه، الأسماء المستعارة ورمزيتها، ثم ينظر في الفكر المسيحي واعتقاده بالإلهامات والمنامات وقول العرافين، وإلى أي حد يبني معتقداته في ذلك، ثم يصرف وقته وجهده لمعرفة الحقائق، فإن كان كما نتصور أن له ربطًا بما فيه فبها، وإن لم يكن له ربط فإن الدليل عندنا تام بغير هذه الأدبيات.

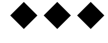


الفصل الثاني

القول الثابت ابنة قيصر الروم - أسماؤها الرومية تؤكد أصلها - احتمالات لا اعتبار لها
الإمام الجواد ابن النوبية الطيبة - الظروف الحرجة والتقية

الروايات الواردة

إن الروايات الواردة في والدة إمامنا الحجة عجل الله فرجه الشريف تؤكد أنها عليها السلام من نسل قيصر الروم، وقد يُتوهم من بعض الروايات وكلمات العلماء خلاف ذلك؛ وسنأتي خلال هذا الفصل على بيان بطلان هذا التوهم، والرد على ما قيل ومناقشته علميًّا، ومن الله التوفيق.



القول الثابت ابنة قيصر الروم

هذا هو القول المعتمد عند علمائنا وقد جرت الطائفة على العمل به ووردت فيه روايات متعددة يمكن الاعتماد عليها:

- الأولى: الخبر المفصل الذي أورده الشيخ الصدوق في كمال الدين تحت عنوان: (باب ما روي في نرجس أم القائم عجل الله فرجه الشريف واسمها مليكة بنت يشوعا بن قيصر الملك)، ورواه أيضًا الطبري رحمه الله في دلائل الإمامة، والطوسي رحمه الله في الغيبة بسند مختلف، ورواه أيضًا الطرابلسي رحمه الله والطبرسي رحمه الله (حكى ذلك عنهم السيد مير لوحي رحمه الله في كفاية المهتدي).

- الثانية: ما رواه الثقة الفضل بن شاذان رحمه الله، عن الثقة محمد بن عبد الجبار رحمه الله ونص الرواية:

قال: قلت لسيّدي الحسن بن علي عليه السلام: يا ابن رسول الله! جعلني الله فداك، أحبّ أن أعلم من الإمام وحجّة الله على عباده من بعدك؟ فقال عليه السلام: إنّ الإمام وحجّة الله من بعدي ابني، سميّ رسول الله صلى الله عليه وآله وكنيّه، الّذي هو خاتم حجج الله، وآخر خلفائه. فقلت: ممّن يتولّد يا ابن رسول الله؟ قال: من ابنة ابن[1] قيصر ملك الروم؛ ألا إنّه سيولد فيغيب عن الناس غيبة طويلة، ثمّ يظهر...

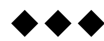
---

(١) بعض المصادر نقلت هكذا: (من ابنة قيصر ملك الروم). والثابت أنها حفيدة القيصر لا ابنته مباشرة؛ ولكن لا إشكال في العبارتين، المثبت في المتن يحمل على التعبير الحقيقي، وما ورد في النسخ الأخرى يحمل على أنها ابنة القيصر بالواسطة؛ وكلا الاستعمالين متعارفان وعلى نحو الحقيقة لا المجاز.

• الثالثة: ما رواه الثقة الفضل بن شاذان رحمه الله أيضًا عن الثقة محمّد بن علي بن حمزة بن الحسين بن عبيد الله بن العبّاس بن أمير المؤمنين عليه السلام. ونص الرواية:

قال: سمعت أبا محمّد عليه السلام يقول: قد ولد ولي الله، وحجّته على عباده، وخليفتي من بعدي، مختونا ليلة النصف من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين عند طلوع الفجر، وكان أوّل من غسله رضوان خازن الجنّة مع جمع من الملائكة المقرّبين بماء الكوثر والسلسبيل، ثمّ غسلته عمّتي حكيمة بنت محمّد بن علي الرضا عليهما السلام.

فسئل محمّد بن عليّ بن حمزة رضي الله عنه عن أمّه عليه السلام، قال: أمّه مليكة، الّتي يقال لها بعض الأيّام: سوسن، وفي بعضها: ريحانة، وكان صيقل ونرجس أيضا من أسمائها.



أما الرواية الأولى فتأتي مناقشتها والكلام فيها مفصلا في الفصلين الثالث والرابع من هذا الكتاب، أما الرواية الثانية والثالثة فصحيحتا السند، وهما مرويتان في كتاب إثبات الرجعة للفضل بن شاذان رحمه الله (المتوفى سنة ٢٦٠هـ).

ونُقلت عن كتاب الرجعة للفضل بن شاذان في أربعة مصادر مهمة، وهي:

(١) كفاية المهتدي لمعرفة المهدي، للسيد محمد مير لوحي رحمه الله المتوفى بعد سنة ١٠٨٣هـ، وقد كانت بيده رحمه الله نسخة من كتاب الفضل بن شاذان ينقل عنها مباشرة وهي نسخة معتمدة.

(٢) إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، للشيخ الحر العاملي رحمه الله المتوفى سنة ١١٠٤هـ، (نقل رواية محمد بن عبد الجبار)، وقد كانت بيد الحر العاملي رحمه الله نسخة مختصرة من كتاب الفضل بن شاذان، وهي موجودة بخط يده رحمه الله في مخطوطات مكتبة السيد الحكيم قدس سره في النجف الأشرف، ويبدو أن الحر اعتمد على نسخة المير لوحي.

(٣) الأربعون، للسيد مير محمد صادق الخاتون آبادي رحمه الله المتوفى سنة ١٢٧٢هـ، والظاهر أن نسخة كتاب الفضل بن شاذان وصلت إليه فنقل عنها مباشرة.[١]

(٤) النجم الثاقب، للمحدث الميرزا حسين النوري الطبرسي رحمه الله المتوفى سنة ١٢٦٣هـ، ولعله نقل ما رواه عن كتاب كفاية المهتدي للمير لوحي.

كما تعرض لهذا البحث سماحة السيد محمد رضا السيستاني حفظه الله في القبسات[٢] ورأى اعتبار رواية محمد بن عبد الجبار المصرح فيها بكون السيدة نرجس من نسل قيصر الروم وإمكان الاعتماد عليها، بعد تصحيح طريق الحر رحمه الله إلى كتاب الفضل بن شاذان رحمه الله.

وعليه تكون الروايتان الثانية والثالثة صحيحتا السند، ولا ينبغي الشك

---

(١) كتابي كفاية المهتدي للمير لوحي والأربعون للمير محمد صادق خاتوني حققهما وترجمهما السيد ياسين الموسوي حفظه الله وطُبع في مركز الدراسات التخصصية للإمام المهدي عليه السلام.

وذكر السيد ياسين الموسوي في تحقيقه على كتاب كفاية المهتدي ص١١ أن المير لوحي والمير محمد صادق خاتوني ممن نقلوا مباشرة عن كتاب إثبات الرجعة للفضل بن شاذان.

(٢) قبسات من علم الرجال ٣/ ٢٨٣

في ذلك بعد تصحيح الطريق إلى كتاب الفضل بن شاذان رحمه الله. ولا أجد مزيد حاجة للتفصيل في هذه الجزئية ما يضطرنا للدخول في بحوث رجالية وإنما لابد من فهم دلالات هذه الروايات.

أما رواية محمد بن عبد الجبار فصريحة في كون والدة الإمام الحجة عجل الله فرجه الشريف من نسل قيصر الروم، وهو كافٍ في إثبات المطلوب.

أما رواية محمد بن علي حفيد أبي الفضل العباس عليه السلام تذكر أن والدة الإمام عجل الله فرجه الشريف هي مليكة، ومليكة اسم لم يُذكر إلا في الرواية المفصلة (أعني رواية بشر النخاس) التي نسبت السيدة نرجس عليها السلام إلى القيصر، وهذا شاهد ومؤكد على صحة رواية بشر النخاس التي فصّلت مجيء السيدة نرجس عليها السلام من الروم إلى سامراء، أي أن الخبر الذي ينص على أن اسم والدة الإمام (مليكة) يدل بالدلالة الالتزامية على كونها من نسل قيصر الروم، وافتراض الصدفة في تشابه الأسماء أو التواطئ على الكذب افتراض غير عقلائي؛ لذا فإن تطابق قولين بهذه الكيفية يورث اليقين.

ويستفاد من الروايات ومن السياق التاريخي ومن أحوال الرواة أن الفضل بن شاذان كان يعيش بعيدًا عن الإمام العسكري عليه السلام إما لكونه وكيلا مكلفًّا بمهمة في نيشابور أو لأي مانع من وصوله إلى الإمام؛ لذلك لم يكن يرو مباشرة عنه ولا عن أبيه الهادي عليهما السلام وهذا يُفهم من الظرف الحرج الذي مرت به الطائفة آنذاك ومن شدة التقية والاضطراب الأمني والملاحقات المتكررة.

إن حكام الجور منذ عهد إمامنا موسى بن جعفرعليه السلام استطاعوا بشتى السبل والوسائل أن يعزلوا الشيعة عن أئمتهم، فما كان متاحًا لأبي بصير وزرارة ومحمد بن مسلم وأبان بن تغلب وهشام بن سالم وسائر الأصحاب رضوان الله عليهم لم يعد متاحًا لمن بعدهم، فالإمام موسى بن جعفرعليه السلام أودع في السجن عدة سنوات، والإمام الرضاعليه السلام عزل عن شيعته في قصر المأمون، والإمام الجوادعليه السلام عزل عن شيعته في قصر المأمون فترة، وفترة في قصر المعتصم، أما الإمام الهادي والعسكريعليهما السلام فقد عزلا عن الشيعة أيضا بين الإقامة الجبرية والسجون؛ حتى أن بورق البوشنجانيرحمه الله خرج من بلده (هراة) قاصدا الحج فمر في طريقه على بغداد فالتقى بمحمد بن عيسى العبيديرحمه الله فرآه مع جملة من الشيعة مغتمين محزونين، فسألهم عن السبب، فقالوا له: إن أبا محمدعليه السلام قد حبس، ولما عاد من الحج مر بالعبيدي أيضا وقد انجلى عنه الهم، فسأله عن ذلك فأخبره بأنه أفرج عن الإمامعليه السلام، ثم إن الراوي مر على سر من رأى وتمكن من لقاء الإمام هناك.[1]

إن هذا الاضطراب عند الشيعة في سائر البقاع وتطلعهم إلى أخبار الإمام وعدم تيسر الوصول إليه دائمًا حالة عامة كانت عند أجلة أصحابنا رضوان الله عليهم، وسيرة الإمام العسكريعليه السلام واضحة في ذلك، فلا تجد في تفاصيل حياته اختلاطا مباشرا إلا مع خاصة أصحابه، أما البقية فكان يتواصل معهم بالمكاتبة أو عن طريق الوكلاء.

---

(١) راجع معجم رجال الحديث ١٤/ ٣١١

وهذا ما يبين الوجه في أن يروي الشيخ الطاعن في السن القديم في الولاء والصحبة لأهل هذا البيت عليهم السلام عمّن هو دونه في السن؛ إن الفضل بن شاذان لم يكن قريبًا من الإمام العسكري عليه السلام بل كان في نيشابور يتطلع إلى أخبار ولادة الخلف عجل الله فرجه الشريف فيسأل عن ذلك من يتمكن حتى جمع الأخبار وكتب كتابه في الغيبة.

إن المؤكد أن الفضل بن شاذان أدرك الرضا عليه السلام وتوفي قبيل استشهاد الإمام العسكري عليه السلام لكن الأخبار لم تذكر لنا شيئا عن تواصله المباشر مع الإمامين العسكريين عليهما السلام لما تقدم من علل، فكان متوجِّهًا أن يتطلع إلى أكثر الأخبار خطرًا وأهمية ممن هو قريب من الإمام عليه السلام كمحمّد بن علي بن حمزة بن الحسين بن عبيد اللهّ بن العبّاس بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم، الذي ورد أن السيدة نرجس عليها السلام أقامت في داره بعد شهادة الإمام العسكري عليه السلام.

مضافًا إلى هذه الروايات، وما سيأتي من قرائن متفرقة في مطاوي البحث، فإن تسالم علمائنا على مر العصور على هذا المعنى يزيد في القلب يقينا، ويكفيك للاطمئنان ما ورد في زيارتها عليها السلام، التي ذكرها الشيخ المفيد (المتوفى ٤١٣هـ)[1]، وابن المشهدي (المتوفى٥٩٤هـ)[2]، والسيد ابن طاووس (المتوفى٦٦٤هـ)[3]

(١) حكى ذلك عنه العلامة المجلسي في بحار الأنوار ١٠٢/ ٧٢

(٢) مزار ابن المشهدي ٦٦٠ وذكر ابن المشهدي أنه سمع الزيارة من أحد مؤمني البحرين. وافترض البعض أن الزيارة من وضع هذا المؤمن، أي أنه ألّف الزيارة فتبعه عليها الأعاظم! وهذا عجيب! فضلا عن ذلك فإن العلامة المجلسي نقلها عن الشيخ المفيد المتوفى قبل ابن المشهدي وهذا الزائر!

(٣) مصباح الزائر ٤١٣

والشهيد الأول (المتوفى ٧٨٦هـ)[1] والعلامة المجلسي (المتوفى١١١١هـ)[2] رحمهما الله، وأوردها بعدهم المحدث الشيخ عباس القمي رحمه الله في مفاتيح الجنان قائلا: ثم تزور مليكة الدنيا والآخرة أم القائم عليه السلام. ومما جاء في زيارتها:

السلام على والدة الإمام والمودعة أسرار الملك العلام، والحاملة لأشرف الأنام، السلام عليك أيتها الصديقة المرضية، السلام عليك يا شبيهة أم موسى، وابنة حواري عيسى، السلام عليك أيتها التقية النقية، السلام عليك أيتها الرضية المرضية. السلام عليك أيتها المنعوتة في الإنجيل، المخطوبة من روح الله الأمين، ومن رغب في وصلتها محمد سيد المرسلين، والمستودعة أسرار رب العالمين، السلام عليك وعلى آبائك الحواريين، السلام عليك وعلى بعلك وولدك، السلام عليك وعلى روحك وبدنك الطاهر.

هذا شيء مما تعاهده أساطين الطائفة من المحدثين والأصوليين، وهو كافٍ وتام، وبإيراد المزيد من الأقوال يطول المقام. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام: عَلَيْكَ بِالتِّلَادِ[3] وَإِيَّاكَ وَكُلَّ مُحْدَثٍ لَا عَهْدَ لَهُ وَلَا أَمَانَ وَلَا ذِمَّةَ وَلَا مِيثَاقَ.[4]



(١) مزار الشهيد الأول ٢١١

(٢) زاد المعاد ٥٣٩

(٣) التلاد: القديم

(٤) أصول الكافي : ٢/ ٦٣٩

أسماؤها الرومية تؤكد أصلها

من القرائن اللطيفة المؤكدة على أنهاﷺ من أصل رومي ما ذُكر من أسمائها المباركة؛ مليكة ونرجس.

أما مليكة فهو اسم سرياني، والسريانية لغة الطقوس العبادية عند النصارى، وقد ذكرت المعاجم السريانية هذا الاسم بصيغة ملكو(١)، ومعناه نفس المعنى العربي، فالسريانية والعربية لغتان من أسرة اللغات السامية التي تشمل العبرية والآرامية أيضا.

ويظهر أن هذا الاسم اسم ديني مرتبط بالمذهب الرائج في القسطنطينية آنذاك وهو المذهب الملكاني وهو من أهم مذاهب النصارى يومها، فالتسمية بمليكة في القسطنطينية أشبه بمن يسمي نفسه (إسلام) أو (مسلم) في بلادنا.

كما أنه من الطبيعي في ثقافة النصارى تعدد الأسماء، لكن يتميزون عن العرب باختيار اسم ديني فضلا عن الاسم الرسمي، لتقريب الفكرة، فإن بابا الفاتيكان اليوم يعرف باسم البابا فرنسيس، لكن هذا الاسم سمي به حين تقلد المنصب تأسيًّا بأحد القديسين، وإنما اسمه الأصلي خورخي.

وفي التاريخ البيزنطي شاعت هذه الظاهرة عند شخصيات كثيرة، على سبيل المثال فإن الإمبراطور قسطنطين الأول له بنت تعرف باسم قنسطنطينا، ولها

---

(١) راجع النبراس في أسماء الناس لجوزيف أسمر ملكي ص٨، ص٧٣، وجنان الأسماء السريانية لكبرئيل صومي ص٦١.

اسم آخر وهو القديسة كونستانزا، والإمبراطور فلافيوس زينون كان اسمه الأصلي تاراسيكوديسا، وتجد هذا الأمر مطردًا في تاريخ النصارى.

لذلك ذكرت الرواية المفصلة التي رواها الشيخ الصدوق رحمه الله اسمين عن لسان السيدة نرجس عليها السلام، أحدهما (مليكة) والآخر (نرجس)[1]، واسم مليكة لم يكن شائعًا عند العرب، ويحتمل كونه -بما تقدم من بيان- اسمًا دينيًّا للسيدة عليها السلام.

أما اسم نرجس فهو اسم يوناني، وهو نبات معروف طيب الرائحة، تكتب باليونانية: νάρκισσος وتنطق: narkissos وانتقل إلى العربية من الفارسية، وتنطق بالفارسية: نَرگِس.[2]

وفي الرواية أنها عليها السلام اختارت اسم نرجس على البديهة حين أرادت إخفاء هويتها وانتسابها إلى أسرة القيصر، ويكون من المناسب لأصلها الرومي أن تختار

(١) الظاهر في الرواية أنها اختارت هذا الاسم لتخفي هويتها باعتباره اسمًا يليق بالجواري، أما اسمها الأول فيبدو أنه اسمًا للطبقة النبيلة. ولا يبعد أن يكون لها أسماء أخرى عرفت بها في بيزنطة.

(٢) نقلا عن معجم الدوحة التاريخي، وهو معجم الكتروني يبحث في جذور الكلمات العربية وتطور معانيها تاريخيًّا، ساهم في إعداده عدد واسع من الدكاترة وأساتذة اللغة.

وقد أسند المعجم هذه المعلومة إلى المصادر التالية: المعرّب من الكلام الأعجميّ للجواليقي ص٣٧٩-٣٨٠، والألفاظ الفارسيّة المعرّبة لأدّي شير ص١٥١، وشرح أسماء العقّار لمايرهوف ص١٢٤-١٢٥؛ ومعجم الألفاظ الزراعيّة للشهابي ص٤٤٧، وغرائب اللغة العربيّة لليسوعي ص٢٧١، والمفصّل في الألفاظ الفارسيّة المعرّبة للمنجّد ص٧٦، والمصطلح الأعجمي لابن مراد ج٢ ص٧٨٥، وأيضا:

Vullers: LPL, vol. 2, p. 1304; Steingass: PED, p. 1895; Bailly: DGF, p. 1312 ; Laufer: Sino-Iranica, p. 427; Glûnz: EI2, vol. 7, p. 964; Corriente: DAA, p. 525.

اسمًا روميًّا تعرف به الجواري لتخفي هويتها.

ولا يمكن أن يكون اختيارها هذين الاسمين محض مصادفة من الراوي جعلته يبتكر اسمًا سريانيًّا غير معروف في الأوساط العربية، واسم فتاة أصله يوناني، بما يكون مناسبًا لثقافة أميرة بيزنطية!

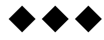
ثم إن هذين الاسمين وردا في رواية الشيخ الصدوقﷺ وفي رواية الفضل بن شاذان عن محمّد بن عليّ بن حمزة، هل يتصور أن تقع مصادفة من هذا النوع حيث لا مجال للقول بأن أحدهما أخذ اسم مليكة من الآخر.

وهل كان الفضل بن شاذان يعلم أن اسم مليكة ذو أصل سرياني جذره اللغوي مثل جذر مذهب حكام بيزنطة الملكانيين (Melkite) وعليه يكون من المناسب أن ينسب للسيدةعليها السلام اسما يليق بابنة القيصر، فيروي هذا الاسم عن محمد بن علي بن حمزة، ويروي كونها ابنة القيصر عن محمد بن عبد الجبار رحمهما الله.

إن تعيين هذه الأسماء للسيدةعليها السلام قرينة قوية على صدق القول بأنها من نسل قيصر الروم، لأن المدلس إن أراد وضع اسم ديني لامرأة نصرانية فإنه سينتخب اسما مشهورًا مثل ماريا! أما اسم مليكة وتكراره في أكثر من رواية وانسجامه مع الأصل البيزنطي للسيدةعليها السلام فإنه لا يمكن أن يصدر من وضّاع يكون بهذه الدقة والمعرفة! ثم تقع المصادفة على وضاع آخر يضع نفس الاسم! الأول يرويه الشيخ الصدوق بسنده عن الرهني عن بشر النخاس، والثاني يرويه الفضل بن شاذان عن محمد بن علي بن حمزة! بربك أي مصادفة في الوضع

والتلفيق تقع في مثل هذه المعطيات!

وأعجب من ذلك اتفاق اسم نرجس مع ما رواه جابر الأنصاري[1] أنه رآى عند الصديقة الزهراء عليها السلام صحيفة بيضاء من در فيها أسماء الأئمة عليهم السلام وفيها: أبو القاسم محمد الحسن هو حجه الله القائم أمه جاريه اسمها نرجس.



(١) عيون أخبار الرضا ٢/ ٤٧

احتمالات لا اعتبار لها

في الحقيقة لا يوجد خلاف معتد به بخصوص شخصية السيدة نرجس والدة مولانا بقية الله الأعظمعجل الله تعالى فرجه الشريف وتحديد أصلها. غير أن البعض طرح احتمالات للمناقشة -وتكثير الاحتمالات في كثير من الأحيان أمر غير حسن لأنه يخلق حالة شكٍّ في النفوس، ويصوّر المسألة كأنها مسألة خلافية جدلية- وحين التدقيق في الاحتمالات نجدها مجرد افتراضات لا قائل بها، ولا يمكن قبول شيء منها حسب الموازين العلمية.

والاحتمالات المفترضة في المسألة هي:

- الأول: أن والدة الإمام الحجةعجل الله تعالى فرجه الشريف من بلاد السند، ومستند هذا القول خبر ولادة الإمامعجل الله تعالى فرجه الشريف المروي في الهداية الكبرى[1] وفيه تقول السيدة حكيمة أن السيدة نرجس خاطبتها بالسِّندية. وعليه فإنها صاحبة لسان سِندي فهي من بلاد السِّند.

والعجيب أن من ابتكر هذا الاحتمال أجاب عن نفسه بأن عبارة السندية غير موجودة في مخطوطات الهداية الكبرى أصلا والموجود فيها أنها خاطبتها بالسيادة، وهو المتناسب مع ما رواه الشيخ الطوسي والصدوقرحمهما الله بألفاظ أخرى.

ثم إننا نتساءل أن عبارة مجملة لا تحمل الدلالة على أن السيدة نرجسعليها السلام

(١) الهداية الكبرى ٣٥٥

من بلاد السِّند، وردت مصحفّة مطبوعة بالخطأ في كتاب محل جدل علمي بين الأعلام، معارضة بما ورد في الكتب المعتبرة، كيف يمكن أن تشكل احتمالا لما نحن فيه!

مجرد خطأ مطبعي واضح، وافتراضه احتمالا مدعاة للريبة!

• الثاني: أنهاعليها السلام من المغرب، وهذا لم يقل به أحد أيضًا، غير أن سماحة الشيخ علي الكوراني حفظه الله ذكر ذلك في بعض كتبه[1] قائلا: (...حيث اتفقت الروايات على أن أم المهدي عليه السلام رومية أو مغربية).

كان من السهل التواصل مع سماحة الشيخ حفظه الله وسؤاله عن ذلك، فأخبرني أن مقصوده من كونها مغربية أنها من جهة الغرب لا من الشرق، وليس المقصود أنها من البربر أو بلاد المغرب المعروفة. وإن كان ثمة ملاحظة على العبارة فإنه على طريقة سبكها لا على محتواها، فإن الروم تطلق ويراد منها أحيانًا عدة من بلاد الغرب كالدولة البيزنطية والدولة الرومانية، وما ذلك إلا لتسامح بعض الكتاب في تدوين الاسم خصوصا وأن الروم تغيرت عاصمتهم عبر القرون والسنوات، فالإشارة إلى الأعم من كونهاعليها السلام من بيزنطة أو روما بالإشارة إلى غرب الأرض أمرٌ مناسب، لكنه غير دقيق، والشيخ جاء بهذا الوصف استطرادًا في مقام نفي كونهاعليها السلام أمة سوداء لا في مقام تحديد أصل السيدةعليها السلام من أي بلد على نحو الدقة.

(١) معجم أحاديث الإمام المهديعليه السلام ٣/ ٢٣٩

وخلاصة الأمر أن أحدًا لم يقل بأن والدة الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف من بلاد المغرب، فكونها مغربية لا يعد -علميًّا- من الاحتمالات لا القوية ولا الضعيفة!.

• الثالث: أنها عليها السلام من النوبة، ولم يرد في ذلك أية رواية ولم يقل به أحد من علمائنا الذين كتبوا في سيرة الأئمة عليهم السلام ومستند القائل بذلك ما روي في السيدة خيزران النوبية عليها السلام والدة الإمام الجواد عليه السلام![1]

• الرابع: وهناك قول بأن أم الإمام هي مريم بنت زيد العلوية أخت الحسن بن زيد الداعي بطبرستان، أشار إليه الخصيبي في الهداية الكبرى[2] وأشار إليه الشهيد الأول رحمه الله[3] أيضًا؛ لكنهما لم يقبلاه ولم يقولا به؛ أما الخصيبي فقد صرّح بأن الصحيح أنها نرجس، وأما الشهيد الأول فقد جاء بهذا القول على نحو التضعيف، وأورد زيارتها في مزاره[4] بما يؤكد كونها من نسل قيصر الروم المذكورة في رواية بشر النخاس.

وأول من أشار لهذا القول هو الخصيبي وعنه أخذه الشهيد الأول وغيره،

(١) سنتناول الخبر بالتفصيل.

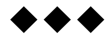
(٢) قال الخصيبي: وأمه: صقيل، وقيل: نرجس. ويقال: سوسن، ويقال: مريم ابنة زيد أخت حسن، ومحمد بن زيد الحسيني الداعي بطبرستان وان التشبيه وقع على الجواري أمهات الأولاد، والمشهور والصحيح: نرجس فهذا من دلائله (عليه السلام). الهداية الكبرى ٣٢٨

(٣) قال الشهيد الأول رحمه الله في الدروس ٢/ ١٦: أمّه صقيل، و قيل: نرجس، وقيل: مريم بنت زيد العلويّة.

(٤) مزار الشهيد الأول ٢١١

وكلهم ذكروه على نحو التضعيف، ولا يُعلم من أين جاء به الخصيبي وهو واضح البطلان مخالف للثابت من كونه عجل الله فرجه الشريف ابن أمة الموصوفة بسيدة الإماء، ولا يعرف وجه هذا القول، ولا يعرف قائله أصلا، ومستنده واضح الضعف[1].

هذا كل ما ذكر كاحتمال في المسألة، والواضح أن لا شيء منها يصلح لتشكيل قناعة عند القارئ المحترم، ويبقى القول بأنها من نسل قيصر الروم هو الثابت بما لا مزيد عليه؛ لصحة الرواية سندًا، وانسجامها تماما مع ما ذكر في التاريخ البيزنطي وسيأتي تفصيل ذلك.



(١) لكن النافع في الأمر أن تعرضهم لمثل هذا القول يفتح بابًا لمن يدرس سيرة الإمام العسكري عليه السلام لأن ما ورد عن حياته الخاصة عليه السلام قليل جدًا وذلك بسبب ظرف التقية والإقامة الجبرية والضغط الشديد الذي عاشه، ما يجعل الباحث في سيرته عليه السلام يتساءل إن كان للإمام زوجات حرائر فضلا عن الإماء؟ فالقول هذا يفتح بابا للتأمل بجوانب أخرى من سيرة الأئمة عليهم السلام.

الإمام الجوادعليه السلام ابن النوبية الطيبة

السيدة خيزران النوبية رضوان الله عليها من صعيد مصر من قرية اسمها مريس، وهي نوبية مريسية، وتسمى سبيكة وريحانة ودرة، وسماها الرضاعليه السلام خيزران، وهي من أهل بيت مارية القبطية أم إبراهيم بن رسول اللهصلى الله عليه وآله[1].

وقد وردت في مدحها عدة روايات؛ منها ما ورد أن الإمام موسى بن جعفرعليه السلام لم يدركها ولكنه أثنى عليها وأمر بإبلاغها سلامه[2]، وترتبط ببحثنا روايتان إحداهما عن النبيصلى الله عليه وآله والأخرى عن الرضاعليه السلام يأتي الكلام عن الروايتين بعد بيان الظرف الذي عاشه إمامنا الرضاعليه السلام.

عاش مولانا ثامن الحجج الإمام علي بن موسى الرضاعليه السلام مرحلة عصيبة بسبب فتنة الواقفة لعنهم الله. وزعماء الواقفة مجموعة من أصحاب الإمام الكاظمعليه السلام انحرفوا عن الجادة بعد أن كان فيهم الثقاة ورواة الحديث والعلماء وبعضهم كان من وكلاء الإمامعليه السلام، وبعد استشهاد الإمام الكاظمعليه السلام أنكروا إمامة الرضاعليه السلام.

وظاهرة الوقف ليست الأولى في الوسط الشيعي فقد وقف بعضٌ على الباقرعليه السلام وبعضٌ على الصادقعليه السلام ونشأت فرق الباقرية والناووسية[3] غير أنها

---

(١) ملخصًا عما ذكره العلامة المجلسيرحمه الله في مطلع الجزء ٥٠ من البحار.

(٢) الكافي ١/ ٣١٥

(٣) الباقرية وقفوا على إمامنا الباقرعليه السلام وزعموا أنه القائم المهدي، أما الناووسية فهم أتباع: عجلان ←←←

فرق سرعان ما اندثرت ولم تترك أثرها على الوسط الشيعي لأن شبهاتهم كانت ناشئة عن جهل، لكن الجديد في الأمر أن الذين وقفوا على موسى بن جعفرعليه السلام كانت شبهاتهم ناشئة عن مكر وشيطنة ولم تصدر من جهلاء لا حظ لهم في العلم؛ لذا فإن فتنتهم أربكت الوسط الشيعي عند الطبقة الأولى من أصحاب الإمام الرضاعليه السلام فضلا عن غيرهم.

وإحدى شبهات الواقفة كانت مبنية على قواعد ثابتة عند الشيعة، وهي أن الإمامة بعد الحسن والحسينعليهما السلام لا تكون في أخوين وإنما تكون في الأبناء، والرضاعليه السلام شارف عمره على الخمسين ولم يرزق بولد، وهو كآبائه مهدد بالقتل في أي وقت، ومن ليس له ولد لن يكون إمامًا؛ وعليه تبطل إمامة الرضاعليه السلام كما زعم أصحاب الوقف.

تجد هذه الشبهة في عدة موارد عند مطالعتك لكتب السيرة، تارة في معاجز الإمام الرضاعليه السلام وإنبائه عن الغيب، وأخرى في النص على الإمام الجوادعليه السلام، وثالثة ضمن الحديث عن أحوال الواقفة.

ومن جملة ما ورد في هذا الشأن ما عن الحسين بن يسار[1] قال: استأذنت

بن ناووس، وقفوا على إمامة الصادقعليه السلام وزعموا أنه القائم المهدي. ولا أثر لهاتين الفرقتين، ما يظهر أنها كانت شبهة طارئة وزالت. (راجع بحوث في الملل والنحل للشيخ جعفر السبحاني ج ٧ ص٤٩)

(١) الحسين بن يسار (أو ابن بشار) اختلفوا في اسمه، قال الكشي إنه رجع عن القول بالوقف و قال بالحق. وتفصيل ما يتعلق بأحواله في معجم رجال الحديث ٦/ ٢٢٠

أنا والحسين بن قياما[1] على الرضاعليه السلام في صريا فأذن لنا، فقال: افرغوا من حاجتكم. فقال له الحسين: تخلو الارض من أن يكون فيها إمام؟ فقالعليه السلام: لا. قال: فيكون فيها اثنان؟ قالعليه السلام: لا؛ إلا وأحدهما صامت لا يتكلم. قال: فقد علمت أنك لست بإمام! قالعليه السلام: ومن أين علمت؟ قال: إنه ليس لك ولد؛ وإنما هي في العقب! قال: فقالعليه السلام له: فوالله لا تمضي الأيام والليالي حتى يولد لي ذكر من صلبي، يقوم مثل مقامي، يحق الحق ويمحق الباطل.[2]

وبقيت هذه الشبهة محل ابتلاء للمؤمنين يؤيد ذلك ما روي عن البزنطي[3] أنه قَالَ: قال لي ابن النجاشي: من الإمام بعد صاحبِك؟ فأشتهي أن تسأله حتى أعلم. قال البزنطي: فدخلتُ على الرضاعليه السلام فأخبرته، قال: فقال لي: الإمامُ ابني، ثم قال: هل يتجرّأ أحدٌ أن يقول ابني وليس له ولد؟[4]

وعن ابن بزيع[5]، عن أبي الحسن الرضاعليه السلام أنه سئل أو قيل له أتكون الإمامة في عم أو خال؟ فقال: لا. فقال: في أخ؟ قال: لا. قال: ففي من؟ قال: في

---

(١) الحسين بن قياما، واقفي كان من أعدى الخلق للرضاعليه السلام، راجع معجم رجال الحديث ٧/ ٦٩

(٢) بحار الأنوار ٥٠/ ٣٤ عن الكشي، ونحوه في الكافي في باب الإشارة والنص على أبي جعفر الثانيعليه السلام.

(٣) أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي: كوفي ثقة لقي الرضاعليه السلام، و كان عظيم المنزلة عنده، راجع معجم رجال الحديث ٣/ ١٧

(٤) بحار الأنوار ٥٠/ ٢٢

(٥) محمد بن إسماعيل بن بزيع كان من صالحي هذه الطائفة، راجع معجم رجال الحديث ١٦/ ١٠٣

ولدي. وهو يومئذ لا ولد له.[١]

وعن عقبة بن جعفر قال: قلت لأبي الحسن الرضاعليه السلام: قد بلغْتَ ما بلغْتَ وليس لك ولد، فقال: يا عقبة إن صاحب هذا الأمر لا يموت حتى يرى خلفه من بعده.[٢]

وأيضا روي عن صفوان بن يحيى[٣] رضوان الله عليه قال: قلت للرضاعليه السلام: قد كنا نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر فكنت تقول يهب الله لي غلاما، فقد وهب الله لك، وأقر عيوننا، فلا أرانا الله يومك؛ فإن كان كون فإلى مَن؟ فأشار بيدِه إلى أبي جعفرعليه السلام وهو قائم بين يديه.. الخبر[٤].

ويستفاد من عبارة صفوان (قد كنا نسألك) أن ثمة حالة عامة في الوسط الشيعي وهي السؤال عن الخلف بعد الرضاعليه السلام، وأن المؤمنين كانوا يترقبون خبر ولادة إمامنا أبي جعفر الثاني محمد الجوادعليه السلام.

لذا فإن ولادته سلام الله عليه كانت سببا في دفع شبهة خطيرة من شبهات الواقفة وتثبيت قلوب المؤمنين وهذه إحدى بركات الإمام الجوادعليه السلام، وهي إحدى المعاني المستفادة من الرواية الواردة عن الرضا في ولده الجوادعليهما السلام:

---

(١) بحار الأنوار ٥٠/ ٣٥

(٢) بحار الأنوار ٥٠/ ٣٥

(٣) صفوان بن يحيى كوفي ثقة ثقة كانت له منزلة شريفة عند الرضاعليه السلام وكان من أهل العبادة وقد سلم مذهبه من الوقف، وترجمته وفضله مذكور بالتفصيل، راجع معجم رجال الحديث ١٠/ ١٣٤

(٤) بحار الأنوار ٥٠/ ٢١

هَذَا الْمَوْلُودُ الَّذِي لَمْ يُولَدْ فِي الْإِسْلَامِ مِثْلُهُ مَوْلُودٌ أَعْظَمُ بَرَكَةً عَلَى شِيعَتِنَا مِنْهُ.[١]

وكان في إمامنا الجواد سمرة شديدة باعتبار أن أمه من النوبة، حتى أن الإمام الرضا‌عليه‌السلام قال فيه: قد ولد لي شبيه موسى بن عمران فالق البحار، وشبيه عيسى بن مريم، قدست أم ولدته، قد خلقت طاهرة مطهرة.[٢]

والمعلوم أن النبي موسى على نبينا وآله وعليه السلام كان شديد السمرة[٣]، فهذا وجه من وجوه الشبه، إلا أن هذه الهيئة لم تعهد في الأئمة‌عليهم‌السلام وهذا ما جرّأ الواقفة لعنهم الله[٤] على التجاسر على والدة الإمام‌عليه‌السلام وهذا وجه من وجوه الشبه بين إمامنا الجواد‌عليه‌السلام وعيسى بن مريم‌عليه‌السلام، وقرينة ذلك براءة أمهاتهم من كل شك وتهمة وريبة، لذا يقول فيها الإمام الرضا‌عليه‌السلام قدست أم ولدته قد خلقت طاهرة مطهرة؛ لا يعتريها شك ولا ريب، كما أن مريم العذراء

---

(١) فروع الكافي ٦/ ٣٦١، ونحوه في أصول الكافي ١/ ٣٢١

(٢) بحار الأنوار ٥٠/ ١٥. والجدير بالتنبيه أن لهذا الخبر شروحات ووجوه متعددة للتشبيه، وما سيأتي في المتن أحدها، أما الوجوه الأخرى فخارج محل البحث لذلك لم نتعرض لها رغم أهميتها.

(٣) بحار الأنوار ١٣/ ٣٠ عن تفسير القمي في حديث عن الصادق‌عليه‌السلام أن موسى كان شديد السمرة في ضمن خبر موسى وآية خروج يده بيضاء من غير سوء.

(٤) احتمل البعض أن الفتنة سببها بعض الحساد من بني هاشم، فيما ترجح القرائن التاريخية أن الواقفة هم رأس هذه الفتنة، وفي ذيل الرواية: لعن الله الأعيبس وذريته صاحب الفتنة، وقال أكثر الشراح أن الأعيبس إشارة لبني العباس.

ولا يبعد أن عوامل متعدد كانت سببًا في هذه الفتنة.

طاهرة من كل تهمة وكل ما قيل فيها.

وهذه إحدى المصائب التي مرت على إمامنا الرضا‌عليه‌السلام حتى اضطر الإمام‌عليه‌السلام على أن يقبل بعرض الإمام الجواد‌عليه‌السلام على القافة[1]، دفعا للريب والشك. وفي هذا السياق جاءت الرواية المفصلة في الكافي الشريف، ونص الرواية كما أوردها ثقة الإسلام الكليني رضوان الله عليه:

عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ وعَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ الْقَاسَانِيِّ جَمِيعاً، عَنْ زَكَرِيَّا بْنِ يَحْيَى بْنِ النُّعْمَانِ الصَّيْرَفِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ جَعْفَرٍ[2] يُحَدِّثُ الْحَسَنَ بْنَ الْحُسَيْنِ

---

(١) القافة، جمع قائف وهي من القيافة.

والقيافة قيافتان، قيافة الأثر، وقيافة البشر، وهي لا تكون عن دراسة وتعلم وإنما ملكات متوارثة في بعض الأقوام. أما قيافة الأثر فالقائف يتتبع الأثر فيعرف الماشي رجلا كان أو امرأة، شيخا كان أو شابًّا، بكرًا كانت أو ثيبًّا، ويعرف من آثار خطواته بعض خصاله من كونه هاربًا سارقا قاتلا غريبًا مستوطنًا أو غير ذلك، يقتفي الأثر حتى على الأرض الرملية بل الصلبة، وحتى مع محو الآثار، وهو عجيب غريب لكن كتب الأدب والتاريخ روت الكثير من أخبار القافة، حتى تواترت غرائبهم لكل مطلع على التاريخ، بل إن بعض الجهات الأمنية تعتمد على القافة إلى اليوم.

ومن قصص القافة ما جاء في المستطرف للأبشيهي أنه اختلف رجلان من القافة في أمر بعير وهما بين مكة ومنى فقال أحدهما: هو جمل، وقال الآخر: هي ناقة، وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بني عامر فإذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه: أهو ذا؟ قال: نعم، فوجداه خنثى فأصابا جميعا.

(٢) علي العريضي رضوان الله عليه بن الإمام جعفر الصادق‌عليه‌السلام لاشك في جلالة قدره وحظوته عند الأئمة‌عليهم‌السلام وله قضية مشهورة في إقراره بفضل إمامنا الجواد‌عليه‌السلام بداية إمامته، وهي كما رواها ثقة الإسلام الكليني‌رحمه‌الله في الكافي: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَمَّارٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ ←←←

بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ(١)، فَقَالَ: وَالله، لَقَدْ نَصَرَ اللهُ أَبَا الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام، فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ: إِي والله، جُعِلْتُ فِدَاكَ، لَقَدْ بَغى عَلَيْهِ إِخْوَتُهُ.

فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ: إِي والله، ونَحْنُ عُمُومَتُهُ بَغَيْنَا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، كَيْفَ صَنَعْتُمْ، فَإِنِّي لَمْ أَحْضُرْكُمْ؟ قَالَ: قَالَ لَهُ إِخْوَتُهُ ونَحْنُ أَيْضاً:

➡➡➡

جَالِساً بِالْمَدِينَةِ وَكُنْتُ أَقَمْتُ عِنْدَهُ سَنَتَيْنِ أَكْتُبُ عَنْهُ مَا يَسْمَعُ مِنْ أَخِيهِ يَعْنِي أَبَا الْحَسَنِ عليه السلام إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الرِّضَا عليهما السلام الْمَسْجِدَ -مَسْجِدَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله- فَوَثَبَ عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ بِلَا حِذَاءٍ وَلَا رِدَاءٍ فَقَبَّلَ يَدَهُ وَعَظَّمَهُ. فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: يَا عَمِّ اجْلِسْ رَحِمَكَ اللهُ. فَقَالَ: يَا سَيِّدِي كَيْفَ أَجْلِسُ وَأَنْتَ قَائِمٌ. فَلَمَّا رَجَعَ عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ إِلَى مَجْلِسِهِ جَعَلَ أَصْحَابُهُ يُوَبِّخُونَهُ وَيَقُولُونَ: أَنْتَ عَمُّ أَبِيهِ وَأَنْتَ تَفْعَلُ بِهِ هَذَا الْفِعْلَ! فَقَالَ: اسْكُتُوا إِذَا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ -وَقَبَضَ عَلَى لِحْيَتِهِ- لَمْ يُؤَهِّلْ هَذِهِ الشَّيْبَةَ وَأَهَّلَ هَذَا الْفَتَى وَوَضَعَهُ حَيْثُ وَضَعَهُ أُنْكِرُ فَضْلَهُ؟ نَعُوذُ بِاللهِ مِمَّا تَقُولُونَ بَلْ أَنَا لَهُ عَبْدٌ.

لذا فقد اعترض بعضٌ على الرواية الواردة في المتن بأنها لا تليق بشأنه رضوان الله عليه وأن مثل ذلك لا يصدر منه، لكن رغم ذلك فإن جلالة قدره لا تلزم عصمته وعدم وقوعه في الاشتباه.

يقول سماحة الشيخ باقر الأيرواني حفظه الله مجيبًا عن هذا التساؤل (كما جاء في تقرير بحث الفقه ٤ ذي الحجة ١٤٣٧هـ): إنَّ المؤمن لابد وأن يلوذ بالله عزّ وجلّ، فلعلّ الإنسان يحوص حيصةً، فإنه قد يحصل في بعض اللحظات انحراف، فلعلّه طرأ ما طرأ ولكن الرجل غسلها بعد ذلك -مثل بعضٍ فإنه حاص حيصةً غسلها يوم صفّين على تقدير صحّة هذه الرواية- فكان الرجل يقدّم النعل إلى الإمام الجواد عليه السلام رغم أنه رجل شيبة والإمام الجواد عليه السلام كان شابّاً.

(١) الحسن بن الحسين الأصغر بن الإمام زين العابدين عليه السلام ذكر الشيخ القمي في منتهى الآمال أنه رجل محدث نزيل مكة توفي في الروم. وأشار إلى دفنه في الروم أبو الحسن الهروي في الإشارات ص٥١

مَا كَانَ فِينَا إِمَامٌ قَطُّ حَائِلَ اللَّوْنِ[١]، فَقَالَ لَهُمُ الرِّضَا عليه السلام: هُوَ ابْنِي.

قَالُوا: فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله قَدْ قَضى بِالْقَافَةِ[٢]، فَبَيْنَنَا وبَيْنَكَ الْقَافَةُ، قَالَ: ابْعَثُوا أَنْتُمْ إِلَيْهِمْ، فَأَمَّا أَنَا فَلَا، ولَاتُعْلِمُوهُمْ لِمَا دَعَوْتُمُوهُمْ، ولْتَكُونُوا فِي بُيُوتِكُمْ.

فَلَمَّا جَاؤُوا أَقْعَدُونَا فِي الْبُسْتَانِ، واصْطَفَّ عُمُومَتُهُ وإِخْوَتُهُ وأَخَوَاتُهُ[٣]،

---

(١) كل حائل متغير سمى به لأنه يحول من حال إلى حال والمقصود أن لونه ليس مثل لونك ولون آبائك الطاهرين لأن لونه عليه السلام كان أسمر. (شرح المازندراني)

وذكر ابن شهرآشوب في المناقب أنه عليه السلام كان شديد الأدمة شك فيه المرتابون.

(٢) لم يثبت أن النبي صلى الله عليه وآله قضى بالقافة، لكن ورد من طريق المخالفين سرور النبي بقول القائف مجزر المدلجي في أسامة بن زيد وأبيه، حين رآهما وهما نائمان وقد غطّيا وجهيهما وظهرت أقدامهما، وكان أسامة أسود شديد السواد ورث ذلك من أمه أم أيمن وكانت حبشية، وكان أبوه زيد أبيض من القطن، وكان يُقدح في نسب أسامة لذلك، ولما رأى مجزر المدلجي (القائف) أقدامهما مع اختلاف ألوانها قال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض.

وجاء في صحاح القوم أن النبي سُرَّ بقوله ودخل على عائشة وقد انفرجت أساريره فرحا بذلك. وهذا -على كونه من طريق المخالفين- لا يدل على أن النبي صلى الله عليه وآله قضى بالقافة، وإنما فرح بما يرفع الشك من قلوب الصحابة.

(٣) من المهم التنبه إلى أن القائف ينظر إلى الأقدام لينسب الولد إلى أبيه ولا ينظر إلى الوجوه، ومن اللطيف ما روي في أحداث الهجرة النبوية وخروج النبي صلى الله عليه وآله إلى مكة، حيث تتبع المشركون آثار أقدام النبي وكان فيهم رجل من خزاعة يقال له: أبو كرز يقفو الآثار، فقالوا : يا أبا كرز اليوم اليوم.

فوقف بهم على باب حجرة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: هذه قدم محمد، والله إنّها لأخت القدم التي في المقام (يعني بذلك قدم إبراهيم في المقام) -وكان أبوبكر استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله فردّه معه- فقال أبو كرز: وهذه قدم أبي قحافة أو ابنه، ثم قال: وههنا عبر ابن أبي قحافة، فمازال بهم حتى أوقفهم على باب

⬅⬅⬅

وأَخَذُوا الرِّضَاعليه السلام وأَلْبَسُوهُ جُبَّةَ صُوفٍ وقَلَنْسُوَةً مِنْهَا، ووضَعُوا عَلى عُنُقِهِ مِسْحَاةً، وقَالُوا لَهُ: ادْخُلِ الْبُسْتَانَ كَأَنَّكَ تَعْمَلُ فِيهِ.

ثُمَّ جَاؤُوا بِأَبِي جَعْفَرٍعليه السلام، فَقَالُوا: أَلْحِقُوا هذَا الْغُلَامَ بِأَبِيهِ. فَقَالُوا: لَيْسَ لَهُ هَاهُنَا أَبٌ، ولكِنَّ هذَا عَمُّ أَبِيهِ، وهذَا عَمُّ أَبِيهِ، وهذَا عَمُّهُ، وَهذِهِ عَمَّتُهُ، وإِنْ يَكُنْ لَهُ هَاهُنَا أَبٌ، فَهُوَ صَاحِبُ الْبُسْتَانِ؛ فَإِنَّ قَدَمَيْهِ وقَدَمَيْهِ وَاحِدَةٌ.

فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو الْحَسَنِعليه السلام، قَالُوا: هذَا أَبُوهُ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ: فَقُمْتُ فَمَصَصْتُ رِيقَ أَبِي جَعْفَرٍعليه السلام، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ إِمَامِي عِنْدَ اللهِ، فَبَكَى الرِّضَاعليه السلام، ثُمَّ قَالَ: يَا عَمِّ، أَلَمْ تَسْمَعْ أَبِي وهُوَ

➡➡➡

الغار، ثم قال: ما جازوا هذا المكان؛ إما أن يكونوا صعدوا إلى السماء، أو دخلوا تحت الأرض!

هذا ولو نظر غير القائف لما وجد أثرًا من البداية ولا عرف شبهًا بين قدم رسول الله وقدم أبيه إبراهيم صلوات الله عليهم وعلى آلهم الطيبين.

هذا كله في قيافة الأثر، أما قيافة البشر فهي معرفة الأنساب وصحتها بتتبع الأقدام وآثارها، كما نسب أبو كرز الخزاعي النبيصلى الله عليه وآله إلى جده إبراهيم بآثار أقدامهم.

على هذا فلا ينبغي التوهم بأن وجوه أخوات الإمام صارت في معرض النظر إلى القافة.

يضاف إلى ذلك أن القائف لا يشترط فيه الذكورة، وقد حدّث التاريخ عن قائفات ورثن القيافة عن قومهن، ولا بأس بذكر هذه الحادثة التي ينقلها الأبشيهي: قال رجل: شردت لي إبل فجئت إلى خراش (من القافة) فسألته عنها، فأمر بنته أن تخط لي في الأرض، فخطّت، ثم قامت. فضحك خراش! ثم قال: أتدري قيامها لأي شيء؟ قلت: لا. قال: قد علمت أنك تجد إبلك وتتزوجها، فاستحيت ثم خرجت. فوجدتُ إبلي ثم تزوجتها.

والشاهد أن ابنة القائف خراش كانت قائفة أيضًا.

يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بِأَبِي ابْنُ خِيَرَةِ الْإِمَاءِ، ابْنُ النُّوبِيَّةِ الطَّيِّبَةِ الْفَمِ، الْمُنْتَجَبَةِ الرَّحِمِ، ويْلَهُمْ لَعَنَ اللهُ الْأُعَيْبِسَ وذُرِّيَّتَهُ صَاحِبَ الْفِتْنَةِ، وَيَقْتُلُهُمْ سِنِينَ وشُهُوراً وأَيَّاماً، يَسُومُهُمْ خَسْفاً، ويَسْقِيهِمْ كَأْساً مُصَبَّرَةً، وهُوَ الطَّرِيدُ الشَّرِيدُ، الْمَوْتُورُ بِأَبِيهِ وجَدِّهِ، صَاحِبُ الْغَيْبَةِ، يُقَالُ: مَاتَ أَوْ هَلَكَ، أَيَّ وادٍ سَلَكَ، أَفَيَكُونُ هذَا يَا عَمِّ إِلاَّ مِنِّي؟ فَقُلْتُ: صَدَقْتَ جُعِلْتُ فِدَاكَ.[1] تم الخبر

وهذا الخبر هو عمدة ما جيء به كدليل على أن والدة الإمام صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف نوبية لا رومية، والاستدلال به كما ترى من الوهن والضعف!

وقبل التعليق على الخبر لابد من الإشارة إلى أن الفقهاء بحثوا هذه الرواية في المكاسب المحرمة ضمن بحثهم في حكم القيافة، وبينما نقلها الشيخ الأعظم قدس سره للتيمن باعتبارها فضيلة لإمامنا الجواد عليه السلام، رأى السيد الخوئي قدس سره[2] ضعفها وعدم صلاحيتها للاستدلال، وهي رواية محل بحث وأخذ ورد في كتب الاستنباط الفقهي، وليس هذا محل كلامنا وإنما نتحدث وفق الموازين التاريخية.

ولكن على الرغم من ذلك فإن من حاكم روايات كون والدة الإمام صاحب الأمر عجل الله فرجه الشريف رومية فردّها وأنكرها محتجا بضعفها كان أولى -وفق موازينه- أن يرد هذه الرواية ولا يقبل منها شيئا، غير أنه هناك أخذ يُضعّف على الظن

---

(١) أصول الكافي ١/ ٣٢٢

(٢) مصباح الفقاهة ١/ ٥٩١

والتهمة، وهنا يقبل دون تدقيق في سند ومتن ودلالة، وهذا مما يزيد الأمر ريبة!

على كل حال فنقول في حديثنا حول سياق الرواية التاريخي، فإنها وردت في سياق تبرئة السيدة الطاهرة والدة الإمام الجوادعليه السلام وبعدما ثبت بحكم القافة براءتها واطمأنت قلوب الحاضرين عاتب الإمام الرضاعليه السلام عمه علي بن جعفر، وجاء بحديث نبوي يذكر فيه فضل السيدة الطاهرة خيزران النوبية ووصف النبيصلى الله عليه وآله لها بأنها خيرة الإماء النوبية الطيبة...

إلى هذه الفقرة كان الكلام واضحًا في أي سياق، فالنوبية الطيبة هنا هي السيدة خيزران والدة الإمام الجوادعليه السلام، أما ابن النوبية من هو؟ إما أن يكون الابن المباشر، أو حفيدها (الابن بالواسطة).

يظهر من السياق أن الكلام في حفيدها الإمام المنتظرعجل الله تعالى فرجه الشريف وهو ما استظهره الشيخ المازندرانيرحمه الله في شرح الكافي حيث قال: المراد به صاحب الزمانعجل الله تعالى فرجه الشريف لا محمد بن على الجوادعليه السلام لأن ضمير هو في قوله: (وهو الطريد) راجع إلى الابن وهو بيان لحال الصاحب قطعا[1].

كما أن العلامة المجلسيرحمه الله لم يتردد في كون النوبية هي والدة الإمام الجوادعليه السلام فهو واضح وإنما التردد في عود الضمير عليه أو على صاحب الأمرعجل الله تعالى فرجه الشريف، حيث قالرحمه الله في مرآة العقول: والمراد بابن خيرة الإمام المهديعليه السلام والمراد بخيرة الإماء أم الجوادعليه السلام، فإنها أمه بواسطة لأن أمه بلا واسطة كانت بنت قيصر ولم

---

(١) شرح أصول الكافي للمازندراني ٦/ ٢١٢

تكن نوبية، فضمير يقتلهم راجع إلى الابن، وقيل: المراد به الجوادعليه السلام وضمير يقتلهم راجع إلى الله تعالى أو مبهم يفسره قوله: وهو الطريد، والقتل في الرجعة، لتشفي قلوب الأئمة والمؤمنين.[1]

وقال الشيخ علي سبط الشهيد الثانيرحمهما الله في تعليقه على الرواية: و(ابن خيرة الإماء النوبية) الجوادعليه السلام، وهو المناسب للواقع ومقام النص.[2]

فالمؤكد على كل حال أن خيرة الإماء النوبية في هذه الرواية هي السيدة خيزرانعليها السلام والدة الإمام الجوادعليه السلام، ولا احتمال ثانٍ في البين أصلا، وإنما الكلام في المقصود من ابنها إن كان الابن المباشر أو الابن بالواسطة.

ويؤيد القول بأن المقصود هو الابن المباشر أي الإمام الجوادعليه السلام، لا صاحب الأمرعجل الله فرجه أن الشيخ المفيدرحمه الله نقل الرواية بزيادة بسيطة؛ روىرحمه الله حين وصل إلى هذا الموضع: (بأبي ابن خيرة الإماء النوبية الطيبة، يكون من ولده الطريد الشريد الموتور بأبيه..)[3]، والشيخ رضوان الله عليه روى الخبر عن أبي القاسم جعفر بن محمدرحمه الله عن الكلينيرحمه الله، أي أن الشيخ المفيدرحمه الله لم ينقل الرواية من نسخة الكافي التي عندنا، بل نقلها رواية عن شيخه أبي القاسم ابن قولويهرحمه الله، فلعل العبارة موجودة في الرواية لكنها سقطت من نسخة الكافي

(١) مرآة العقول ٣/ ٣٨١

(٢) الدر المنثور ٢/ ٨١٩

(٣) الإرشاد ٢/ ٢٧٦

المتداولة بيننا، ولم تسقط من نسخة الشيخ المفيد.

وعلى نسخة الشيخ المفيد رحمه الله اعتمد المرجع الراحل الشيخ لطف الله الصافي قدس سره حيث قال في تعليقه على الرواية: المراد بها أمّ الإمام محمّد بن عليّ الرضا عليهما السلام كانت نوبيّة يقال لها سبيكة، وليس المراد بابن خيرة الإماء النوبيّة مولانا المهدي عليه السلام كما قاله صاحب الوافي[1]، فقال: (يعني به المهدي صاحب الزمان صلوات الله عليه، كأنّه انتسبه إلى جدّته أم أبي جعفر الثاني عليه السلام...) وإنّما ذهب إلى ذلك اعتمادًا على نسخة الكافي، والظاهر أنّه سقط عنها قوله: (يكون من ولده الطريد الشريد). والاعتماد على نسخة الإرشاد التي يستقيم بها فهم المراد من دون حاجة الى التأويل. انتهى كلام الشيخ الصافي قدس سره.[2]

ولو قيل بأنها أضيفت كشرح من الشيخ المفيد، فلا ينبغي الاستهانة بشرحه قدس سره فإن له اعتباره العلمي، مضافًا إلى أن الشيخ الكليني رحمه الله أوردها في باب النص على إمامة الجواد عليه السلام وهذه كلها مؤكدات على فهم الأعلام للرواية، فمن أين جيء بهذا الفهم لا أدري؟! والأمر أوضح من أن يُسهب في بيانه، وأنت ترى وضوح المطلب عند علمائنا وتسالمهم على أن والدة إمامنا صاحب الأمر عجل الله فرجه الشريف

---

(١) الوافي ٢/ ٣٨٠، وتمام كلام الفيض الكاشاني رحمه الله: (بأبي ابن خيرة الإماء: يعني به المهدي صاحب زماننا عجل الله فرجه الشريف كأنه انتسبه إلى جدته أم أبي جعفر الثاني عليه السلام لأن أمه بلا واسطة كانت بنت قيصر ولم تكن بنوبية). وإنما نقلنا تتمة كلام الفيض رحمه الله لتصريحه بانتساب صاحب الأمر عجل الله فرجه الشريف إلى ابنة القيصر على نحو المسلمات.

(٢) منتخب الأثر ٢/ ١١٧

كانت من نسل قيصر الروم.

وإن لم يكن القول كما يقول علماؤنا فما الربط بين حادثة القافة وبين صاحب الأمر؟ إلا كون والدة الإمام الجواد من خيرة النساء منزهة عن كل ريبة كمريم العذراء وماريا القبطية.

ثم إنه بعد هذا البيان بات واضحا أن الاستدلال بهذه الرواية على كون والدة الإمام صاحب الزمان نوبية لا أصل له ولا يصدر من صاحب ذائقة سليمة في فهم النصوص، وعلى هذا فلا قيمة للقرائن التي جاءت مؤيدة لهذا المطلب فلا داعي للإسهاب في مناقشتها؛ لكننا نعلق بإيجاز على ما قيل، فقد جيء بقرينتين:

القرينة الأولى: ما ورد بكون الإمام سلام الله عليه أسمر البشرة، وهذا لا يُعتمد عليه لأنه معارض بكونه أبيض البشرة، ونقل جملة من الروايات في شمائله المحدث النوري في كتابه النجم الثاقب بعنوان: (الباب الثالث: في شمة من أوصاف وشمائل الإمام المهدي وبعض خصائصه)، كما تعرض غيره من العلماء لشمائل إمامنا صاحب الأمر أرواحنا فداه.

فلابد من التأمل في الروايات وتوجيهها لفك هذا التعارض وفق القواعد العلمية، ثم إن ذلك لو ثبت فإنه لا يفيد في شيء من المدعى، فكون الإمام أسمر اللون أو أبيض فإنه لا يعني أن الأم المباشرة نوبية! بل هي صفات متوارثة يأخذها من الآباء والأمهات القريب والبعيد منهم، ثم إن السمرة لون لا يختص بالنوبة كي يلزم أن تكون الأم المباشرة نوبية!

القرينة الثانية: ما ورد في غيبة النعماني وكمال الدين[1] بأن الإمام عجل الله فرجه الشريف ابن أمة سوداء، وهو على المناقشة في سنده، قد يناقش في متنه، فالخبر هو: عن أبي جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ الْبَاقِرَ عليه السلام: إِنَّ صَاحِبَ هَذَا الْأَمْرِ فِيهِ شَبَهٌ مِنْ يُوسُفَ، ابْنُ أَمَةٍ سَوْدَاءَ، يُصْلِحُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ أَمْرَهُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ.

والمناقشة في المتن أن يوسف على نبينا وآله وعليه السلام لم يكن ابن أمة سوداء، بل قيل بأن ثُلثَ الحُسْنِ كان في أمه راحيل[2] فليس هذا وجه شبه بالنبي يوسف! إلا أن يقال أن الشبه من يوسف غير مذكور في الرواية بل هي خصلة جديدة وإخبار ثانٍ وثالث، لكن ذلك يثير ريبة في بلاغة النص وانسجام سياقه؛ لأن عبارة: (يصلح الله أمره في ليلة واحدة) وجه شبه بالنبي يوسف ورد في روايات أخرى. روى الشيخ الصدوق رحمه الله بسنده عن سيد الشهداء الْحُسَيْن بْن عَلِيٍّ عليهما السلام أنه قال: فِي التَّاسِعِ مِنْ وُلْدِي سُنَّةٌ مِنْ يُوسُفَ وَسُنَّةٌ مِنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، وَهُوَ قَائِمُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ يُصْلِحُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمْرَهُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ[3].

وذلك أن النبي يوسف كان في السجن غائبًا وبسبب رؤيا الملك وتعبيره لها تغيرت أموره حتى صار عزيز مصر، وكذلك موسى بن عمران خرج ليقتبس لأهله نارا فرجع إليهم وهو رسول نبي فأصلح الله تبارك وتعالى أمر عبده ونبيه

---

(١) غيبة النعماني ١٦٣ وكمال الدين ١/ ٣٢٩

(٢) راجع تفسير الميزان ١١/ ٨٥

(٣) كمال الدين وتمام النعمة، عنه البحار ٥٠/ ١٣٣

موسى في ليلة. وكذا يفعل الله تعالى بالقائم عجل الله تعالى فرجه الشريف يصلح الله أمره في ليلة كما أصلح الله أمر يوسف وموسى، ويخرجه من الحيرة والغيبة إلى نور الفرج والظهور.

فإحدى وجوه الشبه الواضحة والمنصوص عليها في الروايات بين النبي يوسف وإمامنا المنتظر أرواحنا فداه أن الله تبارك وتعالى يصلح أمره في ليلة؛ لكن توسط عبارة (ابن أمة سوداء) في سياق الكلام مخل ببلاغة النص فلا هو وجه شبه يناسب الإمام ولا هو اعتراض نافع في المقام، ويبدو أنها مقحمة في وسط الرواية، خصوصا وأن بعض مخطوطات كمال الدين وتمام النعمة -بعد المراجعة والتثبت- خلت من هذه العبارة[1]، أما المطبوع اليوم فقد اختلفت النسخ منها ما خلت من هذه الزيادة، ومنها ما أثبتتها، والظاهر أن إثبات الزيادة وقع اعتمادا على ما ورد في غيبة النعماني.

أما غيبة النعماني فما يثير الريب في روايته -بعد ما تقدم من إرباك النص وعدم انسجامه مع سائر الروايات التي تذكر سنن الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف بالأنبياء- أن الراوي الذي نقل منه الشيخ النعماني الخبر هو ابن عقدة، وابن عقدة ثقة، لكنه زيدي منحرف فاسد العقيدة يرى أن صاحب الأمر هو زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام، وزيد أمه سندية، وإقحام هذه العبارة في وسط الرواية منسجم مع معتقد الزيدية،

(١) ألحقنا آخر الكتاب صورة للنسخة الخطية من كتاب كمال الدين الموجودة في مكتبة السيد الحكيم قدس سره.

لذلك تجد الإمام الزيدي المنصور بالله عبد الله بن حمزة[1] احتج بهذا الخبر، وأن هذا الوصف لا ينطبق على الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

ومن المعلوم أن علماءنا حين قسّموا الأسانيد المعتبرة إلى: صحيحة وموثقة وحسنة[2]، لم يكن ذلك عبثًا منهم؛ فإن فائدة هذا التقسيم تظهر في مثل هذه الموارد.

وإن التعارض بين ما ثبت من أن أم صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف رومية، وبين ما جاء هنا بأنه ابن أمة سوداء من وجوهه المحتملة: زيادة ابن عقدة هذه العبارة على النص الشريف، بقرينة أن ما ورد في بعض مخطوطات كمال الدين للشيخ الصدوق رحمه الله -المروية بطريق عبد الواحد بن محمد بن عبدوس لا ابن عقدة- خلت من هذه الزيادة النشاز في الرواية، وهذا ما يزيد الأمر ريبة واضطرابًا!

هذا مضافًا إلى أن النعماني رحمه الله روى في الغيبة عن ابن عقدة بسنده عَنْ أَبِي الصَّبَّاحِ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِّ عليه السلام فَقَالَ لِي مَا وَرَاءَكَ؟ فَقُلْتُ سُرُورٌ مِنْ عَمِّكَ زَيْدٍ، خَرَجَ يَزْعُمُ أَنَّهُ ابْنُ سَبِيَّةٍ، وَهُوَ قَائِمُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنَّهُ ابْنُ خِيَرَةِ الْإِمَاءِ...(الخبر)[3]. وموضع الشاهد أن هناك خصلة في زيد الشهيد أنه كان ابن

---

(١) راجع العقد الثمين في أحكام الأئمة الهادين للإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان ٢٣٧ وأعجب من ذلك أن مدعي المهدوية اليوم تمسكوا بهذه العبارة لتثبت أن هناك مهديًّا آخر!

(٢) الصحيح: ما كان رجاله ثقاة إماميون، أما الموثق: ما كان رجاله ثقاة لكن فيهم من هو غير إمامي، أما الحديث الحسن: ما كان رجاله إماميون ولم يرد فيهم توثيق صريح.

(٣) غيبة النعماني ٢٢٩

سبية، وهذه الخصلة مُبَشَّرٌ بها لقائم بالأمر[١]، يرى الزيدية انطباقها على زيد، فيما نرى أنها لا تنطبق عليه فهو ليس ابن خيرة الإماء وأن القائم بالأمر لا يجب أن يقتل ويستشهد بل يفتح الله على يديه.

إن ابن عقدة على وثاقته يبقى منحرف العقيدة غير مؤتمن على الدين يرى ابن الأمة المسبية السندية السوداء زيد بن علي عليه السلام أحق بالأمر، ولا ينبغي تصديقه في مواضع الريب.

وهذا نظير ما كان يصدر من بعض ثقاة الواقفة لعنهم الله؛ كزرعة بن محمد الحضرمي، الذي وصفه النجاشي بأنه ثقة[٢]، لكن صدر منه الكذب في بعض موارد التهمة، من ذلك ما ورد عن الحسن بن قياما الصيرفي قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام فقلت: جعلت فداك ما فعل أبوك؟ قال عليه السلام: مضى كما مضى آباؤه عليهم السلام. قلت: فكيف أصنع بحديث حدثني به زرعة بن محمد الحضرمي عن سماعة بن مهران أن أبا عبد الله عليه السلام قال: إن ابني هذا فيه شبه من خمسة أنبياء: يحسد كما حسد يوسف عليه السلام ويغيب كما غاب يونس عليه السلام وذكر ثلاثة أخر؟

قال عليه السلام: كذب زرعة، ليس هكذا حديث سماعة! إنما قال: صاحب هذا

(١) (القائم بالأمر) عنوان مشير إلى الإمام المفترض الطاعة، وأيضًا يطلق كلقب خاص بإمامنا المنتظر عجل الله فرجه والمراد هنا الوصف لا اللقب الخاص. والأمر نفسه في وصف (صاحب الأمر) فإنه يطلق تارة على جميع الأئمة عليهم السلام (كما تقدم في الرواية: إن صاحب هذا الأمر لا يموت حتى يرى خلفه من بعده)، وتارة يكون مختصًّا بإمام زماننا عجل الله فرجه.

(٢) رجال النجاشي تحت رقم ٤٦٦

الأمر -يعني القائم- فيه شبه من خمسة أنبياء، ولم يقل ابني.[١]

وخلاصة القول أن عبارة (ابن أمة سوداء) لا يمكن الجزم بأنها من كلام المعصوم، والقرائن تؤكد زيادتها على النص. قال المرجع الراحل الشيخ لطف الله الصافي قدس سره: هذه الجملة (ابن أمة سوداء) غير موجودة في نسخة كمال الدين المترجمة بالفارسية ونسخة طبع النجف سنة ١٣٨٩هـص٣٢٠، راجع: ج١ ص٤٤٥، هذا مضافا إلى أنّ شبهه من يوسف الغيبة والسجن، وعلى هذا لا يبعد احتمال الزيادة في الحديث، واللهّ أعلم.[٢]

فإن أبيت إلا قبول خبر ابن عقدة المعارَض بما ثبت في أحوال والدة الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف فعليك أن توجه العبارة بما لا يخالف الثابت الصريح في رواياتنا، كتوجيه العلامة المجلسي حيث قال رحمه الله: قوله عليه السلام: ابن أمة سوداء، يخالف كثيرا من الأخبار التي وردت في وصف أمه عليه السلام ظاهرا؛ إلا أن يحمل على الأم بالواسطة أو المربية.[٣]

وعليه فلا وجه للقول بأن والدة الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف نوبية، فلا دليل يساعد عليه، ولا هو قول مذكور في كتب علمائنا الأعلام ليتبناه معاصر ويقويه!

◆◆◆

(١) رجال الكشي ١/ ٤٧٧

(٢) منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر ٢/ ٣١٢

(٣) بحار الأنوار ٥١/ ٢١٩

الظروف الحرجة والتقية

أقام الإمام العسكري عليه السلام في داره بسامراء في تقية شديدة، حتى أن جماعة من الشيعة بل من بني هاشم ما كانوا عارفين بأن للإمام الهادي عليه السلام ولدًا اسمه الحسن عليه السلام بل كانوا يظنون أن الإمامة بعد أبي الحسن الهادي عليه السلام في ولده السيد محمد المعروف بسبع الدجيل سلام الله عليه.

فقد روى الكليني رحمه الله أن جماعة من بني هاشم منهم الحسن بن الحسن الأفطس حضروا دار الإمام الهادي عليه السلام يعزونه في وفاة ولده السيد محمد سبع الدجيل وكان في الدار ما يقارب مئة وخمسين رجلا من بني هاشم سوى مواليه وسائر الناس، فدخل الإمام الحسن العسكري عليه السلام مشقوق الجيب، ولم يكن يعرفه الحاضرون في ذلك المجلس، وهذا في سنة (٢٥٢هـ) أي قبل شهادة الإمام الهادي عليه السلام بسنتين، وعمر الإمام العسكري آنذاك ما يقارب العشرين سنة، وجماعة من بني هاشم لم يكونوا رأوا الحسن العسكري عليه السلام ولا سمعوا عنه، فضلا عن سائر الناس.[1]

أما عامة المؤمنين فمنهم من لم يكن يعرف الإمام حتى رآه يصلي على جنازة أبيه الهادي عليهما السلام كعبد الله بن محمد الأصفهاني الذي سأل أبا الحسن الهادي عليه السلام عن الخلف من بعده فلم يخبره ولكن أعطاه العلامة وهي أنه يصلي على جنازته، فكانت أول مرة يعرف ولدًا للإمام بهذا الوصف حين رآه يصلي على

(١) راجع الكافي ١/ ٣٢٦

الجنازة.[1]

ومع هذا التكتيم الشديد تجد الكثير من الغموض في سيرته، فنحن نعلم أنه هاجر إلى سامراء لكننا لا نعلم إن كان صحب أباه في سفره[2] حين أشخصه المتوكل أم لحق به متأخرًا؟! فلا نعلم مدة مقامه في سامراء، ولا نعرف تفاصيل حياته لأن خاصة أصحابه ما كانوا في جواره بل كان عليه السلام معزولا عنهم، وذلك بسبب الضغط العباسي من جهة، ومن جهة لرغبة الإمام عليه السلام بتهيئة الشيعة للغيبة، فتغيرت سبل التواصل مع الشيعة حتى كثر الاعتماد على الوكلاء، كما أن صدقات الإمام ومبرّاته وخيراته توزع عن طريق الوكلاء لا كما كان يفعل الإمام زين العابدين عليه السلام يحمل الجراب على ظهره ويطوف على بيوت المدينة. حتى أن عقيقة الإمام المنتظر عجل الله فرجه الشريف ما وزعت بشكل مباشر بل وزعت على بيوت الشيعة عن طريق الوكلاء، كما أن توجيهات الإمام وأوامره للشيعة أكثرها كانت تصل بالمكاتبات.

ثم إننا لا نعرف على وجه الدقة من كان يعش معه في البيت من أهل بيته؟ ومن هم حلقات الوصل بين الإمام عليه السلام وبني عمومته؟ وكيف كانت تصل

---

(١) راجع الكافي ١/ ٣٢٦

(٢) ذكر السيد علي بن محمد العلوي في كتابه المجدي في أنساب الطالبين في أحوال السيد محمد سبع الدجيل: (...وكان خلفه أبو الحسن العسكري عليه السلام بالحجاز طفلا وقدم عليه مشتدا، فكان مع أخيه الامام أبى محمد عليه السلام لا يفارقه وكان أبو محمد يأنس به...) وهي غير واضحة إن كان السيد محمد سبع الدجيل يأنس بأخيه الحسن العسكري عليهما السلام في المدينة، أو حين قدم إلى سامراء.

رسائل الإمامعليه السلام وكتبه للشيعة في ظل هذه الرقابة الشديد؟ حتى أن أحمد بن إسحاقرحمه الله[1] دخل على الإمامعليه السلام فطلب منه أن يكتب له بخطه، كي يعرف خطه إذا ورد عليه، فأراه الإمامعليه السلام خطه، وقال له: يا أحمد إن الخط سيختلف عليك من بين القلم الغليظ إلى القلم الدقيق فلا تشكن[2].

فإذا عرفت الشدة والرقابة حول دار الإمام فاعلم أنه سجن عدة مرات: في سجن صالح بن وصيف، وسجن نحرير أو يحيى بن قتيبة، وكان السجن الأخير سجن علي بن جرين خرج منه قبيل شهادته بأيام.[3]

مضافًا إلى ذلك فإن العباسيين عرفوا بوضوح مهدي آل محمد صلوات الله عليهم وأنه الثاني عشر وهو من ولد الحسن العسكريعليه السلام، فلا هو محمد بن عبد الله المحض ولا غيره، وصار الخلاص منه ضروريًّا، ما زاد في الأمر تقية، وكما ورد: عن الصادقعليه السلام: كُلَّمَا تَقَارَبَ هَذَا الْأَمْرُ كَانَ أَشَدَّ لِلتَّقِيَّةِ[4]، فيلاحظ أن أعمار الأئمةعليهم السلام بعد الإمام الكاظمعليه السلام صارت أقصر لاستعجال الطغاة بقرار اغتيال الإمام المعصومعليه السلام قبل أن يولد الخلف الحجةعليه السلام ما حداهم على كبس دار

---

(١) أحمد بن إسحاق القمي رحمه الله من ثقاة أصحاب الأئمة الجواد والهادي والعسكري عليهم السلام.

(٢) الكافي ١/ ٥١٣

(٣) تفاصيل هذه السجون متفرقة في الجزء ٥٠ من بحار الأنوار باب مكارم أخلاقه، ونوادر أحواله، وما جرى بينه وبين خلفاء الجور وغيرهم، وأحوال أصحابه وأهل زمانه، صلوات الله عليه. ولا يسع المقام لتفصيل ذلك.

(٤) الكافي ٢/ ٢٢٠

الإمام العسكري عليه السلام فورًا بعد وفاته صلوات الله عليه وعلى آبائه.

أضف إلى تلك العوامل تزامن الظرف مع الصراع الإسلامي البيزنطي[١] والمناوشات العسكرية بينهما خصوصًا بعد معركة عمورية (٢٢٣هـ/ ٨٣٨م)، حيث كانت الدولة الإسلامية في صراع مستمر مع الدولة البيزنطية وكان بين المسلمين والروم رسل وتبادل أسرى وشدة ولين، ومفاوضات مستمرة طوال هذه الفترات.

كل ذلك وأكثر كان سببًا للتعتيم على خصوصيات حياة الإمام عليه السلام وزوجاته وما يدور في بيته حتى تتم الأمور كما أراد الله وفق الأسباب الطبيعية من ولادة الإمام إلى غيبته عجل الله فرجه الشريف.

وإلا ما هي العواقب لو صار معلوما عند عامة الناس أن ابنة القيصر تعيش في بيت الإمام العسكري عليه السلام؟ لا يوجد عاقل يسمح بإذاعة هذا السر الخطير، الذي قد يجعل دار الإمام تكبس فورًا وتعتقل السيدة لتكون ورقة مفاوضات أمنية مع الإمبراطورية البيزنطية، فالخصم لا يبالي بسجن الإمام عليه السلام كرارا ومرارا ولا يضع حرمة لأحد فكيف يمكن التصريح بهذا الأمر لعامة الناس؟

وهذا ما يبرر عدم ذياع الخبر وإبلاغه إلا لنزر يسير من أصحاب

---

(١) يأتي في الفصل الثالث تحت عنوان (حرب المسلمين مع الروم) شيء من التفصيل حول الصراعات الإسلامية البيزنطية.

الإمام عليه السلام، فيكتمه بشر بن سليمان النخاس أكثر من ثلاثين سنة!

وهذا ما يجعلنا نفهم بعض كلمات السيدة حكيمة بنت الإمام الجواد عليه السلام التي كانت حاضرة عند ولادة الخلف عجل الله تعالى فرجه الشريف وردت على نحو التقية لدفع الخطر عن الإمام المعصوم عليه السلام وأهله بيته.

منها هذه الرواية: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْقَاسِمِ الْعَلَوِيِّ، قَالَ: دَخَلْنَا جَمَاعَةً مِنَ الْعَلَوِيَّةِ عَلَى حَكِيمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى عليهم السلام، فَقَالَتْ: جِئْتُمْ تَسْأَلُونَنِي عَنْ مِيلَادِ وَلِيِّ اللهِ؟ قُلْنَا: بَلَى وَاللهِ. قَالَتْ: كَانَ عِنْدِي الْبَارِحَةَ، وَأَخْبَرَنِي بِذَلِكَ. وَإِنَّهُ كَانَتْ عِنْدِي صَبِيَّةٌ يُقَالُ لَهَا نَرْجِسُ وَكُنْتُ أُرَبِّيهَا مِنْ بَيْنِ الْجَوَارِي، وَلَا يَلِي تَرْبِيَتَهَا غَيْرِي، إِذْ دَخَلَ أَبُو مُحَمَّدٍ عليه السلام عَلَيَّ ذَاتَ يَوْمٍ فَبَقِيَ يُلِحُّ النَّظَرَ إِلَيْهَا، فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي، هَلْ لَكَ فِيهَا مِنْ حَاجَةٍ؟ فَقَالَ عليه السلام: إِنَّا مَعْشَرَ الْأَوْصِيَاءِ لَسْنَا نَنْظُرُ نَظَرَ رِيبَةٍ، وَلَكِنَّا نَنْظُرُ تَعَجُّباً؛ أَنَّ الْمَوْلُودَ الْكَرِيمَ عَلَى اللهِ يَكُونُ مِنْهَا.

قَالَتْ: قُلْتُ: يَا سَيِّدِي، فَأَرُوحُ بِهَا إِلَيْكَ؟ قَالَ عليه السلام: اسْتَأْذِنِي أَبِي فِي ذَلِكِ. فَصِرْتُ إِلَى أَخِي عليه السلام، فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ ضَاحِكاً، وَقَالَ: يَا حَكِيمَةُ، جِئْتِ تَسْتَأْذِنِينِي فِي أَمْرِ الصَّبِيَّةِ، ابْعَثِي بِهَا إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُشْرِكَكِ فِي هَذَا الْأَمْرِ.

قالت: فَزَيَّنْتُهَا وَبَعَثْتُ بِهَا إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام، فَكُنْتُ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا دَخَلْتُ عَلَيْهَا تَقُومُ فَتُقَبِّلُ جَبْهَتِي فَأُقَبِّلُ رَأْسَهَا، وَتُقَبِّلُ يَدِي فَأُقَبِّلُ رِجْلَهَا، وَتَمُدُّ يَدَهَا إِلَى خُفِّي لِتَنْزِعَهُ فَأَمْنَعُهَا مِنْ ذَلِكَ، فَأُقَبِّلُ يَدَهَا إِجْلَالًا وَإِكْرَاماً لِلْمَحَلِّ الَّذِي أَحَلَّهُ اللهُ

تَعَالَى فِيهَا...»[1] والخبر طويل فيها تفصيل ولادة الإمام عجل الله فرجه لكننا اقتطعنا منه موضع الشاهد.

والمهم في الرواية أن السيدة حكيمة عليها السلام لم تصرّح للراوي مع أنه علوي كيف صارت الجارية في بيتها، وإنما اكتفت بذكر اسمها وأنها كانت عندها وأنها تعهدت تربيتها.

وهذه الفقرة متناسبة مع ما ورد في الخبر المفصل المشهور الذي رواه بشر النخاس في كيفية وصول السيدة من قصر القيصر في الروم إلى دار الإمام العسكري عليه السلام حيث أمره الإمام الهادي عليه السلام بشرائها، فلما اشتراها وجاء بها إلى داره عليه السلام، قال أَبُو الْحَسَنِ الهادي عليه السلام: (يَا كَافُورُ ادْعُ لِي أُخْتِي حَكِيمَةَ فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ. قَالَ عليه السلام لَهَا: هَا هِيَهْ، فَاعْتَنَقَتْهَا طَوِيلًا وَسُرَّتْ بِهَا كَثِيراً، فَقَالَ لَهَا مَوْلَانَا: يَا بِنْتَ رَسُولِ اللهِ أَخْرِجِيهَا إِلَى مَنْزِلِكِ وَعَلِّمِيهَا الْفَرَائِضَ وَالسُّنَنَ فَإِنَّهَا زَوْجَةُ أَبِي مُحَمَّدٍ وَأُمُّ الْقَائِمِ)[2].

ففي الرواية الأولى تذكر السيدة حكيمة أن لها جارية تعهدت بتربيتها ثم بعثتها للإمام العسكري عليه السلام، والرواية الثانية تذكر أن الجارية التي جاءت من الروم واشتراها الإمام الهادي عليه السلام عن طريق بشر النخاس صارت عند السيدة

(١) دلائل الإمامة ٤٩٩، وشبهه في كمال الدين وتمام النعمة ٢/ ٤٢٦ ونحوه مختصرًا في غيبة الشيخ الطوسي ٢٤٤

(٢) تأتي الإشارة إلى الخبر مفصلا.

حكيمة عليها السلام لتعلمها الفرائض والأحكام وبعد ذلك تذهب إلى بيت الإمام العسكري عليه السلام.

والرواية لا تقول بأن السيدة نرجس عليها السلام كانت جارية السيدة حكيمة عليها السلام، بل كانت في دارها، ولو كانت جاريتها فما معنى أن تستأذن الإمام الهادي عليه السلام لتبعثها إلى الإمام العسكري عليه السلام؟ ثم إن إمامنا الهادي عليه السلام كما هو واضح من صريح الرواية كان عالمًا مسبقًا بخبر الجارية في بيت السيدة حكيمة عليها السلام لأن السيدة حكيمة حين جاءت لتستأذن في أن تبعث الجارية للإمام العسكري عليه السلام ابتدأها الإمام الهادي عليه السلام قائلا: جِئْتِ تَسْتَأْذِنِينِي فِي أَمْرِ الصَّبِيَّةِ، ابْعَثِي بِهَا إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ[1].

وهو واضح في أن الإمام الهادي عليه السلام كان على اطلاع تام بشؤون الجارية المقصودة وأن الأمر ليس غائبا عن ذهنه، ولم يكن عفويًّا وليد الساعة! كل ذلك واضح بصريح الرواية.

وهل لهذا تفسير غير أنها جاريته التي أمر السيدة حكيمة أن تتعهد بتربيتها وتعليمها الفرائض فإذا أتمت ذلك بعثتها إلى إمامنا العسكري عليه السلام، ثم إنها لما أتمت ذلك ودخلت على إمامنا الهادي عليه السلام عرف ما في نفسها وأمرها أن تبعث الجارية إليه.

---

(١) في رواية الصدوق رحمه الله، أن الإمام الهادي عليه السلام ابتدأها قائلا: يَا حَكِيمَةُ ابْعَثِي نَرْجِسَ إِلَى ابْنِي أَبِي مُحَمَّدٍ.

واضح أنها ليست جارية مجهولة عندهم، بل هي المعهودة المعروفة التي اصطفيت من بين نساء الأرض لتكون أمًّا لإمامنا الخلف عجل الله فرجه الشريف، والتي كان بيت الإمام يترقب وصولها حتى يسّر الله لها ذلك.

لا يوجد تعارض بين الروايتين، بل بينهما أشد الانسجام، غير أن ظروف التقية تقتضي كتمان خبر وصولها من الروم إلى سامراء فجاءت رواية السيدة حكيمة عليها السلام دون تصريح بذلك، أما رواية بشر النخاس فهي تصرح بهذه التفاصيل، لكنها ما أذيعت إلا بعد ولادة الخلف عجل الله فرجه الشريف بأكثر من ثلاثين سنة.

وعليه فإن هذه الطائفة من الروايات التي تذكر أن السيدة حكيمة تكفلت برعاية السيدة نرجس عليها السلام وأنها هي التي أوصلتها إلى الإمام العسكري عليه السلام تصلح أن تكون مؤيدًا لما ورد في خبر بشر النخاس.

إن الراوي -حتى وإن لم يكن ثقة- لا يستطيع أن يبتكر كل كذبة! هناك جزئيات ودقائق غائبة عن عامة الناس ويصعب الوصول إليها فكيف يتصور أن نخاسًا يكذب ويأتي بتفصيل انتقال جارية من الإمام الهادي إلى أخته إلى ابنه عليهم السلام! هذا بعيد جدًّا، وإن الذي رواه الطبري في دلائل الإمامة والصدوق في كمال الدين والطوسي في الغيبة وغيرهم كلها مؤيدات لخبر بشر النخاس المفصِّل لقصة مجيء ابنة قيصر الروم، لأن علمه بتفصيل ما جرى داخل البيت شاهد على أنه بالفعل قد اختص بهذا الشرف.

لقد مرّت على الطائفة ظروف حرجة شديدة لا يمكن أن يفهم حقيقتها

من نشأ في مجتمعه رغِدًا آمنا لم يخش ترويع طاغية وسجن وتشريد وقتل واعتقال بتهمة المحبة لآل رسول الله ﷺ. فهذا سُجن لأنه رأى في المنام أنه يزور الرضا عليه السلام وذاك ضاع ثلاث من أولاده في السجون لأنه أقام مأتم سيد الشهداء عليه السلام ولا يعلم في أي مقبرة جماعية غيبّوا عن الأنظار! وأشد من ذلك وأقسى مرّ على الطائفة... هذا ما يجعل الأئمة عليهم السلام يؤكدون على التقية وكتمان الأسرار بكثرة، حتى أفرد الكليني رحمه الله عدة أبواب لهذا الموضوع في أصول الكافي بعنوان: (باب التقية) و(باب الكتمان) و(باب الإذاعة)، و(باب في ترك دعاء الناس)، سوى ما أورده متفرقًا في الكافي، فضلا عما أورده المجلسي وغيره من المحدثين رحمهم الله في هذا الموضوع حتى عدَّت التقية علامة من علامات التشيع.

منها ما ورد عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: مَا قَتَلَنَا مَنْ أَذَاعَ حَدِيثَنَا قَتْلَ خَطَإٍ وَلَكِنْ قَتَلَنَا قَتْلَ عَمْدٍ.[1] وعنه عليه السلام: رَحِمَ اللهُ عَبْداً اجْتَرَّ مَوَدَّةَ النَّاسِ إِلَى نَفْسِهِ حَدِّثُوهُمْ بِمَا يَعْرِفُونَ وَ اسْتُرُوا عَنْهُمْ مَا يُنْكِرُونَ.[2] والأحاديث في ذلك كثيرة.

ثم لا يخفى عليك أن الأسرار في الأخبار ليست مطلقة، فالسر يكون سرًّا اليوم ولا يكون سرًّا غدا، من ذلك ما تقدم من أن خلافة أبي محمد العسكري عليه السلام لأبيه الهادي عليه السلام كانت سرًّا مكتوما فترة من الزمان، ولكنها لا يمكن أن يكون سرًّا إلى اليوم! والأمثلة في ذلك كثيرة، فلا ينبغي الإسهاب فيها لوضوح المطلب.

---

(١) الكافي٢/ ٣٧٠

(٢) الكافي ٢/ ٢٢٣

ومن ذلك تفهم العلة في كتمان بشر بن سليمان النخاس خبر السيدة نرجس عليها السلام حتى سنة (٢٨٦هـ) أي بعد ولادة مولانا بقية الله الأعظم عجل الله فرجه الشريف بأكثر من ثلاثين سنة، ولم يذعه إلا خشية ضياعه قبل وفاته رحمه الله. ثم إنه لا يظهر أن محمد بن بحر الرهني أذاع الحديث فور سماعه من بشر النخاس.

وهذا يعني أن نسب السيدة نرجس عليها السلام كان من الأسرار ولم يكن ذائعًا بين الأصحاب فضلا عن عامة الناس إلى فترة طويلة من الغيبة الصغرى، وهذا شأن كثير من الأسرار التي تغيب عن المؤمنين سنين متمادية، ثم يذيع خبرها متأخرًا كموضع قبر أمير المؤمنين عليه السلام فإنه كان مخفيًا[1]، فإن جل الأصحاب قبل ذلك لم يكونوا عارفين بموضع القبر الشريف.

وكل موضوع يكون من الأسرار أول الأمر لا يمكن أن نتوقع ذياعه بين

---

(١) من القضايا المشهورة في ذلك، ما رواه السيد ابن طاووس رحمه الله في فرحة الغري ١١٩:

عن عبد الله بن حازم قال: خرجنا يوما مع الرشيد من الكوفة نتصيد، فصرنا إلى ناحية الغريين والثوية، فرأينا ظباء فأرسلنا عليها الصقورة والكلاب، فحاولتها ساعة، ثم لجأت الظباء إلى أكمة فسقطت عليها، فسقطت الصقورة ناحية ورجعت الكلاب. فتعجب الرشيد من ذلك.

ثم إن الظباء هبطت من الأكمة فسقطت الصقورة والكلاب فرجعت الظباء إلى الأكمة فتراجعت عنها الكلاب والصقورة، ففعلت ذلك ثلاثًا!

فقال هارون: اركضوا فمن لقيتموه فأتوني به، فأتيناه بشيخ من بني أسد. فقال هارون: ما هذه الأكمة؟ قال: إن جعلت لي الأمان أخبرتك. قال: لك عهد الله وميثاقه ألا أهيجك ولا أوذيك.

قال: حدثني أبي عن أبيه أنهم كانوا يقولون هذه الأكمة قبر علي بن أبي طالب عليه السلام.

المؤمنين على نحو السرعة، خصوصًا أنه يلزم السفر والتنقل بين البلدان لسماع الأخبار والتدقيق فيها ما يقتضي تطاولا في الأزمان.

وهذا يفسر أن المسعودي صاحب إثبات الوصية[1] لم يكن يعرف هذا

(١) صدرت مناقشات مفصلة في صحة نسبة إثبات الوصية للمسعودي رحمه الله، والمناقشة في عدة جوانب: إن كان المسعودي الشيعي صاحب إثبات الوصية هو نفسه المسعودي صاحب مروج الذهب لكنه يتقي هناك؟ أم هما شخصيتان مختلفتان؟ خلافًا لما عليه المشهور في كلمات المحققين والرجاليين ذهب بعض المعاصرين حفظهم الله إلى أنهما شخصيتان مختلفتان. والحقيقة أنه لا ثمرة بالنسبة لنا في هذا الخلاف، فإنه على ذلك يبقى صاحب إثبات الوصية ثقة، ويبقى التعامل مع مروج الذهب والتنبيه والأشراف وغيرها من مصنفات المسعودي على أنها إما صدرت تقية وإما لأحد علماء العامة، والنتيجة واحدة.

كما حاول البعض نسبة إثبات الوصية إلى الشلمغاني لعنه الله وأنه كتبه فترة استقامته، وهذا غريب لوجوه، نذكر منها: الأول أن صاحب إثبات الوصية قرر في نهاية كتابه تاريخ إتمام الكتاب، وهو يوافق ما بعد وفاة الشلمغاني بعشر سنين.

أما الوجه الثاني فإن الحر العاملي رحمه الله في إثبات الهداة نقل تارة عن كتاب الأوصياء للشلمغاني وتارة عن إثبات الوصية ما يعني أن نسخة من كتاب الشلمغاني كانت بين يديه، ونسخة من كتاب المسعودي كانت بين يديه، وأنه ميّز بين الكتابين ولم يكن الأمر ملتبسًا عليه فكان ينقل من هذا ومن ذاك.

أما الوجه الثالث فإن الشيخ الطوسي رحمه الله روى في كتاب الغيبة عدة روايات عن كتاب الأوصياء للشلمغاني، ولكن بعضها غير موجود في إثبات الوصية للمسعودي.

وهناك وجوه أخر ليس المقام مقام تحقيق فيها، ولكن غاية ما يمكن ادعاؤه أن كتاب الأوصياء (المفقود) للشلمغاني فيه روايات مشتركة مع كتاب إثبات الوصية للمسعودي، وهذه الدعوى لا تفيدنا ولا تضرنا.

الخبر، لأن المسعودي فرغ من كتاب إثبات الوصية سنة (٣٣٢هـ)[١] فإن المسعودي ولد في العراق، ونشأ في بغداد وأقام بها زمانا، وبمصر أكثر، ورحل في طلب العلم إلى أقصى البلاد فطاف فارس وكرمان سنة ٣٠٩هـ، وفي السنة التالية قصد الهند ثم عطف إلى كنباية فصيمور فسرنديب ومن هناك ركب البحر إلى بلاد الصين وطاف البحر الهندي إلى مداغسكر وعاد إلى عمان، ورحل رحلة أخرى سنة ٣١٤هـ إلى ما وراء أذربيجان وجرجان ثم إلى الشام و فلسطين. وفي سنة ٣٣٢هـ جاء إلى أنطاكية والثغور الشامية إلى دمشق واستقر أخيرا بمصر ونزل الفسطاط سنة ٣٤٥هـ، وتوفي فيها[٢]، ثم اعلم أن المسعودي عاش شطرًا طويلا من عمره بين المخالفين حتى ظن البعض أنه منهم.

أما محمد بن بحر الرهني (راوي الخبر الذي سمع القضية مفصلة من بشر النخاس) فرغم أنه عاصر المسعودي إلا أنه عاش في خراسان، قال شيخ الطائفة رحمه الله في محمد بن بحر الرهني: (وله نحو من خمس مائة مصنف ورسالة، وكتبه موجودة أكثرها ببلاد خراسان، فمن كتبه كتاب الفرق بين الآل والأمة،

---

(١) قال رحمه الله في خاتمة كتابه إثبات الوصية: وللصاحب عليه السلام منذ ولد الى هذا الوقت وهو شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، ست وسبعون سنة وأحد عشر شهرا ونصف شهر. قام مع أبيه أبي محمّد عليه السلام أربع سنين وثمانية أشهر ومنها منفردا بالإمامة اثنتان وسبعون سنة وشهورا، وقد تركنا بياضا لمن يأتي بعدنا والسّلام.

(٢) راجع معجم الأدباء لياقوت الحموي ٤/ ١٧٠٥

وكتاب القلائد)[1]، وقال النجاشي رحمه الله: (أبو الحسين الشيباني ساكن نرماشير من أرض كرمان)[2].

فكيف للمسعودي أن يعرف الخبر ويسمعه من الرهني؟ أم كيف له أن يأخذه من كتب الفضل بن شاذان النيسابوري؟ وكل ذلك بعيد المنال عنه فكيف يأتي المقيم بأنطاكيا سنة ٣٣٢هـ[3] بالأخبار من خراسان؟ وأخبارهم لما تذع بعد؟!

ولكن المسعودي بلغه الخبر الذي فيه أن السيدة نرجس نشأت في بيت السيدة حكيمة عليها السلام، وقد نقله في إثبات الوصية بالمضمون[4] لا بالنص، وذكر في أن

---

(١) فهرست الشيخ الطوسي ١٣٢

(٢) رجال النجاشي ٣٨٤

(٣) وهي سنة الفراغ من تأليف كتاب إثبات الوصية كما مر.

(٤) هناك فرق بين النقل بالمعنى والنقل بالمضمون: ذكر الشيخ الأعظم رحمه الله في المكاسب ١/ ٣٣ في مناقشته للمرسلة التي رواها الشيخ الطوسي رحمه الله في حكم بيع كلب الماشية والحائط قصور الدلالة لأن المنقول مضمون الرواية لا معناها. وأشار السيد الخوئي رحمه الله أيضًا إلى نفس المطلب في مصباح الفقاهة ١/ ١٦٩ من عدم حجية نقل الرواية بالمضمون خلافًا للنقل بالمعنى.

وذكر الميرزا التبريزي رحمه الله في إرشاد الطالب ١/ ٤٢ في ما إذا كان المنقول مضمون الكلام وحاصله: فإنه لا يخلو من إظهار الرأي في كلام الغير، ولذا لو كان المخبر بالمضمون ثقة كمال الثقة لم يكن اعتبار قوله إلا من باب حجية الرأي.

وذكر الشيخ محمد حسن المامقاني رحمه الله في غاية الآمال ١/ ٣١ أن نقل الكلام بالمعنى عبارة عن نقل تمام ما أفاده الكلام بعبارة أخرى دون زيادة ولا نقيصة في شيء من أجزاء الكلام ومدلوله، ثم ذكر أن المضمون هو الحاصل من المعنى ولب المطلب بعد إسقاط الخصوصيات التي اشتمل عليها.

السيدة نرجس ولدت في دار السيدة حكيمة، والنقل بالمضمون ليس بحجة.

قال المسعودي في إثبات الوصية: (روى لنا الثقات من مشايخنا أن بعض أخوات أبي الحسن علي بن محمدﷺ كانت لها جارية ولدت في بيتها وربّتها تسمّى نرجس فلما كبرت وعبلت[1] دخل أبو محمّدعليه السلام فنظر إليها فأعجبته فقالت عمّته: أراك تنظر إليها؟ فقال صلّى اللهّ عليه: إني ما نظرت إليها إلّا متعجبا! أما ان المولود الكريم على اللهّ جل وعلا يكون منها. ثم أمرها أن تستأذن أبا الحسن في دفعها إليه، ففعلت، فأمرها بذلك.)[2] والاشتباه في هذا النقل واضح، فإنه يلزم من ولادتها في بيت السيدة حكيمةعليها السلام أن تكون والدة الإمامعليه السلام مولدة لا سبية[3]، وكونه ابن سبية أمر مسلّم[4].

وأنت ترى أن المسعودي نقل مضمون الخبر المتقدم الذي رواه الطبري في دلائل الإمامة أن السيدة حكيمة حدّثت محمد بن القاسم العلوي مع جماعة من العلوية: (وَإِنَّهُ كَانَتْ عِنْدِي صَبِيَّةٌ يُقَالُ لَهَا نَرْجِسُ وَكُنْتُ أُرَبِّيهَا مِنْ بَيْنِ الْجَوَارِي،

(١) عبلت: تمّ وكمل خَلْقها.

(٢) إثبات الوصية ٢٥٧

(٣) الجارية المولدة يقصد منها التي تولد مملوكة لا حرة من أبوين مملوكين (قد يكون أحد الأبوين حرًّا لكن يكون الولد مملوكًا في بعض الفروض الفقهية كزنا الحر بالمملوكة فإن الولد مملوك، والتفصيل يذكر في محله). أما الجارية السبية فهي التي تكون حرّة في بلادها وتسترق بعد الأسر.

(٤) غيبة النعماني ٢٢٨ باب في كونه ابن سبية

وَلَا يَلِي تَرْبِيَتَهَا غَيْرِي، إِذْ دَخَلَ أَبُو مُحَمَّدٍ عليه السلام)[١]، وهو شبيه الذي رواه الصدوق أن السيدة حكيمة عليها السلام حدثت محمد بن عبد الله الطهوي: (كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ يُقَالُ لَهَا نَرْجِسُ فَزَارَنِي ابْنُ أَخِي..)[٢] وهو مثل الذي رواه الطوسي في الغيبة[٣]. فإنه لا يظهر أن المسعودي بلغه خبر مختلف عن هذه الأخبار غير أنه نقل الخبر بالمضمون كما ترى ولم ينقله بالنص، ولأن المسعودي لم يطلع على خبر الرهني عن بشر النخاس الذي اطلع عليه الصدوق والطوسي والطبري (صاحب دلائل الإمامة) فالتبس عليه الفهم، وتوهم أن تربية السيدة حكيمة للسيدة نرجس يعني أنها ولدت في بيتها.[٤]

ولعمري هذا ما يؤكد الشدة في كتمان الحديث والتزام الرواة بحفظه، فإن الأخبار لم تبلغنا اليوم إلا بمشقة، وإنّ الذي هو بين أيدينا اليوم لم يكن بين يدي كثير من الشيعة، لا أقول المسعودي فحسب، بل خُلّص أصحاب الأئمة عليهم السلام ومن أدرك العسكري عليه السلام وبلغه خبر ولادة الخلف عجل الله فرجه قد يكون حرم هذا الخبر ولم

---

(١) دلائل الإمامة ٤٩٩

(٢) كمال الدين وتمام النعمة ٢/ ٤٢٦

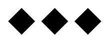
(٣) في غيبة الشيخ الطوسي ٢٤٤

(٤) وقد جاء في عيون المعجزات للشيخ حسين بن عبد الوهاب شبيه هذا الأمر إلا أننا أعرضنا عن مناقشته منعًا للإطالة، فإن المناقشة هنا ترد في اعتبار الكتاب والكاتب والمكتوب! ثم في دلالة النص وحجيته مع نقله بالمضمون ومعارضته للصحاح، وغير ذلك من مناقشة لا أظن أن في الإسهاب فيها ضرورة.

يبلغه هذا السر، وليس الأمر منحصرًا بالمسعودي!

إن كون المسعودي أقرب لزمن النص يجعله أقرب لمعرفة الواقع من جهة، ومن جهة أخرى يكون أبعد عن الواقع! أما قربه فهو في الأخبار الذائعة المشهورة التي يعرفها الجميع، أما بُعده عن الواقع فهو في الأسرار المكتومة التي لم تظهر إلا في أزمنة متأخرة؛ الأمر أشبه بالأخبار العسكرية اليوم، فالأحداث العامة من انفجارات وقتل ونحو ذلك فإن المعاصر لها أقرب للواقع، وأما الأسرار الحربية فإن الأجيال اللاحقة التي تتمكن من الاطلاع على الوثائق قد يتسنى لها معرفتها، ونحن فيما نحن فيه من الأسرار التي لم تكن لتذاع في وقتها.

وخلاصة القول أن الأخبار التي ذكرت بأن السيدة حكيمةعليها السلام تكفلت بتربية السيدة نرجسعليها السلام وأنها نشأت في بيتها كلها مؤكدات تثبت صدق رواية بشر النخاس وقضية مجيء حفيدة القيصر إلى دار الإمام الهاديعليه السلام لتتزوج الإمام العسكريعليه السلام بعد أن تتكفل السيدة حكيمةعليها السلام بتعليمها الفرائض والسنن، ثم تنتظر إذن الإمام الهاديعليه السلام في أن تبعثها للإمام العسكريعليه السلام.



الفصل الثالث

الثقافة الإسلامية تغزو بيزنطة - أبو أيوب الأنصاري - شمعون الصفا - المذهب الملكاني
الأسرة الحاكمة في القرن التاسع - الألقاب والمناصب الرسمية - القيصر باراداس
الصراعات الداخلية والخارجية - المرأة في الحضارة البيزنطية - في الأدب البيزنطي - الزفاف المنحوس
الزلزال وخطبة الأسقف الأعظم - العفو عن أسارى المسلمين - حرب المسلمين والروم

الرواية الشيعية والتاريخ البيزنطي

لقد تقدمت المناقشات المثبتة بأن والدة مولانا الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف هي السيدة مليكة حفيدة قيصر الروم، والتي من أسمائها نرجس وسوسن وريحانة وصقيل. وقد ذكرنا جملة من القرائن منها صحة أسانيد الروايات الدالة على ذلك وخلوّها من الروايات المعارضة ونحو ذلك من أدلة بما يناسب المقام.

وفي هذا الفصل سنبحث عن دليل أشد اعتبارًا من الأسانيد الصحاح، وهو انسجام المتن المروي في كتبنا مع ما ورد في التاريخ البيزنطي، بكيفية لا يمكن فيها اتهام راويي الخبر محمد بن بحر الرهني، أو بشر النخاس بالكذب، فإن ما احتواه الخبر من مداقة وتوافق مع مجريات الأحداث في بيزنطة لا تصدر من أي إنسان سكن خراسان أو بغداد وخطر في باله رسم حبكة خيالية بهذه الصورة!

لابد لراوي الخبر أن تكون له صلة مباشرة في القصور البيزنطية من الداخل، وصلة مباشرة في بيت الإمام العسكريعليه السلام، وإحاطة بجملة من الأحداث السياسية المتداخلة، ليكمل الحبكة! وغير ذلك فإن أي إنسان لن يتمكن من حبك كذبة بهذا الإتقان! لذا فإن متن الرواية يكفي للقول باعتبارها.

ولابد من التنبيه على أننا نتحدث عن ظروف القرن التاسع الميلادي والثالث الهجري، ولأن الأحداث تضبط تارة بالتاريخ الهجري وأخرى بالميلادي اقتضى التقديم بمقارنة بعض تواريخ أباطرة الدولة العمورية:

• أول أباطرة الدولة العمورية: ميخائيل الثاني، عاصر المأمون والمعتصم. وحكم بيزنطة (٨٢٠ - ٨٢٩ للميلاد)، ويوافق (٢٠٥ - ٢١٤ للهجرة).

• الإمبراطور الثاني: ثيوفيلوس[1] بن ميخائيل، عاصر المعتصم العباسي. وحكم بيزنطة (٨٢٩ - ٨٤٢ للميلاد)، ويوافق (٢٠٥ - ٢٢٨ للهجرة). وتوفي في نفس سنة وفاة المعتصم العباسي.

• الإمبراطور الثالث: ميخائيل[2] الثالث بن ثيوفيلوس، عاصر الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز. تسنم المنصب (٨٤٢ - ٨٦٧ للميلاد)، ويوافق (٢٢٨ - ٢٥٣ للهجرة). وكان عمره سنتين، لكنه لم يحكم أبدًا.

• منذ بداية حكم ميخائيل الثالث تولت الوصاية على الإمبراطور أمه

---

(١) ثيوفيلوس، وتعرّب أيضًا توفلس، وتيفول.

(٢) ميخائيل، وتعرّب أيضًا ميشيل، ومايكل، ويعرف بميخائيل السكير.

ثيودورا[1]، وكانت وصية على العرش أربع عشرة سنة (أي لغاية: ٨٥٦ للميلاد)، (ويوافق ٢٤٢ للهجرة).

- في سنة (٨٥٦ - ٨٦٦ للميلاد)، ويوافق (٢٤٢ - ٢٥٢ للهجرة)، تولى شؤون الإمبراطورية القيصر باراداس، وكانت طوع أمره عشر سنين.
- ثم إن باسيل[2] المقدوني اغتال القيصر باراداس سنة ٨٦٦م، وجلس مجلسه، ثم اغتال الإمبراطور سنة ٨٦٧م وأصبح هو الإمبراطور.
- كانت نهاية الدولة العمورية (٨٦٧ للميلاد) ويوافق (٢٥٣ للهجرة) على يد باسيل المقدوني، وبداية الدولة المقدونية.

لابد للجمع بين الرواية الشيعية وما ورد في التاريخ البيزنطي من تقاطع المعلومات والربط بينها، وهذا ما سيجعل أبواب هذا الفصل تبدو للوهلة الأولى متباينة وتجد في البيان غرابة فلا تستوحش، فإننا ننقل تارة ما رواه الشيخ الصدوق رحمه الله وأخرى عن المؤرخ البيزنطي جنسيوس، وتارة نتحدث عن المعتصم العباسي وأخرى عن الإمبراطور ثيوفيلوس، وتارة نأتي على ذكر سوق النخاسة في بغداد، وأخرى نأتي على ذكر كاتدرائية آياصوفيا في إسطنبول... ثم ستجد المطالب مترابطة أشد الترابط، وهو ما سيأتي ومن الله التوفيق.

◆◆◆

---

(١) ثيودورا، وعرّبها ابن خلدون: ندورة، وعرّبها الطبري: تذورة.

(٢) باسيل، وتعرّب أيضًا بازيل، وباسيليوس.

الثقافة الإسلامية تغزو بيزنطة

العصر الذهبي للإسلام –حسب تعبيرهم– امتد عدة سنوات وفيه توسعت رقعة الدولة الإسلامية جغرافيًّا، وتحول العرب من أذلة خاسئين يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم، يشربون الطرق ويقتاتون القد الورق، موطئ الأقدام وقبسة العجلان ونهزة الطامع، إلى ملوك يسكنون القصور، ويشمخون بآنافهم ليبارزوا الأكاسرة والقياصرة.

ولقد استهزأ المنافقون يوم الخندق حين بشر رسول الله ﷺ المسلمين بأن أمته ستظهر على قصور الحيرة والروم وصنعاء، واستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحصر. فقال المنافقون: ألا تعجبون؟ يمنيكم ويعدكم الباطل ويعلمكم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفَرَق[1] ولا تستطيعون أن تبرزوا فنزل القرآن: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾.

لقد تحقق وعد النبي ﷺ لأمته، وما أدت هذه الأمة حق نبيها ﷺ! وما وفت له بما عاهدته في بيعة العقبة من أن يمنعوا رسول الله ﷺ وذريته مما يمنعون منه أنفسهم وذراريهم، وظلموه ﷺ أجره الذي فرضه الله في كتابه وهو المودة في القربى! ولم يمتثل أمر رسول الله ﷺ في الهادين بعد الهادين والأمة مصرة على مقته

---

(١) الفرق: الخوف

مجتمعة على قطيعة رحمه وإقصاء ولده! هذا ما كان على كل حال، غير أن التاريخ يجب أن يفهم كما وقع.

لقد بلغت حضارة المسلمين في الدولة العباسية ذروتها؛ تبدأ الحكاية حين عزم المنصور على بناء بغداد، ثم لك أن تتنبأ كيف بلغت الأمور بعد المنصور بعقود، وإلى أي حد ارتفعت القصور، سيما أن المنصور وحده بنى عدة قصور، قصره المعروف بالقبة الخضراء (ويسمى أيضًا: قصر الذهب)، وقصر القرار تشبيها بالجنة لأن الآخرة دار القرار، وقصر الخلد تشبيها بالجنة أيضًا، وغيرها من قصور عاش فيها هو ومن بعده من فراعنة الأمة، كما شيدوا عشرات القصور والمباني والأسواق، وشيدوا بيت الحكمة[1] وغير ذلك.

وأنقل هنا ما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد بتصرف وإيجاز واقتطاع لطوله، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى المصدر[2]:

إن المنصور لما عزم على بناء بغداد، أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين، فمثل لهم صفتها التي في نفسه، ثم أحضر الفعلة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين، وغيرهم، وأجرى

(١) بيت الحكمة ويسمى خزائن الذهب، وهي مكتبة عامة تحتوي على كتب من مختلف العلوم بعدة لغات، فكانت مركزا للبحث العلمي والترجمة، ودارا للعلم تقام فيه الدروس وتمنح فيه الإجازات العلمية، كما كان فيها مرصدًا فلكيًّا، وكانت من أعظم روافد العلم في العالم في القرون الوسطى.

(٢) تاريخ بغداد ١/ ٣٧٥

عليهم الأرزاق، وكتب إِلَى كل بلد بحمل من فيه ممن يفهم شيئا من أمر البناء، ولم يبتدئ في البناء حتى تكامل بحضرته من أهل المهن والصناعات ألوف كثيرة، ثم اختطها وجعلها مدينة مدورة.

ويقال: لا يعرف في أقطار الدنيا كلها مدينة مدورة سِواها، ووضع أساسها في وقت اختاره له نوبخت المنجم. ثم إنه أمر ببنائها وعاد إلى الكوفة حتى كمل البناء، ولما فرغ أَبُو جعفر المنصور من بنائها نزلها مع جنده، وسماها مدينة السلام، ونقل الخزائن وبيوت الأموال والدواوين إليها.

وحكي عَنْ بعض المنجمين، قَالَ: قَالَ لي المنصور لما فرغ من مدينة السلام: خذ الطالع. فنظرت في طالعها وكان المشتري في القوس، فأخبرته بما تدل عليه النجوم من طول زمانها وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا إليها، وفقر الناس إلى ما فيها. ثم قلت له: وأبشرك يا أمير المؤمنين أكرمك الله بخلة أخرى من دلائل النجوم: لا يموت فيها خليفة من الخلفاء أبدا. فرأيته تبسم لذلك، ثم قَالَ: الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وأنفق المنصور على مدينته وجامعها وقصر الذهب فيها والأبواب والأسواق إلى أن فرغ من بنائها أربعة آلاف ألف وثمان مائة وثلاثة وثمانين درهما[1].

---

(١) أي ما يقارب نصف مليار درهم! وكان الكبش يومها يباع في بغداد بدرهم، والتمر كل ستين رطلا (الرطل نصف كيلو تقريبًا) بدرهم واحد!

وكان بين كل باب من أبواب المدينة إِلَى الباب الآخر ميل، ولها أربعة أبواب، فإذا جاء أحد من الحجاز دخل من باب الكوفة، وإذا جاء من المغرب دخل من باب الشام، وإذا جاء أحد من الأهواز والبصرة وواسط واليمامة والبحرين دخل من باب البصرة، وإذا جاء الجائي من المشرق دخل من باب خراسان. وجعل المنصور كل باب مقابلا لقصره، وبنى على كل باب قبة، وجعل بين كل بابين ثمانية وعشرين برجا، إلا بين باب البصرة وباب الكوفة فإنه يزيد واحدا.

وعمل عليها الخنادق، وعمل لها سورين وفصيلين[1]. وجعل لكل باب منها بابين باب دون باب، بينهما دهليز ورحبة يدخل إِلَى الفصيل الدائر بين السورين، وفق هندسة خاصة في كيفية الدخول والخروج إلى المدينة.

ثم إنه جعل فوق الأبواب آزاجًا[2]، وعلى كل أزج من آزاج هذه الأبواب مجلس له يرتقى إليه من درج على السور، وعلى هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة في السماء سمكها خمسون ذراعا مزخرفة، وعلى رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره.

وكانت هذه القباب مجلس المنصور؛ فإذا أحب النظر إلى الماء وإلى من يقبل من ناحية خراسان جلس في قبة باب خراسان، وإذا أحب النظر إلى

---

(١) الفصيل حائط أقصر من السور.

(٢) الآزاج جمع الأزج، وهو بناء مستطيل مقوس.

الأرباض وما والاها جلس في قبة باب الشام، وإذا أحب النظر إِلَى الكرخ ومن أقبل من تلك الناحية جلس في قبة باب البصرة، وإذا أحب النظر إِلَى البساتين والضياع جلس في قبة باب الكوفة.

ونقل المنصور أبواب المدينة من واسط، وهي أبواب الحجاج، وكان الحجاج وجدها على مدينة بناها سُلَيْمَان بْن داود بإزاء واسط، كانت تعرف بزندورد وكانت خمسة أبواب، كما صيّر على باب خراسان بابا جيء به من الشام من عمل الفراعنة، وعلى باب الكوفة الخارج بابا جيء به من الكوفة من عمل القسري، وعمل هو لباب الشام بابا فهو أضعفها.

وكان على أبواب المدينة ستور وحجاب وقواد، كل قائد مع ألف من الحرس عند كل باب، ولا يدخل أحد من هذه الأبواب إلا راجلا! وكانت تكنس الرحاب في كل يوم، يكنسها الفراشون، ويحمل التراب إِلَى خارج المدينة.

وذكروا أن أبا جعفر بنى المدينة مدورة؛ لأن المدورة لها معان سوى المربعة، وذلك أن المربعة إذا كان الملك في وسطها كان بعضها أقرب إليه من بعض، والمدور من حيث قسم كان مستويا لا يزيد هذا على هذا ولا هذا على هذا.

وبنى القصر والمسجد الجامع في وسط المدينة، وكان في صدر قصر المنصور إيوان[1] طوله ثلاثون ذراعا، وعرضه عشرون ذراعا، وفي صدر الإيوان مجلس عشرون ذراعا في عشرين ذراعا، وسمكه عشرون ذراعا، وسقفه قبة،

---

(١) الأيوان قاعة مسورة من ثلاث جهات ومفتوحة من جهة واحدة.

وعليه مجلس مثله فوقه القبة الخضراء، وسمكه إِلَى أول حد عقد القبة عشرون ذراعا، فصار من الأرض إِلَى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعا[1]، وكانت القبة الخضراء ترى من أطراف بغداد.

وكان على رأس القبة صنم فرس عليه فارس في يده رمح، فكان إذا رأى السلطان ذلك الصنم استقبل بعض الجهات ومد الرمح نحوها[2]، علم أن بعض الخوارج يظهر من تلك الجهة فلا يطول الوقت حتى ترد عليه الأخبار بأن خارجيا قد نجم من تلك الجهة.

أما قصر الخلد فإنه بناه على دجلة، وإنما سمي الخلد تشبيها له بجنة الخلد، وما يحويه من كل منظر رائق، ومطلب فائق، وغرض غريب، ومراد عجيب، وكان موضعه وراء باب خراسان.

ومد المنصور قناة من نهر دجيل الآخذ من دجلة، وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات، وجرهما إلى مدينته في عقود وثيقة من أسفلها، محكمة

(١) بتعبير آخر: الطابق الأرضي ارتفاعه عشرون ذراعا، فوقه قبة داخلية ارتفاعها عشرون ذراعًا، ثم طابق ثانٍ ارتفاعه عشرون ذراعًا، فوقه قبة خارجية ارتفاعها عشرون ذراعًا، فيكون مجموع الارتفاع ثمانين ذراعًا.

(٢) يظهر أنه استعان بالمنجمين والسحرة والطلاسم والجن والمردة والشياطين لمثل هذه الأمور، وقد أنكر ياقوت الحموي هذه الفقرة وادعى كذبها منزهًا ساحة المنصور عن الاستعانة بمثل هؤلاء، رغم ثبوت اعتماده وسائر خلفاء بني العباس على المنجمين!

بالصاروج[١] والآجر من أعلاها، فكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرباض، وتجري صيفا وشتاء لا ينقطع ماؤها في وقت.

والكلام في عمارة بغداد أطول من ذلك، وفي وصف قصور العباسيين ما لا يسعه مقامنا بل له تصنيفاته الخاصة[٢]، لكنني أظن ما نقلته موجزًا يصوّر شيئًا عن حال حكام بني العباس وحضارتهم وحياتهم، وإلا فمازال المزيد من الوصف للأسواق والمدارس ودور العلم والمكتبات، والبساتين والأنهار وغيرها من مظاهر الحضارة، لكن حذر الإطالة أكتفي بنقل كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، قال: قد رأيت المدن العظام، والمذكورة بالإتقان والإحكام، بالشامات وبلاد الروم وفي غيرهما من البلدان، لم أر مدينة قط أرفع سمكا، ولا أجود استدارة، ولا أنبل نبلا، ولا أوسع أبوابا، ولا أجود فصيلا، من الزوراء، وهي مدينة أَبِي جعفر المنصور، كأنما صبت في قالب وكأنما أفرغت إفراغا.

وروى الخطيب البغدادي أيضًا إن بغداد صوّرت لملك الروم[٣] أرضها وأسواقها وشوارعها وقصورها وأنهارها غربيها وشرقيها، وأن الجانب الشرقي

---

(١) الصاروج: مادة عازلة للماء، تتكون من النورة وأخلاطها وتطلى بها الحياض ونحوها.

(٢) راجع: دليل خارطة بغداد المفصل د. مصطفى جواد، د. أحمد سوسة، وأيضًا: خطط بغداد مكسمليان شتريك، ترجمة د. خالد إسماعيل علي. وقد ألحقنا في نهاية الكتاب خريطة تقريبية لمدينة بغداد آنذاك.

(٣) من الواضح اهتمام النصارى بفنون التصوير والرسم وصناعة التماثيل، خلافا للموقف الإسلامي.

منها لما صورت شوارعه، فصور شارع الميدان وشارع سويقة نصر بن مالك، من باب الجسر إِلَى الثلاثة الأبواب والقصور التي فيه، والأسواق والشوارع من سويقة خضير إِلَى قنطرة البردان، فكان ملك الروم إذا شرب دعا بالصورة، فيشرب على مثال صورة شارع سويقة نصر، ويقول: لم أر صورة شيء من الأبنية أحسن منه.(١)

فإذا انطبعت الصورة جيدًا في ذهنك، وتصورت مشهد بغداد فاعلم أن الحضارة الإسلامية تركت بصمتها في قلب بيزنطة، فذكروا أن الامبراطور ثيوفيلوس(٢) أظهر حماسة شديدة لفنون العرب وثقافاتهم والعلوم العربية(٣)، وكانت فترته هي فترة ذروة التأثر البيزنطي بالعالم الإسلامي(٤)، وكأن تأثره بحضارة المسلمين أدعى لحربه على الأيقونات(٥)، فإن قوام الفن عند المسلمين لم يكن على التماثيل والصور، بل حرّم جملة من فقهاء المسلمين تصوير ذوات الأرواح -بل ربما التصوير مطلقًا- هذا في غير دور العبادة، أما في دور العبادة فإنه

(١) إلى هنا تم ما نقلته عن تاريخ بغداد بالمعنى.

(٢) ملك الروم ٨٢٩ إلى ٨٤٢م، أي: ٢١٤ إلى ٢٢٨هـ

وهو الإمبراطور الثاني في الأسرة العمورية، وقعت في عهد معركة عمورية المشهورة بين المسلمين والروم، وهو والد الإمبراطور ميخائيل الثالث الذي كانت في زمنه حادثة السيدة نرجس عليها السلام.

(٣) تاريخ الإمبراطورية البيزنطية محمد محمد مرسي الشيخ ١٦٤-١٦٥

(٤) الدولة البيزنطية د. السيد الباز العريني ص٢٧٤

(٥) يأتي الحديث عن الأيقونات ضمن الحديث عن الصراعات الداخلية في بيزنطة.

أدعى للنهي عن التصوير، ففي الكافي الشريف يسأل الراوي أبا جعفر الباقر عليه السلام عن الصلاة في المساجد المصورة، فقال عليه السلام: أكره ذلك[1].

فكانت قصور المسلمين مظهرًا جديدا من العمارة تأثر به ثيوفيلوس -كما أن المسلمين تأثروا بالروم فاستوردوا التماثيل والصور- وقد عنى ثيوفليس بالبناء فشيّد قصرًا جديدا في القسطنطينية ضاهى به قصر المأمون وفاقه زخرفا وجمالا[2].

وكان في قصر المأمون دارا تسمى دار الشجرة، فيها شجرة في وسط بركة كبيرة، مدورة فيها ماء صاف، وللشجرة ثمانية عشر غصنا، لكل غصن منها شاخات[3] كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشجرة فضة، وبعضها مذهب، وهي تتمايل في أوقات، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر[4].

---

(١) الكافي ٣/ ٣٦٩

(٢) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، أسد رستم ص٢٨٩

(٣) فارسية معربة، ومعناه فروع.

(٤) تاريخ بغداد ١/ ٤٢٢

وقصر المأمون، هو القصر الذي بناه جعفر البرمكي فعرف بالقصر الجعفري ثم أهداه البرمكي إلى المأمون فعرف بالقصر المأموني، ثم إن المأمون لما تزوج بوران بنت الحسن بن سهل أهداه للحسن بن سهل فعرف بالقصر الحسني، ثم انتقل القصر إلى الخلفاء بعد ذلك المعتمد والمعتضد.

راجع: بغداد مدينة السلام، طه الراوي، ص٨٤

ومما ذكره المؤرخون أن ثيوفيلوس وضع في قصره شجرة ذهبية تغرد فيها تماثيل الطيور بشكل ميكانيكي[١].

لقد جئنا بهذه الصورة من صور تاريخ الحضارات لأن رواية الشيخ الصدوق رحمه الله ذكرت أن السيدة نرجس عليها السلام كانت قد تعلمت العربية في بيزنطة قبل تنكرها بزي الخدم وخروجها من قصر جدها القيصر. وإن هذا المشهد التاريخي منسجم مع طبيعة الحضارة في القرن التاسع الميلادي، فإن العلوم الإسلامية قد بلغت ذروتها وكان لزاما على سائر الأمم أن تتعلم الحضارات المتقدمة أو الموازية، كما تفعل الأمم اليوم، فإن أبناء الملوك يتعلمون فيما يتعلمون[٢] لغات الأمم المتقدمة.

ثم إن النصارى قد اطلعوا على القرآن ودرسوه وعلموا ما فيه وما احتواه من مناقشات لعقائد النصارى، ورغم أن يوحنا الدمشقي (٧٤٩م - ١٣٢هـ) كان ترجم بعض آيات القرآن في عصر الدولة الأموية إلى اليونانية إلا أنها لا تعد ترجمة كاملة للقرآن وإنما مجرد مناقشات لبعض العقائد الإسلامية، أما أول ترجمة

---

(١) راجع:

John Bagnell Bury, A History of the Eastern Roman Empire, from the Fall of Irene to the Accession of Basil I, 164

(٢) وتعلم اللغات لا يلزم استخدامها في المحافل الرسمية، فإن البروتوكل أن يتحدث كل شخصية بلغته الرسمية التي تمثل بلده، ثم يقوم المترجم بالترجمة للطرفين.

وعليه فإنك لو قرأت في التاريخ أن أحد الخلفاء أو القياصرة استعان بالمترجم فإنه لا يلزم جهله بلغة الطرف المقابل.

فعلية للقرآن فإنها ترجع إلى القرن التاسع الميلادي، وقد ترجم إلى اليونانية، وكان ذلك في فترة النهضة الثقافية وتأسيس الجامعات والمدارس في القسطنطينية، وهذه تعتبر أقدم ترجمة كاملة للقرآن الكريم إلى لغة غير العربية، وهي التي كانت بين يدي نيقتاس البيزنطي[1].ثم إن الأوضاع الداخلية عندهم حين اضطربت في صراع الأيقونات -في نفس الحقبة التاريخية التي نحن فيها- بثوا في أوساط المسلمين فتنة خلق القرآن؛ وذلك ما لم يكن بوسعهم لولا الدراسة الكاملة للقرآن والحضارة الإسلامية.

وأضف إلى ذلك فإنه وفي نهاية القرن السابع الميلادي مع الفتوحات الإسلامية بدأت اللغة العربية تحل محل السريانية في بعض بلاد النصارى، لاسيما عند النصارى الملكانيين[2]، كما نشطت حركة الترجمة اليونانية العربية فترجم يوحنا بن البطريق كتب أرسطو وبطليمس وأفلاطون، وغير ذلك من أنشطة ترجمة

(١) هناك بحوث كثيرة تناقش ترجمة القرآن إلى اليونانية في القرن التاسع، واعتمدنا في هذه المعلومات على بحث أكاديمي كتب في جامعة عين شمس في القاهرة بعنوان: البيزنطيون وترجمة القرآن الكريم إلى اليونانية في القرن التاسع الميلادي، أ.د. طارق منصور.

كما أن هذا الموضوع بحث بعدة لغات ولكننا آلينا الاكتفاء بالاقتباس من المصادر العربية ما أمكن.

(٢) الملكانية هو المذهب الرسمي لحكام الروم وجملة من النصارى في العالم. ولا أعني أن اللغة في بيزنطة صارت عربية، وإنما المقصود أن النصارى الملكانيين في الشام وأرمينيا وغيرهم حلت اللغة العربية محل السريانية عندهم، أما في بيزنطة فإن اليونانية كانت هي الغالبة بلا شك.

حيوية في ذلك العصر[١].

وحين يصل المؤرخون إلى ذكر ترجمة الأسقف الأعظم فوتيوس[٢] يتحدثون عن أهم مؤلفاته الميريوبيبلون (أو: المكتبة) وهو مصنف يصف مائتين وتسعة وسبعين من الكتب اليونانية، مع تحليل لمضموناتها، واقتباس نصوص طويلة منها، ويناقشون إن كان لهذا المصنَّف صلة بعملية التبادل الثقافي بين الدولة الإسلامية والبيزنطية، سيما أنه تزامن تصنيف هذا الكتاب مع رحلته إلى بغداد في سفارة رسمية من بيزنطة إلى بغداد[٣]، كما يحكي لنا التاريخ عن وفود إسلامية إلى القسطنطينية ضمن عملية التبادل الثقافي الإسلامي البيزنطي في تلك الحقبة[٤].

أي أن النهضة العلمية في بغداد واكبها تبادل ثقافي واسع، وتأثر من الطرفين كلٌّ بالآخر، وكان من أدوات هذا التبادل أسرى الحروب، خصوصًا أن بعض أسرى الروم أسلموا في البلاد الإسلامية، كما تنصر بعض أسرى المسلمين،

(١) موسوعة عالم الأديان ج٩ الكنيسة البيزنطية الأرثوكسية ص١٠٠

(٢) وهو كبير الأساقفة وقت حادثة السيدة نرجس عليها السلام وزفافها الذي لم يتم في قصر القيصر.

(٣) راجع الموسوعة الفلسفية لعبد الرحمن بدوي ج٣ (الملحق) ص٢١٢

(٤) ذكر ابن النديم في الفهرست ص٣٠١: فإن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما من مختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم: الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلما صاحب بيت الحكمة، وغيرهم، فاخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله، فنقل...

فكانت هذه إحدى وجوه التبادل الثقافي بين الحضارتين[١].

والخلاصة أنه كان متعارفًا في ذلك العصر أن على المتعلم والمثقف في بلاد الروم دراسة العربية، كما على المثقف والمتعلم العربي أن يدرس الإغريقية وعلومها، فإن العرب كانوا رواد حضارة كبرى وما كان لهم أن يبنوا حضارتهم دون اطلاع على نتاج حضارات الأمم الأخرى.

وأما الروم فإنها ترى في العرب خصمًا متمكنا قويًّا متقدمًا علميًّا وعسكريًّا، يمتلك موقعًا جغرافيًّا حساسًا يتوسط حضارات الشرق والغرب، ما جعله يجمع ما تشتت من موروثات ثقافية ويترجمها إلى العربية، وإن الكتب والمصنفات التي جمعها المنصور الدوانيقي في قصره حتى ضاق القصر دعا هارون إلى بناء بيت الحكمة كمكتبة ضخمة امتلأت خزائنها بالمصنفات العلمية في مختلف العلوم حتى شكلت رافدًا علميًّا متفوقًا في ذلك العصر.

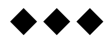
أي أن المتعلم أينما كان لم يكن بوسعه تجاوز الموروث العلمي العربي، فكان من الطبيعي انتشار العربية في المؤسسات العلمية البيزنطية، سيما مع النهضة العلمية التي شهدها عصر ميخائيل الثالث بإدارة خاله القيصر باراداس.

بناء على هذه المقدمات سيكون الوجه واضحًا في ما رواه بشر النخاس عن لسان السيدة نرجس عليها السلام أنها قالت: بلغ من ولوع جدي وحمله إياي على تعلم

---

(١) للتفصيل راجع: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، ج٣ في الاتصال الحضاري.

الآداب أن أوعز إلى امرأة ترجمان له في الاختلاف إلي، فكانت تقصدني صباحًا ومساءً، وتفيدني العربية حتى استمر عليها لساني واستقام.



أبو أيوب الأنصاري

خَالِدُ بنُ زَيْدِ بنِ كُلَيْبِ بنِ ثَعْلَبَةَ بنِ عَبْدِ عَمْرٍو بنِ عَوْفِ بنِ غَنْمِ بنِ مَالِكِ بنِ النَّجَّارِ بنِ ثعلبة بن الخزرج، المعروف بأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، بايع النبي في عقبة منى في ذي الحجة بمكة والمعروفة ببيعة العقبة الثانية، مع سبعين من أهل المدينة (الأنصار) على أن ينصروه، وهي البيعة التي على إثرها هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة في شهر ربيع الأول، أي بعدها بثلاثة أشهر.

واختص من دون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضيلة، وهي أنه لما ورد النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال له أهل المدينة: ادْخُلِ المَدِيْنَةَ رَاشِداً مَهْدِيّاً، فَدَخَلَهَا وَخَرَجَ النَّاسُ يَنْظُرُوْنَ إِلَيْهِ، وكُلَّمَا مَرَّ عَلَى قَوْمٍ قالوا: يا رسول الله ههنا. فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: دَعُوْهَا (الناقة) فَإِنَّهَا مَأْمُوْرَةٌ. حَتَّى بركت على باب أبي أيوب رضي الله عنه فنزل النبي صلى الله عليه وسلم في دار أبي أيوب وأقام عنده عدة أشهر حتى بنيت داره وبني المسجد.

وكان رضي الله عنه مع زوجته أم أيوب يتبركان بفاضل طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمان[1] موضع أصابع النبي في الطعام حين يرفع، ليأكلاه، وكان أول ما نزل النبي صلى الله عليه وسلم في داره في الطابق الأسفل وأبو أيوب في الطابق الأعلى، ثم إن أبا أيوب استحيى وقال للنبي: يا رسول الله لا ينبغي أن نكون فوقك، انتقل إلى الغرفة[2]، ثم نقل متاعه إلى الأعلى.

---

(١) يتيمان: يتقصدان ويطلبان.

(٢) الحجرة في الطابق الأعلى تسمى غرفة، وفي الطابق الأسفل تسمى بيتًا.

ثم إنه رحمه الله شهد بدرًا وأحدا والأحزاب، بل المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وآله، كما شهد مع أمير المؤمنين عليه السلام حروبه الثلاثة فنصره في قتال القاسطين والناكثين والمارقين.

وشارك في المرابطة والجهاد على الثغور الإسلامية في نصرة الإسلام وتبليغه إلى الأمم، وذلك حين خرج إلى القسطنطينية وشارك في حصارها أيام خلافة معاوية بن أبي سفيان[1] وكان كبيرًا في السن فمرض ومات قريبًا منها، وكان أميرُ الجيش من قبل معاوية ولده يزيد -رغم أن أبا أيوب كان حربًا لمعاوية ويزيد إلا أنه كان من دأب جملة من أصحاب الأئمة عليهم السلام الخروج للدفاع عن بيضة الإسلام وتقوية الدين- فلما حضرت الوفاة أبا أيوب أوصى المسلمين وقال: إِذَا مِتُّ فَاحْمِلُوْنِي، فَإِذَا صَافَفْتُمُ العَدُوَّ فَارْمُوْنِي تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ. وعاده يزيد بن معاوية، فَقَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ؟ قَالَ: مَا ازْدَدْتُ عَنْكَ وَعَنْ أَبِيْكَ إِلَّا غِنَىً، إِنْ شِئْتَ أَنْ

(١) روى الذهبي في سير أعلام النبلاء أنه قَدِمَ أَبُو أَيُّوْبَ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى السَّرِيْرِ، وَحَادَثَهُ وَقَالَ: يَا أَبَا أَيُّوْبَ، مَنْ قَتَلَ صَاحِبَ الفَرَسِ البَلْقَاءِ الَّتِي جَعَلَتْ تَجُوْلُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: أَنَا؛ إِذْ أَنْتَ وَأَبُوْكَ عَلَى الجَمَلِ الأَحْمَرِ، مَعَكُمَا لِوَاءُ الكُفْرِ، فَنَكَّسَ مُعَاوِيَةُ، وَتَنَمَّرَ أَهْلُ الشَّامِ وَتَكَلَّمُوا، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: مَهْ، وَقَالَ: مَا نَحْنُ عَنْ هَذَا سَأَلْنَاكَ.

وروى أيضًا أنه دَخَلَ أَبُو أَيُّوْبَ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَقَالَ: صَدَقَ رَسُوْلُ اللهِ، سَمِعْتُهُ يَقُوْلُ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، إِنَّكُم سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا. فَبَلَغَتْ مُعَاوِيَةَ فصدَّقه فَقَالَ: مَا أَجْرَأَهُ لا أكلمه أبدًا! ولا يئويني وَإِيَّاهُ سَقْفٌ.

وهذه الأخبار وما أوردنا في المتن كلها تؤكد على ولائه لأمير المؤمنين عليه السلام وأنه كان حربًا لحربه.

تَجْعَلَ قَبْرِي مِمَّا يَلِي العَدُوَّ.. أي أنه طلب أن يدفن في أقرب نقطة من حصون القسطنطينية.

وقُبر فعلا مع سور القسطنطينية في أصل حصن الروم[١]، وَبُنِي عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا، قَالَتِ الرُّوْمُ: يَا مَعْشَرَ العَرَبِ، قَدْ كَانَ لَكُمُ اللَّيْلَةَ شَأْنٌ. قَالُوا: مَاتَ رَجُلٌ مِنْ أَكَابِرِ أَصْحَابِ نَبِيِّنَا وَاللهِ لَئِنْ نُبِشَ لاَ ضُرِبَ بِنَاقُوْسٍ فِي بِلاَدِ العَرَبِ[٢]. وكان الرُّوْم يَتَعَاهَدُوْنَ قَبْرَهُ وَيَسْتَسْقُوْنَ بِهِ، وكَانُوا إِذَا قَحَطُوا، كَشَفُوا عَنْ قَبْرِهِ فَأُمْطِرُوا.[٣]

فضلا عن ما تقدم مما روته العامة والخاصة فإن الشيخ الصدوق رحمه الله روى له موقفًا مهما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله في خبر مفصل، عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: كَانَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ جُلُوسَهُ فِي الْخِلَافَةِ وَتَقَدُّمَهُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ وَالْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وَأَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ وَسَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَبُرَيْدَةُ الْأَسْلَمِيُّ، وَكَانَ مِنَ الْأَنْصَارِ خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ وَسَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَأَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ وَأَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ

---

(١) وقبره معروف اليوم في الجانب الأوربي من أسطنبول، وعليه مسجد اسمه: مسجد السلطان أيوب.

(٢) تهديد بهدم جميع كنائس النصارى في البلاد الإسلامية إن مُس قبر أبي أيوب بسوء.

(٣) للمزيد في سيرة أبي أيوب راجع سير اعلام النبلاء ٤/ ٥٢ واكتفينا بالنقل من مصدر واحد لشهرة أخباره رحمه الله.

التَّيِّهَانِ، وَغَيْرُهُمْ.

فَلَمَّا صَعِدَ الْمِنْبَرَ تَشَاوَرُوا بَيْنَهُمْ فِي أَمْرِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ هَلَّا نَأْتِيهِ فَنُنَزِّلَهُ عَنْ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالَ آخَرُونَ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ أَعَنْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَ: (وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) وَلَكِنِ امْضُوا بِنَا إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام نَسْتَشِيرُهُ وَنَسْتَطْلِعُ أَمْرَهُ.

فَأَتَوْا عَلِيّاً عليه السلام فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ضَيَّعْتَ نَفْسَكَ وَتَرَكْتَ حَقّاً أَنْتَ أَوْلَى بِهِ وَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ نَأْتِيَ الرَّجُلَ فَنُنْزِلَهُ عَنْ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِنَّ الْحَقَّ حَقُّكَ وَأَنْتَ أَوْلَى بِالْأَمْرِ مِنْهُ فَكَرِهْنَا أَنْ نُنْزِلَهُ مِنْ دُونِ مُشَاوَرَتِكَ، فَقَالَ لَهُمْ عَلِيٌّ عليه السلام: لَوْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ مَا كُنْتُمْ إِلَّا حَرْباً لَهُمْ وَلَا كُنْتُمْ إِلَّا كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ أَوْ كَالْمِلْحِ فِي الزَّادِ، وَقَدِ اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ التَّارِكَةُ لِقَوْلِ نَبِيِّهَا وَالْكَاذِبَةُ عَلَى رَبِّهَا وَلَقَدْ شَاوَرْتُ فِي ذَلِكَ أَهْلَ بَيْتِي فَأَبَوْا إِلَّا السُّكُوتَ لِمَا تَعْلَمُونَ مِنْ وَغْرِ صُدُورِ الْقَوْمِ وَبُغْضِهِمْ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ عليهم السلام، وَإِنَّهُمْ يُطَالِبُونَ بِثَارَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَاللهِ لَوْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ لَشَهَرُوا سُيُوفَهُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِلْحَرْبِ وَالْقِتَالِ كَمَا فَعَلُوا ذَلِكَ حَتَّى قَهَرُونِي وَغَلَبُونِي عَلَى نَفْسِي وَلَبَّبُونِي وَقَالُوا لِي بَايِعْ وَإِلَّا قَتَلْنَاكَ، فَلَمْ أَجِدْ حِيلَةً إِلَّا أَنْ أَدْفَعَ الْقَوْمَ عَنْ نَفْسِي وَذَاكَ أَنِّي ذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا عَلِيُّ إِنَّ الْقَوْمَ نَقَضُوا أَمْرَكَ وَاسْتَبَدُّوا بِهَا دُونَكَ وَعَصَوْنِي فِيكَ فَعَلَيْكَ بِالصَّبْرِ حَتَّى يَنْزِلَ الْأَمْرُ، أَلَا وَإِنَّهُمْ سَيَغْدِرُونَ بِكَ لَا مَحَالَةَ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ سَبِيلًا إِلَى إِذْلَالِكَ وَسَفْكِ دَمِكَ، فَإِنَّ الْأُمَّةَ سَتَغْدِرُ بِكَ بَعْدِي كَذَلِكَ أَخْبَرَنِي جَبْرَئِيلُ عليه السلام عَنْ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَلَكِنِ ائْتُوا الرَّجُلَ فَأَخْبِرُوهُ بِمَا سَمِعْتُمْ مِنْ نَبِيِّكُمْ وَلَا تَجْعَلُوهُ فِي الشُّبْهَةِ مِنْ أَمْرِهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَأَزْيَدَ وَأَبْلَغَ فِي عُقُوبَتِهِ إِذَا أَتَى رَبَّهُ وَقَدْ عَصَى نَبِيَّهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ.

قَالَ: فَانْطَلَقُوا حَتَّى حَفُّوا بِمِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ جُمُعَةٍ، فَقَالُوا لِلْمُهَاجِرِينَ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بَدَأَ بِكُمْ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ: ﴿لَقَدْ تابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ﴾ فَبِكُمْ بَدَأَ... وأورد الخبر واعتراضهم على الخليفة.

إلى أن قال: ثُمَّ قَامَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: اتَّقُوا اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ، وَرُدُّوا هَذَا الْأَمْرَ إِلَيْهِمْ فَقَدْ سَمِعْتُمْ كَمَا سَمِعْنَا فِي مَقَامٍ بَعْدَ مَقَامٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ أَوْلَى بِهِ مِنْكُمْ ثُمَّ جَلَسَ...

وتكلم جماعة من الأصحاب أيضًا، ثم إن أبا بكر جلس في بيته ثلاثة أيام بعد هذه الحادثة ولم يخرج إلا بحراسة مشددة تحوطه السيوف، ثم لم يعترض عليه أحد بعدها.[1]

وذكروا أن لأبي أيوب من الولد: محمد، وعبد الله، ومالك، وخالد، وعبد الرحمن، وعميرة، وعمرة، وعفراء أبناء أبي أيوب الأنصاري[2]. وذريته

(١) راجع الخصال، أبواب الاثني عشر حديث ٤

(٢) أشار سماحة الشيخ علي الكوراني في مقال له بعنوان: (رسالة حول والدة الإمام المهدي صلوات الله عليه) إلى أسماء أولاد أبي أيوب رحمه الله بالمصادر، وإنما أغفلنا ذكر المصادر لسهولة البحث عنها في شبكات البحث فرجحنا الاختصار.

معروفة، قال ابن عبد البر: ولأبي أيوب عقب[1]؛ ومن ذريته العلماء ورواة الحديث ذكرتهم كتب الرجال والتراجم، وماتزال ذريته موجودة إلى يومنا هذا[2].

وإنما جئنا بهذا التقديم لأن بعض المشككين كذّبوا الخبر لأن راويه المباشر هو: (بشر بن سليمان النخاس من ذرية أبي أيوب الأنصاري)، وقال من كذّب الخبر أن أبا أيوب لا ذرية له وهذا الراوي مجهول فكيف تقبل روايته؟! معتمدًا في ذلك على قول ابن سعد في الطبقات بأن نسله انقرض حيث قال: وقد انقرض ولده فلا نعلم له عقبا.[3]

وكان جديرًا أن يُنسب الخطأ لابن سعد صاحب الطبقات فإنه هو من لا يعلم عقب أبي أيوب رحمه الله وهذه كتب الحديث مليئة بأسماء ذريته من رواة الحديث، فإن قوله واضح البطلان لا وجه للاعتماد عليه!

ثم إنني لا أرى مصادفة في أن يُنتَخب رجل من ولد هذا الصحابي الجليل

---

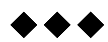
(١) الاستيعاب ٤/ ١٦٠٦

(٢) ومن ذريته: من رواة الحديث: بشير بن عبد الله بن أبي أيوب الأنصاري، وأَيُّوب بْن خَالِد بْن أَبِي أَيُّوب الأَنْصارِيّ، ومنهم أيضًا: القاسم بن عُمَر بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَالِكٍ بْنُ أَبِي أَيّوب الأنصاريّ (حدَّث ببغداد في سنة أربعٍ وعشرين ومائتين). ومن ذريته أيضًا من الأعلام: شيخ خراسان وأحد كبار الحنابلة في عصره أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي (٤٨١هـ). ومنها أيضًا: قاضي الشافعية في المبرز من الأحساء المتوفى ١٣٩١ه، صاحب كتاب تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، وقد أشار فيه إلى انتسابه إلى أيوب حين ترجم لجده الخامس في الكتاب.

(٣) الطبقات الكبرى ٣/ ٣٦٩

في هذه المهمة فإن الإمام الهادي عليه السلام حين اختاره بيّن العلة في انتخابه؛ قائلا: يَا بِشْرُ إِنَّكَ مِنْ وُلْدِ الْأَنْصَارِ وَهَذِهِ الْوَلَايَةُ لَمْ تَزَلْ فِيكُمْ يَرِثُهَا خَلَفٌ عَنْ سَلَفٍ، فَأَنْتُمْ ثِقَاتُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ وَإِنِّي مُزَكِّيكَ وَمُشَرِّفُكَ بِفَضِيلَةٍ تَسْبِقُ بِهَا شَأْوَ الشِّيعَةِ فِي الْمُوَالاةِ بِهَا؛ بِسِرٍّ أَطَّلِعُكَ عَلَيْهِ وَأُنْفِذُكَ فِي ابْتِيَاعِ أَمَةٍ.. إلى آخر ما رواه الصدوق رحمه الله في كمال الدين.

والذي أراه أن وجود قبر أبي أيوب في القسطنطينية قريبًا من قصور الأباطرة والقياصرة له دور في انتخاب رجل من وُلده يكون وسيطًا في هذا الشأن؛ لأن قبره[1] الذي كانت الروم تتعاهده وتستسقي به إذا أصابهم القحط هو النافذة الوحيدة من هذه البلاد للراغب إلى بلوغ بلاد الإسلام، أي أن فتاة تعيش وسط قصور بيزنطة تركت النصرانية سرًّا وهي راغبة بمغادرة بلادها لتلحق بالإمام من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله لن يكون لها خيار لتخرج من أجواء النصارى في قلب بلادهم سوى هذا المزار، فلعل لهذا ربطا بأن يحظى أحد ولده بهذا الشرف[2].



(١) يقع المرقد المبارك لأبي أيوب في مركز القسطنطينية قرب كاتدرائية آياصوفيا وسائر قصور البيزنطيين، وحين دفن كان مرقده على أسوار المدينة.

(٢) هذا مما استقربته، فلا تحمّل الكلام أكثر مما فيه من ذائقة واستحسان.

شمعون الصفا

القديس بطرس كما تسميه النصارى، ويسمى أيضًا سمعان وبيتر وكيفا، والمشهور عند المسلمين شمعون بن حمون، من ذرية نبي الله داود. وهو وصي نبي الله عيسى بن مريم على نبينا وآله وعليه السلام[١].

روى الشيخ الصدوق رحمه الله عن النبي ﷺ ضمن حديث: فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرْفَعَهُ (أي عيسى بن مريم) أَوْحَى إِلَيْهِ أَنْ يَسْتَوْدِعَ نُورَ اللهِ وَحِكْمَتَهُ وَعِلْمَ كِتَابِهِ شَمْعُونَ بْنَ حَمُّونَ الصَّفَا خَلِيفَتَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ؛ فَفَعَلَ ذَلِكَ. فَلَمْ يَزَلْ شَمْعُونُ يَقُومُ بِأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَحْتَذِي بِجَمِيعِ مَقَالِ عِيسَى عليه السلام فِي قَوْمِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيُجَاهِدُ الْكُفَّارَ فَمَنْ أَطَاعَهُ وَآمَنَ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ كَانَ مُؤْمِناً وَمَنْ جَحَدَهُ وَعَصَاهُ كَانَ

---

(١) قال الشيخ المفيد رحمه الله في مسار الشيعة في أحداث شهر ذي الحجة: وفي اليوم الثامن عشر سنة عشر من الهجرة عقد رسول الله ﷺ لمولانا امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام العهد بالإمامة في رقاب الأمة كافة وذلك بغدير خم عند مرجعه من حجة الوداع حين جمع الناس فخطبهم ووعظهم ونعى إليهم نفسه ﷺ ثم قررهم على فرض طاعته حسب ما نطق به القرآن، وقال لهم على إثر ذلك: من كنت مولاه فعلي مولاه... إلى أن قال رحمه الله: وفي هذا اليوم بعينه بايع الناس أمير المؤمنين عليه السلام بعد عثمان ورجع الأمر إليه في الظاهر والباطن واتفقت الكافة إليه طوعا واختيارا، وفي هذا اليوم فلج موسى بن عمران على السحرة واخزى الله تعالى فرعون وجنوده من أهل الكفر والضلال، وفيه نجى الله تعالى إبرهيم عليه السلام من النار وجعلها عليه بردا وسلاما كما نطق به القرآن، وفيه نصب موسى عليه السلام يوشع بن نون وصيّه ونطق بفضله على رؤوس الأشهاد، وفيه أظهر عيسى بن مريم عليه السلام وصيه شمعون الصفا، وفيه أشهد سليمان بن داود عليهما السلامساير رعيته على استخلافه آصف بن برخيا ودل على فضله بالآيات والبينات وهو يوم عظيم كثير البركات.

كَافِراً... الخبر[١]

وذكر المسعودي رحمه الله في إثبات الوصية[٢] أنه قام شمعون عليه السلام بأمر الله جل وعز وكان يفعل فعل المسيح يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ومعه الشيعة الصديقون فمن آمن به كان مؤمنا ومن جحده كان كافرا ومن شك فيه كان ضالّا، ووجّه شمعون عليه السلام بالحواريين الى البلدان يدعون الناس وكان المسيح عليه السلام وشمعون لا يبعثان إلى الروم بأحد إلّا قتل.

ثم إن النصارى اختلفوا بعد عيسى بن مريم في شمعون، وأكثرهم جحدوا حقه ولم يتبعوه، روى الشيخ الطبرسي رحمه الله في الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام: ..وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ؛ فِرْقَةً إِحْدَى وَسَبْعُونَ فِرْقَةً فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ بِالْجَنَّةِ وَهِيَ الَّتِي اتَّبَعَتْ شَمْعُونَ الصَّفَا وَصِيَّ عِيسَى عليه السلام.. الخبر[٣]

وكان شمعون أكبر من عيسى بعشر سنين، كان عيسى بن مريم لما رفع ابن ثلاث وثلاثين سنة، وكان شمعون يومها ابن ثلاث وأربعين سنة. وبعد محاولة قتل عيسى عليه السلام ورفعه إلى السماء صار شمعون تحت مراقبة السلطة الدينية

---

(١) كمال الدين ١/ ٢٢٥

(٢) إثبات الوصية ٨٤

(٣) الاحتجاج ١/ ٢٦٣ وراجع بحار الأنوار ٢٨ باب افتراق الأمة بعد النبي صلى الله عليه و آله

اليهودية، والرومانية من ورائها[1].

وقد استشهد رضوان الله عليه في الليلة التي استشهد فيها أمير المؤمنين عليه السلام، ومما ورد في ذلك أن هشام بن عبد الملك أشخص إمامنا الباقر عليه السلام إلى الشام فكان مما قال: يا أبا جعفر أشخصناك لنَسْألك عن مسألةٍ لم يصلح أنْ يسألك عنها غَيري، ولا أعلم في الأرض خَلْقاً ينبغي أنْ يعرف أو عرف هذه المسألة إن كان إلاّ واحداً... إلى أن قال هشام: أخبرني عن اللَّيلة الّتي قُتِل فيها عليُّ بن أبي طالب بما استدلَّ به الغائب عن المصر الَّذي قُتل فيه على قتله؟ وما العَّلامة فيه للنّاس؟ فإن علمتَ ذلك وأجبتَ، فأخبرني هَلْ كان تلك العَلامة لغير عليٍّ في قَتلِه؟[2] فقال له الإمام الباقر عليه السلام: يا أمير المؤمنين إنّه لّما كان تلك اللّيلة الّتي قُتِلَ فيها أمير المؤمنين عليه السلام لم يرفع عن وجه الأرض حَجَرٌ إلاّ وُجِدَ تحته دَمٌ عَبيط حتّى

---

(١) راجع شمعون الصفا للشيخ علي الكوراني العاملي حفظه الله ١١٦

(٢) الملفت في الحديث أن سؤالا مثل هذا بمثل هذه المقدمة لا يصدر عن شخص خالي الذهن، بل يصدر عمن سمع نحو هذا الخبر وعرف وأراد الاطمئنان، وخشي أن يكتب سؤاله ويبعثه عن طريق رسول فيشيع حديثٌ بفضل أمير المؤمنين عليه السلام. ثم إن إقامة الخليفة بين أهل الشام الذي يقتضي حالهم أنهم توارثوا خبر الآيات الكونية بعد مقتل شمعون ورأوا بأعينهم نفس الآية يوم مقتل أمير المؤمنين عليه السلام كل ذلك يقتضي أن يبقى التساؤل دائرًا في ذهنه للربط بين الأمرين.

وهي آية كونية يُستدل فيها على صدق دعوى صاحبها بأنه وصي، كما استدل القرآن على بطلان دعوى من لم تبك عليه السماء، قال تعالى فيما اقتص من خبر فرعون وقومه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾.

طلع الفَجر، وكذلك كانت الليلة الَّتي قتل فيها هارون أخو موسى، وكذلك كانتِ اللَّيلة التي قتل فيها يوشع بن نون، وكذلك كانتِ الليلة التي رفع فيها عيسى بن مَريم إلى السّماء، وكذلك كانتِ اللَّيلة الَّتي قتل فيها شَمعون بن حمون الصّفا، وكذلك كانت الليلة التي قتل فيها علي بن أبي طالب، وكذلك كانتِ اللَّيلة الَّتي قتل فيها الحسين بن عليٍّ.. الخبر[١]

وبعد بيان شيء من فضل شمعون الصفا لابد من الإشارة إلى ذريته المباركة فإننا إنما عقدنا هذا الباب لهذا الغرض حيث إن السيدة نرجس عليها السلام نسبت نفسها إلى شمعون الصفا من جهة الأم.

روى المسعودي رحمه الله في إثبات الوصية[٢] ما ملخصه: أنه لما حضرت شمعون الوفاة أوحى اللهّ إليه أن يستودع نور اللهّ والحكمة وجميع مواريث الأنبياء يحيى بن زكريا ففعل وأوصى وسلّم إليه ومضى. وقام يحيى بن زكريا بأمر اللهّ عز وجل، فلما أراد اللهّ عز وجل أن يقبضه إليه أوحى إليه أن يجعل الإمامة في ولد شمعون فأحضر ولد شمعون والحواريين من أصحاب عيسى وأمرهم باتباع منذر بن شمعون والتصديق لما يأتي به. وقام منذر بن شمعون بأمر اللهّ جل وعز واتبعه المؤمنون إلى أن حضرته الوفاة وأوحى اللهّ إليه أن يستودع نور اللهّ وحكمته ابنه سلمه بن منذر فأحضره وأوصى إليه وسلّم إليه. وقام سلمة بن منذر بأمر اللهّ

---

(١) كامل الزيارات ٧٨ والحديث طويل اقتطعنا منه موضع الشاهد.

(٢) راجع إثبات الوصية من الصفحة ٤٠

جل وعز واتبعه المؤمنون إلى أن حضرته الوفاة فأوحى اللهّ إليه أن يستودع نور اللهّ وحكمته ابنه برزة فأحضره وأوصى إليه. وقام برزة بن سلمة بأمر اللهّ جل وعز واتبعه المؤمنون إلى أن حضرته الوفاة، فأوحى اللهّ إليه أن يستودع ويوصي إلى أبي بن برزة ويستودعه النور والحكمة ففعل. وقام أبي بن برزة بأمر اللهّ جل وتقدّس وتبعه المؤمنون إلى أن حضرته الوفاة فأوحى اللهّ إليه أن يستودع نور اللهّ وحكمته ابنه دوس فأحضره وسلّم إليه. وقام دوس بن أبي بأمر اللهّ جل وعلا وتبعه المؤمنون إلى أن حضرته الوفاة وأوحى اللهّ إليه أن يستودع نور اللهّ وحكمته أسيد فأحضره وأوصى إليه. وقام أسيد بن دوس بأمر اللهّ جل وعزّ وتبعه المؤمنون إلى أن حضرته الوفاة فأوحى اللهّ إليه أن يستودع نور اللهّ وحكمته هوف فأحضره وأوصى إليه. وقام هوف بأمر اللهّ جل وعز وتبعه المؤمنون فلما حضرته الوفاة أوحى اللهّ إليه أن يستودع ما في يديه ابنه يحيى بن هوف فأحضره وأوصى إليه وسلّم إليه. وقام يحيى بن هوف عليه وعلى من تقدّمه السلام من النبيّين والأوصياء والأئمة أجمعين بأمر اللهّ جل جلاله الى أن حضرته الوفاة.

ويؤيد ما ذكره المسعودي في ذرية شمعون ما رواه الشيخ الطوسي والشيخ الصدوق والشيخ أبو القاسم الخزاز رحمهم الله عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال في ضمن حديث مفصل: ..وَأَوْصَى عِيسَى إِلَى شَمْعُونَ بْنِ حَمونَ الصَّفَا، وَأَوْصَى شَمْعُونُ إِلَى يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا، وَأَوْصَى يَحْيَى إِلَى مُنْذِرٍ، وَأَوْصَى مُنْذِرٌ إِلَى سُلَيْمَةَ، وَأَوْصَى

سُلَيْمَةُ إِلَى بُرْدَةَ.. الخبر[١]

ثم إن إغفال ذرية شمعون في تراث النصارى ليس أمرًا عفويًّا فإنهم انحرفوا عن وصي عيسى واتبعوا بولس الذي نصّر النصارى، فكان جديرًا أن تُغيّب ذرية شمعون، إلا أن ذريته باقية أدرك بعضهم أمير المؤمنين عليه السلام في منصرفه من صفين[٢]، ومن هذه الذرية والدة إمامنا الخلف عجل الله فرجه الشريف التي تنتسب إلى شمعون من جهة الأم.

ورغم ذلك فقد أشارت الأناجيل أن شمعون كان متزوجًا وله ولد، جاء في إنجيل متى: وَلَمَّا جَاءَ يَسُوعُ إِلَى بَيْتِ بُطْرُسَ، رَأَى حَمَاتَهُ مَطْرُوحَةً وَمَحْمُومَةً، فَلَمَسَ يَدَهَا فَتَرَكَتْهَا الْحُمَّى[٣]. أي أن شمعون (بطرس) كان متزوجًا وله حماة.

وجاء في رسائل بطرس: تُسَلِّمُ عَلَيْكُمُ الَّتِي فِي بَابِلَ الْمُخْتَارَةُ مَعَكُمْ، وَمَرْقُسُ ابْنِي[٤]. ولكن البعض أوّلها بأن مرقس مدين لبطرس في مسيحيته أو لعلاقة إنسانية وشخصية بينهما[٥].

ومرقس هذا معروف بمرقس البشير صاحب الإنجيل الثاني من

(١) أمالي الطوسي ٤٤٢، أمالي الصدوق ٤٨٨، ونحوه في كفاية الأثر ١٤٧ وفيه نص على أسماء الإثني عشر

(٢) راجع كتاب سليم بن قيس الهلالي ٢٥٢

(٣) إنجيل متى ٨/ ١٤

(٤) رسائل بطرس الأولى ٥/ ١٣

(٥) التفسير الحديث للكتاب المقدس ألان م. ستيبز، ترجمة نيكلس نسيم، ص١٧٢

الأناجيل الأربعة في العهد الجديد، وكونه يلقب بالبشير يناسب أن يكون له أخ يلقب بالمنذر كما جاء في الرواية.

على كل حال فإن ما أورده النصارى في مسألة ذرية شمعون ليس حجة علينا وإنما هو حجة عليهم فالمسألة ليست مسلّمة عندهم، وإنكار بعضهم زواج بطرس (شمعون) وإنكار أن يكون له ولد لا يعنينا فإننا نتهمهم بأن ذلك راجع إلى أمرين، الأول سلوك عبادي مرتبط بالرهبانية وترك التزويج، والثاني وهو الأهم جحدهم لحق شمعون وذريته، لذلك يكون من الطبيعي تغييب هذه الذرية من الأوصياء.

ثم إنه لا يخفى أن جملة من النصارى يفترون على شمعون الصفا وينسبون له أنه أول من قال بأن عيسى هو ابن الله، وشمعون بريء من هذه الفرية والحق أن الذي نصّر النصارى هو بولس لعنه الله، ولكن يهمنا في هذا المقام التنويه بالموقع الخاص لشمعون الصفا في الوجدان المسيحي.

إن شمعون يلقب عند النصارى بالصخرة (الصفا، بيتر، بطرس، كلها مرادفات للصخرة) وذلك أن شمعون حين قال حسب زعمهم للمسيح: (أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ)[1]، قال له المسيح عليه السلام: (أَنْتَ بُطْرُسُ، وَعَلَى هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا)[2]، وذكروا في شأنه أنه هو المكلف

(١) إنجيل متى ١٦/ ١٦

(٢) إنجيل متى ١٦/ ١٨

برعاية النصارى بعد المسيح حيث أوصاه قائلا: (ارْعَ خِرَافِي) و(ارْعَ غَنَمِي)[1] وغير ذلك مما يدل على موقعه الخاص في الوجدان المسيحي وتعلق النصارى به – حسب الظاهر، وإلا فقد انقلبوا عليه وعلى الأوصياء من ذريته واتبعوا بولس–، تجد ذلك في الأيقونات والتماثيل التي تنصب تمجيدًا له. ومن شواهد هذا الموقع في وجدان النصارى قضية ترتبط ببحثنا عن قرب.

وهي أن القيصر باراداس –وهو القيصر المعاصر لحادثة السيدة نرجس عليها السلام– كان على خلاف مع أسقف القسطنطينية أغناطيوس، فكان سببًا في عزله وتعيين فوتيوس بديلا عنه، صاحَب هذا الأمر جدل واسع في القسطنطينية، ومن ذلك رؤيا رآها باراداس، وحاصلها أنه رأى في المنام: أنه وبمعية الإمبراطور ميخائيل قد دخلا كنيسة آياصوفيا، وشاهد شمعون جالسا على العرش وبجانبه يقف شخصان مميزان. وقد جثا أغناطيوس البكّاء على قدمي شمعون متضرعا إليه راجيا إياه غارقا في بكائه، فشاركه شمعون بالنحيب والعويل، وعندما انتهى أغناطيوس من نقل معاناته الشديدة وشكايته على القيصر بارداس، التفت شمعون إلى الشخص الواقف على يمينه ملوحا بالخنجر الصغير معلنا حكمه على الملأ: أمسكوا بارداس –مبغض الرب– خارجا في الفناء الأمامي وقطعوه إربا إربا. ثم أعلن شمعون أن الإمبراطور ميخائيل سيتلقى ذات المصير المأساوي

(١) إنجيل يوحنا ٢١/ ١٥ و٢١/ ١٦

لخاله القيصر[1].

لا شك أن القيصر باراداس رأى شمعون الصفا في منامه قبيل وفاته فإن كثيرًا من مصادر التاريخ البيزنطي روت هذا الخبر، لكننا لا نعلم دقة ما نقل فيه من تفاصيل وإن كان بالفعل سبب غضب شمعون على باراداس هو شكاية أغناطيوس أو أن الأمر مختلف. لقد قتل القيصر بعد هذه الحادثة بفترة يسيرة ثم آلت الأمور إلى أعدائه، وقد كتب التاريخ أعداءه أتباع أغناطيوس.

مهما يكن من شك أو دقة في النقل فإن المهم أن نلتفت إلى أن النصراني إذا أراد أن يأتي بشخصية مهمة في المنام تشير إلى حادثة محورية في المجتمع فإن الشخصية المناسبة لذلك هو شمعون الصفا، فإن له موقعه الخاص في الوجدان المسيحي.

إن راوي الخبر مهما حاول الكذب والتلفيق فإن نخاسًّا يعيش في بغداد لا يتمكن من حبك حادثة منسجمة مع الذهنية المسيحية الخاصة التي لا يعرفها إلا نصراني يعيش في بيزنطة أو باحث متخصص في الفكر المسيحي. من أين عرف راوي خبر تزويج السيدة نرجس عليها السلام بالإمام العسكري عليه السلام هذه المكانة الخاصة لشمعون في الفكر المسيحي فتؤخذ بتوجيهاته وإرشاداته من عالم الرؤيا ثم تترك أثرها البالغ وترتب عليها سائر الآثار؟ ومن أين علم أن أميرة تعيش في قصر

---

(١) هذا المنام من المنامات المشهورة جدًّا (راجع رسمة هذا المنام في قسم الملاحق)، ومن المصادر التي نقلت هذا المنام: Niketas David, The Life of Patriarch Ignatius, 73-75

يمكنها أن تتخلى عن قصرها وتختار السبي كالجواري في زي الخدم تقطع الفرات بزورق لتصل إلى سوق النخاسة ببغداد معتمدة على رؤيا رأتها وأن شخصًا وعدها في عالم الرؤيا أنه سيتزوجها؟ هذا الإيمان العجيب بالمنامات والتجليات والإلهامات في الفكر المسيحي لا يعرفه كل أحد!

منام للقيصر وآخر لحفيدته؛ وهناك أم المسيح توحي ترنيمة الميلاد(١) من على منبر آياصوفيا(٢)، وقد اعتقد البيزنطيون أن العذراء تقيم معهم فى القسطنطينية من خلال أيقوناتها وتحميهم من شرور الشياطين، وانتشرت قصص معجزاتها، منها قصة تشير بعطف العذراء وحرصها على شعب مدينتها، ومؤداها أن فتاة مسها الشيطان لسبع سنوات، ومن خلال أيقونة العذراء تجسدت لها العذراء في رؤيا وقالت لها: إنني موجودة في القسطنطينية وأستطيع أن أصطحبك إلى كنيستي المقدسة كي أطهرك وأشفيك، لكنني أخشى أن تصاب أمك بحزن شديد إذا استيقظت ووجدت سريرك فارغًا، لذا سأعالجك وأنتِ في فراشك(٣).

---

(١) حكاية ترنيمة الميلاد ترجع إلى القديس رومانوس المرنم في القرن الخامس الميلادي حيث يزعم أن مريم العذراء أوحت له هذه الترنيمة في المنام. وهي: اليوم العذراء تلد الفائق الجوهر، والأرض تقرّب المغارة لمن هو غير مقترب إليه، الملائكة مع الرعاة يمجدون، لأنه ولد من أجلنا صبي جديد الإله الذي قبل الدهور. وما يزال النصارى يرددونها في كنائسهم.

(٢) العالم البيزنطي ج م هسى، ترجمة د. رأفت عبد الحميد ص٢٩٨

(٣) المجتمع البيزنطي ص١٦٦ تحت مقال بعنوان: الرفات والأيقونات في المعتقد الشعبي البيزنطي، للأستاذ مصطفى الشعيني

أما عمانوئيل عم ثيودورا كان لاأيقونيًّا متعصبًّا فمرض مرضًا شديدًا طويلا بسبب سوء معتقده كاد يقضي عليه لولا صلوات الكنيسة حتى قام من مرضه فصار أيقونيًّا متحمسًا، وكان اعتقاد الناس في القرن التاسع أن ما لاقوه من هزائم سابقة عقاب من الله بسبب تحطيم الأيقونات والصور[1].

وكانت الأحلام والرؤى هي التي توجه الأحداث وترشدها، فإن لاوون الخامس رأى في منامه أن ميخائيل العموري سيقتله، وامتنع يوحنا الثاني عن تتويج ابنه الأكبر بسبب أحد الأحلام، وحدث ذات مرة أن أم يوحنا كانتاكوزينوس كانت واقفة ذات ليلة في الشرفة بمنزلها الريفي تشهد طلوع القمر فحذرها شخص كالأشباح بأن ابنها في خطر[2].

إن سبك حادثة السيدة نرجس عليها السلام من الراوي بهذا التفصيل المتلائم مع الفكر المسيحي؛ تُخطب من شمعون الصفا فيزوجها، وتأمرها العذراء بدخول الإسلام في عالم الرؤيا، فتقبل كل ذلك، وتبذل كل ما تستطيع حتى تحقق ما رأته في منامها، كل ذلك أمارة على صدق المتن حتى مع فرض جهالة الراوي، فإن امتلاء الخبر بقرائن الصدق في كل سطر منه يدعو للوثوق بصحته، وتأتيك أمارات الصدق تباعًا بحوله تعالى.

◆◆◆

(١) الروم والمشرق العربي د. سيد أحمد الناصري ص٢٩٢، ص٢٩٤

(٢) الحضارة البيزنطية ستيفن رنسيمان، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ص٢٦٢

المذهب الملكاني

يعقد النصارى بين فترة وأخرى مجامع يتداولون فيها شؤون دينهم، يجتمع فيها رؤساء الكنيسة وخلفاء الرسل، أي الأساقفة؛ كان آخرها ما عقد في الفاتيكان بين عامي ١٩٦٢-١٩٦٥م حيث اجتمع أكثر ٢٦٠٠ أسقفا من مختلف أنحاء العالم، تمخض عن نتائج هامة، منها السماح باستخدام اللغات المحلية أثناء الصلاة وعدم التقيد باللاتينية.

وتعتبر حركات المجامع هذه من أهم الجوانب في فهم حياة النصارى وكيفية تنظيم أمورهم. وتكتسب المجامع قدسيتها مما رووه عن المسيح عليه السلام من أنه قال: حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي أكون هناك بينهم. فهم يجتمعون باسم المسيح ويتخذون القرارات باسم روح القدس وباسم الأساقفة الحضور.

وترجع جذور المجامع إلى ما عقد في أورشليم نحو عام ٥٠ للميلاد، وكانت قراراته مصيرية مستوحاة من روح القدس، ثم توالت المجامع بشكل غير منظم. إلى أن دخل الامبراطور الروماني قسطنطين الأول في النصرانية، وبدأت الإمبراطورية تتخلى عن الوثنية تدريجيًّا إلى أن صارت النصرانية هي الديانة الرسمية.

قرر قسطنطين الأول عقد مجمع مسكوني[1] يجمع فيه أساقفة المسكونة ليتداول بعض القضايا العقائدية التي كانت محل جدل آنذاك، وبدأ من حينها

(١) يجمع نصارى المسكونة كلها، أي كل نصارى الأرض.

عملية تنظيم المجامع عند النصارى، وصارت بعضها مجامع مسكونية تشمل كل فئات النصارى، وبعضها مجامع إقليمية أو خاصة بفئة معينة أي أنها لا تكون مسكونية.

والمجمع المسكوني الأول الذي عقده قسطنطين الأول سنة ٣٢٥م عرف باسم مجمع نيقيه[1] المسكوني، يعد من أهم المجامع المسكونية أهمية في التاريخ، حيث حسم أمر النزاع العقائدي في شأن المسيح وما قاله فيه آريوس بأن الابن ليس مساويًا للأب في الأزلية وليس من جوهره، وأن الأب كان في الأصل وحيدًا فأخرج الابن من العدم بإرادته، ما يعني أن النبي عيسى مخلوق، وأن الخالق لا يُرَى ولا يُكشَف حتى له؛ لأن الذي له بداية لا يعرف الأزلي، وما إلى ذلك مما يخالف عقيدة النصارى اليوم كانت محل جدل آنذاك، ثم إنه اختلف في آريوس إن كان موحدًّا أو أنه ادعى أن عيسى صار إلهًا بعد أن كان مخلوقا؟ والحقيقة أنه لا يمكن معرفة آراء آريوس بدقة لأنها أتلفت في حياته ولأنه حورب في حياته. غير أن هذا المجمع المسكوني عقد لمناقشة ما أثاره من آراء، وخلافا لقول آريوس تبنى الملك القول بأن الابن من جوهر الأب، أو أنه إله من إله، وأنه مولود غير مخلوق، وأنه مساوٍ للأب في الجوهر،[2] تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

---

(١) نيقيه: مدينة في الأناضول، تقع قرب مدينة بورصة في تركيا اليوم.

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع مؤلفات الأب ميشيل أبرص مع الأب أنطوان عرب، مثل: (مدخل إلى المجمعات المسكونية)، و(المجمع المسكوني الأول: نيقيا الأول)

لقد ساد في امبراطورية الروم هذا المعتقد الذي تبناه الأباطرة والملوك حتى أطلق عليه تسمية المذهب الملكاني[١]، أي أنه مذهب الملوك وأغلب النصارى عليه، في قبال مذاهب أخرى ظهرت متأخرة عنه كالنسطورية واليعاقبة[٢].

وذكر ابن كثير في تفسيره منشأ هذا المصطلح ورجوعه إلى مجمع نيقيه، حيث قال: ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولا. ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بطريق بتريك[٣] الإسكندرية في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم -وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة- وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافا لا ينضبط ولا ينحصر فكانوا أزيد من ألفين أسقفا فكانوا أحزابا كثيرة كل خمسين منهم على مقالة وعشرون على مقالة ومائة على مقالة وسبعون على مقالة وأزيد من ذلك وأنقص. فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلثمائة بثمانية عشر نفرا وقد توافقوا على مقالة فأخذها الملك ونصرها وأيدها وكان فيلسوفا داهية ومحق ما عداها من الأقوال وانتظم دست أولئك الثلثمائة والثمانية عشر وبنيت لهم الكنائس ووضعوا لهم كتبا وقوانين وأحدثوا فيها الأمانة

(١) وهي تسمية سريانية ومعناها أتباع الملك، ولا يخفى تشابه العربية والسريانية.

(٢) راجع الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٢٦٥

(٣) البتريك أو البطريك هو الأسقف.

التي يلقنونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويعمدونهم عليها وأتباع هؤلاء هم الملكانية.[١]

وذكر البعض[٢] أن هذه التسمية ترجع إلى المجمع المسكوني الرابع في خلقيدونية الذي دعى إليه الامبراطور مركانيوس[٣]، وانقسمت بعده الكنيسة إلى خلقيدونية يعتقدون بأن المسيح ذو طبيعة لاهوتية وناسوتية، ولا خلقيدونية يعتقدون بأن المسيح ذو طبيعة واحدة، وصار أتباع الملك ملكانيين.

والحقيقة أن القول المشهور من رجوع التسمية إلى قسطنطين الأول أو القول الثاني من رجوعها إلى مركانيوس كلها أقوال صحيحة لأن هذه الطائفة هم أتباع الملك، ولكن الأصل والجذر الرئيسي لها ما كان في مجمع نيقيه، والمجامع المسكونية التي دعا إليها الملوك والأباطرة[٤] كلها ركائز أساسية في الملكانية.

نحن نتحدث عن انحرافات النصارى وانقسامات مذاهبهم في حقبة بعيدة عن الإسلام زمانا ومكانًا، نتحدث عن أقصى الأرض قبل البعثة النبوية

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٦٠٤ في تفسير الآية ١٧١ من سورة النساء

(٢) المجتمع البيزنطي ص٦٢ تحت مقال بعنوان: التركيب العرقي والطبقي للمجتمع البيزنطي، للأستاذ المساعد محمد زايد عبد الله

(٣) راجع صبح الأعشى ١٣/ ٢٧٩ وذكر اسم الامبراطور معرّبًا إلى مركان، وعرّبه غيره إلى مرقان ومرقانيويس.

(٤) هناك مجامع لم يدع إليها الملوك، وهناك مجامع مختصة بكنائس الغرب دون الشرق (كمجمع الفاتيكان الأخير) وليست هي المقصودة في كلامنا.

المباركة بقرون، ونرى دقة في المباني الفلسفية لآراء النصارى أبطلها القرآن بعجيب بيانه وبليغ خطابه، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهَّ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهَّ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهَّ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُّ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهَّ وَكِيلاً﴾، وقالﭿ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَّ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرائيلَ اعْبُدُوا اللهَّ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهَّ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُّ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۞ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَّ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهَّ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، وقالﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهَّ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وهذه الآيات وغيرها مما تراه اليوم بديهيًّا كانت محل نزاع وصراع في مجامع النصارى أدى إلى انحرافهم عن الطريق المستقيم، وإن القارئ لهذه الآيات يستحيل أن يفهم أنها جاءت من أميّ يسكن في مكة بعيدًا عن مركز الحضارة، بل لابد أنها جاءت من شخص محيط بكل جدل دار في مجامع النصارى وخلاصة ما آلت إليه أقوالهم، ثم أبطلها بهذا الإيجاز، فإن الإله لا يكون محتاجًا إلى طعام، وإنّ خلق عيسى بغير أب كخلق آدم لا يدل على ألوهيته، وإن القول بالتثليث يلزم

الشرك على كل حال وإن أنكروا ذلك.

وهذا كله فضلا عن كونه مبطلا لحجج النصارى فإنه دليل على صدق نبوة النبيﷺ وإعجاز القرآن الكريم، ودليل على إحاطة النبي الخاتمﷺ بكل ما تقوله النصارى من براهين وإحاطته بمعاني الكلمة والروح وكيفية إلقائها إلى مريم، وما إلى ذلك من دلائل عظمة في نبيّنا صلى الله عليه وآله. جاء كل ذلك بإيجاز يوضح للعارف دقة المعاني القرآنية ووجوه الاحتجاج دون تعقيد لعامة الناس، فيفهم المختص أبعادًا عميقة، ويفهم العامي معاني إجمالية، وهذا من بليغ بيان القرآن وتيسير ذكره.

وهنا من المناسب إيراد ما ذكره القلقشندي في صبح الأعشى حيث قال: وحكي عن بعض كتّاب العراق أنه قال: أراد الفضل بن الربيع (يعني وزير الرّشيد) أن يستحلف كاتبه عونا النصراني، فلم يدر كيف يستحلفه. فقلت: ولّني استحلافه، قال: دونك، فقلت له: احلف بإلهك الذي لا تعبد غيره، ولا تدين إلّا له، وإلا فخلعت النّصرانيّة، وبرئت من المعمودية[1]، وطرحتَ على المذبح خرقة

(١) المعمودية رش الماء أو سكبه على الرأس أو الغمس في الماء ثلاث مرات، وهو من أهم أسرار الكنيسة ولا يمكن دخول النصرانية دون التعميد، والنصارى يعتقدون بالتعميد أشد الاعتقاد حتى أن عراب التعميد (الكاهن الذي يعمد النصارى) يكون أبًا روحيًّا للمعمَّد، وعليه فالذين يعمدهم عراب واحد يكونون إخوة والعراب أبوهم ولا يحل بينهم التزاوج بحكم قرابة التعميد فإنها لا تقل عن قرابة النسب!

حيضة يهوديّة[١]، وقلت في المسيح ما يقوله المسلمون إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ، وإلا فلعنك البطريك الأكبر، والمطارنة، والشّمامسة، والقمامسة، والدّيرانيّون، وأصحاب الصوامع عند مجتمع الخنازير وتقريب القربان، وبما استغاثت به النّصارى ليسوع، وإلّا فعليك جرم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفّا الذين خرجوا من نيقيه حتى أقاموا عمود النصرانية، وإلّا فشققت الناقوس[٢] وطبخت به لحم جمل وأكلته يوم الاثنين مدخل الصّوم، واتحمت من كل بركه يوما، ورميت الشاهد بعشرين حجرا جاحدا بها، وهدمت كنيسة لدّ، وبنيت بها كنيسة اليهود، وخرقت غفارة مريم وكهنونة داود، وأنت حنيف مسلم؛ وهذه اليمين لازمة لك ولعقبك من بعدك. وقال: فقال عون: أنا لا أستحلّ أن أسمع هذه فكيف أقولها! وخرج من جميع ما طالبه به الفضل، فأمر بها الفضل فكتبت نسخا وفرّقت على الكتّاب وأمرهم بحفظها وتحليف النصارى بها.[٣]

(١) مذبح الكنيسة شبه طاولة يوضع عليها ما يستخدم في القداس (الكأس، الصليب، درج البخور، القوارير، زيت الميرون...)، وتكون مجوفة من الداخل ليوضع فيها ذخائر الكنيسة، والنصارى يعظمون المذبح، والاقتراب منه ليس مسموحا للجميع، وينبهون على آداب التعامل مع المذبح وأنه يمنع على الكاهن أن يضع عليه أمتعته الشخصية مثل جهاز الموبايل، فإن ذلك مما يزري بقدسيته.

(٢) الناقوس جرس الكنيسة من أهم الرموز الدينية وقرعه يدل على وجود مناسبة عبادية، وهو نداء الرب وهو تهليل الكنيسة لبدء التسبيح لله.

(٣) صبح الأعشى ١٣/ ٢٩٠

هذا والحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي ومع ذلك فإن وزير الرشيد لا يعرف كيف يستحلف كاتبًا نصرانيًّا بما يحجزه عن الكذب، فيستعين بكاتب[1] من أهل العراق يعرف دقائق دين النصارى ليستحلفه بهذه الأيمان المغلظة في دينهم.

وقد أورد القلقشندي أيضًا طريقة أخرى لاستحلاف النصارى على اختلاف مذاهبهم قائلا: فأما الملكانيّة إنّ يمينهم: والله والله والله العظيم، وحقّ المسيح عيسى ابن مريم، وأمّه السّيدة مريم، وما أعتقده من دين النّصرانيّة، والملّة المسيحية. وإلّا أبرأ من المعمودية، وأقول: إن ماءها نجس، وإن القرابين رجس، وبرئت من مريحنّا المعمدان والأناجيل الأربعة، وقلت: إن متّى كذوب، وإن مريم المجدلانية باطلة الدّعوى في إخبارها عن السّيد اليسوع المسيح، وقلت في السيدة مريم قول اليهود، ودنت بدينهم في الجحود، وأنكرت اتّحاد اللّاهوت بالنّاسوت، وبرئت من الأب والابن وروح القدس، وكذّبت القسوس، وشاركت في ذبح الشّمامس، وهدمت الديارات والكنائس، وكنت ممّن مال على قسطنطين ابن هيلانا[2]، وتعمّد أمّه بالعظائم، وخالفت المجامع التي أجمعت الأساقفة بروميّة

---

(١) الكاتب من وظائف ذلك العصر ومن أعلى المناصب في الدولة، يقرن إلى جانب الوزير والقاضي وأمثالهم، لا يحظى به إلا من يملك مؤهلات خاصة من الفصاحة والبيان والثقافة العالية.

(٢) الإمبراطور قسطنطين الأول الذي دعا إلى مجمع نيقيه المسكوني الأول، وأمه هيلانا كانت السبب في دخوله النصرانية، أي أن هيلانا هي السبب في تحويل الروم من وثنيين إلى نصارى بسبب تربيتها لابنها قسطنطين الأول.

والقسطنطينيّة[١]، ووافقت البرذعانيّ[٢] بأنطاكية، وجحدت مذهب الملكانيّة، وسفّهت رأي الرّهبان، وأنكرت وقوع الصّلب على السّيّد اليسوع، وكنت مع اليهود حين صلبوه، وحدت عن الحواريّين، واستبحت دماء الدّيرانيّين، وجذبت رداء الكبرياء عن البطريرك، وخرجت عن طاعة الباب، وصمت يوم الفصح الأكبر، وقعدت عن أهل الشّعانين، وأبيت عيد الصّليب والغطاس، ولم أحفل بعيد السّيدة، وأكلت لحم الجمل، ودنت بدين اليهود، وأبحت حرمة الطّلاق، وخنت المسيح في وديعته، وتزوّجت في قرن بامرأتين، وهدمت بيدي كنيسة قمامة[٣]، وكسرت صليب الصّلبوت[٤]، وقلت في البنوّة مقال نسطورس[٥]، ووجّهت إلى الصّخرة وجهي، وصدّيت عن الشّرق المنير حيث كان المظهر الكريم، وإلّا برئت من النورانيين والشعشعانيين، ودنت غير دين النّصارى، وأنكرت أنّ السّيد اليسوع أحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، وقلت بأنّه

---

(١) إشارة إلى المجامع المسكونية التي عليها تبنى عقائد الملكانيين.

(٢) إشارة إلى صاحب مذهب النصارى اليعاقبة.

(٣) أعظم كنائس النصارى تقع داخل الأسوار القديمة في مدينة القدس، واسم كنيسة قمامة هو الشائع في المصادر العربية، أما النصارى فيسمونها كنيسة القيامة، لأن المسيح دفن فيها، ثم قامت قيامته منها وصعد إلى السماء.

(٤) صليب الصلبوت هي بقايا خشب الصليب الأصلي الذي صلب عليه السيد المسيح، ولايزال محفوظا في ذخائر كنائس النصارى وهو مقدس عندهم.

(٥) إشارة إلى النصارى النسطورية.

مربوب، وأنّه ما رؤي وهو مصلوب، وأنكرت أن القربان المقدّس على المذبح ما صار لحم المسيح ودمه حقيقة[١]، وخرجت في النصرانية عن لاحب الطريقة، وإلّا قلت بدين التّوحيد، وتعبدت غير الأرباب، وقصدت بالمظانيات غير طريق الإخلاص، وقلت: إنّ المعاد غير روحانيّ، وإن بني المعمودية لا تسيح في فسيح السماء، وأثبتّ وجود الحور العين في المعاد، وأن في الدار الآخرة التّلذّذات الجسمانية، وخرجت خروج الشّعرة من العجين من دين النّصرانية، وأكون من ديني محروما، وقلت إن جرجس لم يقتل مظلوما.[٢]

وهذا كله من خصائص الروم ودقائق معتقداتهم وما تبنته الملوك والأباطرة، والأساقفة من أتباعهم، وما لا يحيط بتفصيله عامة الناس لا في ذلك الزمن ولا هذا الزمن[٣]، وما جئنا بهذا التفصيل إلا لأنه شاهد على صدق بشر بن سليمان النخاس ودقة نقله، فمن أين عرف تمسك ملوك بيزنطة في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي بالملكانية، ورجوعهم عن انحرافات بعض من

---

(١) وهو ما يسميه النصارى سر الإفخارستيا، حيث يعتقدون أن القربان الذي يقدم على طاولة المذبح يتحول واقعًا إلى لحم المسيح ودمه، بل إن النصراني مستعد أن يراهنك على صحة معتقده وإن شئت فافحص الحمض النووي للخبز والخمر (القربان المقدس) تجده يرجع إلى المسيح! ويستحيل أن يناولوا هذا القربان شخصًا غير معمّد!

(٢) صبح الأعشى ١٣/ ٢٩١

(٣) حتى أن من كتب في الملل والنحل -رغم تخصصهم في ذلك- افتقرت كتاباتهم في كثير من الأحيان إلى الدقة.

سبقهم[1] تمسّكًا بقرارات المجامع المسكونية القديمة، فتكون حادثة تسافل الصلبان في قصر القيصر نذير شؤم بزوال الملكانية التي عادوا إلى التمسك بتفاصيلها توًّا؟!

فإن الراوي حين أورد خبر السيدة نرجس عليها السلام وما جرى في قصر القيصر حين عزم جدها على تزويجها من ابن أخيه، ذكر تسافل الصلبان وتقوض الأعمدة، ثم قال فيما حكاه عن السيدة نرجس عليها السلام في وصف الحدث: فَتَغَيَّرَتْ أَلْوَانُ الْأَسَاقِفَةِ وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُمْ فَقَالَ كَبِيرُهُمْ لِجَدِّي أَيُّهَا الْمَلِكُ أَعْفِنَا مِنْ مُلَاقَاةِ هَذِهِ النُّحُوسِ الدَّالَّةِ عَلَى زَوَالِ هَذَا الدِّينِ الْمَسِيحِيِّ وَالْمَذْهَبِ الملكاني.

وقد اكتفينا بالتفصيل فيما يرتبط بالمذهب الملكاني لغموض العبارة عند عامة الناس وتوهمهم أن ما ورد في الرواية محض وصف لتعظيم النصرانية، وإنما هي من الدقة بمكان، بما يتناسب مع أحوال ملوك بيزنطة ومعتقداتهم، وما لا يتصور صدورها من قصصي كذاب، أو نخاس كعامة نخاسي بغداد!

ثم إنهم يعتقدون في الصليب أشد الاعتقاد، به ثبات دينهم، وبه نصرهم، وبه بقاؤهم، هو شعارهم في كل مكان، وإليه تشير صلواتهم. جاء في رسائل

---

(١) يأتي في مطاوي البحث تمرد بعض ملوك بيزنطة على جملة من تشريعات المجامع المسكونية وما تحكم به الملكانية كزواج الأقارب، ومسألة عبادة الأيقونات المتفرعة على القول بأن المسيح ذو طبيعتين. بل قبل حرب الأيقونات انتصر هرقل لمذهب الطبيعة الواحدة (المذهب المونوفيزتي). راجع الدولة البيزنطية د. السيد الباز العريني ص١٣٢

بولس: فَإِنَّ كَلِمَةَ الصَّلِيبِ عِنْدَ الْهَالِكِينَ جَهَالَةٌ، وَأَمَّا عِنْدَنَا نَحْنُ الْمُخَلَّصِينَ فَهِيَ قُوَّةُ اللهِ[1]. وما تسافلُ الصلبان والأعمدة في الحادثة وتعقيب كبير الأساقفة على ذلك إلا شاهد انسجام الأحداث مع معتقدات النصارى، سيما إذا عرفت أن كبير الأساقفة آنذاك (فوتيوس) يعد من فلاسفة عصره لا مجرد راهب، ومن المناسب لشأنه أن يصدر منه مثل هذا التعقيب.



(١) رسائل بولس ١/ ١٨

الأسرة الحاكمة في القرن التاسع

الروم اصطلاح أطلقه العرب على أكثر من دولة وحضارة قامت على مر السنين، لكن المهم النظر إلى ما أطلقوه على عنوانين، الأول: إمبراطورية الرومان في روما أي في إيطاليا، وهم مسيحيو الغرب، وأحيانًا يطلق عليهم في المصادر العربية: الفرنجة. أما العنوان الثاني: إمبراطورية الروم في بيزنطة أي في القسطنطينية، أي في إسطنبول من تركيا اليوم، وهم مسيحيو الشرق. ويطلق الكُتّاب على الإمبراطوريتين مصطلحي الروم والرومان، ولكن الغالب إطلاق الرومان على مسيحيي روما في الغرب، والروم على مسيحيي بيزنطة في الشرق[1]. كما أن هاتين الإمبراطوريتين كانتا واحدة في الأصل، ثم انفصلتا.

في الحقبة الزمنية التي ندرسها كانت قوة النصارى آنذاك عند دولة الروم في بيزنطة، وكان وجود إمبراطورية الرومان أقل حظوة في التاريخ الإسلامي من الروم لضعف دولتهم، نعم تجد مثلا ذكرًا لشارلمان إمبراطور الرومان الفرنجة أيام هارون الرشيد، وقد تجد ذكرًا لأباطرة الرومان ضمن قراءة الأحداث في الأندلس، لكن ذلك مع قرينته، أما إذا خلا الكلام من القرينة فالأصل أن يراد دولة الروم في بيزنطة، بدءًا من هرقل الذي كاتبه النبيﷺ ودعاه إلى الإسلام، إلى ميخائيل الثالث المعاصر للحقبة الزمنية التي نحن فيها، إلى قسطنطين الحادي

(١) كنيسة الشرق تشمل الدولة البيزنطية بالدرجة الأولى، ثم أنطاكيا، وبيت المقدس، والإسكندرية، وكانت بيزنطة هي مركز القوة آنذاك.

عشر الذي سقطت معه الإمبراطورية.

أي أن ثقل النصارى ومركز قوتهم في تلك الفترة كان في الشرق، وهذا ما جعلنا نرجح أن يكون المقصود من عبارة (ابنة ابن قيصر الروم) أن يكون قيصر الروم هنا في بيزنطة لا في روما، هذا بعد الاستبعاد المبكر للاحتمالات الضعيفة في بلغاريا وروسيا لأنها احتمالات بعيدة تاريخيًّا[1]، فروسيا لم يكن فيها قيصر آنذاك، وبلغاريا كانت وثنية والرواية تشير إلى أن مذهب القيصر كان النصرانية.

وبعد هذه المقدمة لابد من معرفة شيء من تاريخ الأسرة الحاكمة في بيزنطة آنذاك لنعرف بالضبط نحن في أي ظرف زمني نتحدث، فنقول:

بعد سقوط الأسرة الأيسورية (٨٢٠م-٢٠٥هـ) استلمت الحكم الأسرة العمورية لغاية سنة (٨٦٧م-٢٥٣هـ)، ثم آل الحكم إلى الأسرة المقدونية[2].

وحَكَم بيزنطة هذه الفترة ثلاث أباطرة، وهم: ميخائيل الثاني، ثم ابنه

---

(١) وقد ناقش هذا المطلب سماحة الشيخ نزيه محيي الدين حفظه الله بتفصيل مناسب في مقال منشور على موقع مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي عجل الله فرجه ضمن قسم البحوث والمقالات المهدوية، برقم (٦٩٨)، وعنوان المقال: (أُمّ الإمام المهدي عجل الله فرجه حقيقة ثابتة).

(٢) لم يكن نظام الحكم في إمبراطوريات الروم مبنيًّا على التوارث لأن العقيدة المسيحية ليس فيها ما يلزم بتوارث التاج.

راجع الفن البيزنطي دراسة د. ثروة عكاشة ج١١ من موسوعة تاريخ الفن ص١١

ومن هنا لاحظ الفرق بين مثل الدولة العباسية التي تحكم الدولة الإسلامية أكثر من خمسة قرون كأسرة واحدة، وبين الدولة البيزنطية التي تداول عرش الإمبراطورية فيها ما يقارب العشرين أسرة!

ثيوفليوس، ثم ابنه ميخائيل الثالث، ولا يعنينا دراسة تاريخ بيزنطة كاملا، ولا كل ما يخص الأسرة العمورية، وإنما نسلط الضوء على الحقبة الزمنية محل البحث دون غيرها.

خلّف ثيوفليوس عند وفاته سنة ٨٤٢م خمس بنات وولدًا واحدًا، كان هذا الولد هو الإمبراطور الوريث للعرش، غير أنه لم يكن بالغًا بل كان ابن سنتين[١]، فكانت أمه الإمبراطورة ثيودورا هي الوصية على العرش يعاونها على ذلك مجلس وصاية فيه السياسي ثيوكتيستوس وأخواها باراداس وبتروناس. ولما بلغ الإمبراطور سن الرشد حدثت تغيرات في مجلس الوصاية فاغتيل ثيوكتيستوس سنة ٨٥٥م، وعزلت ثيودورا أم الإمبراطور عن السلطة وأودعت مع بناتها في الدير سنة ٨٥٦م وبقيت فيه حتى ماتت[٢]، وصار باراداس الحاكم الفعلي في الإمبراطورية لمدة عشر سنين برضا وقبول من الإمبراطور الشاب، وبعد

(١) في بعض المصادر العربية ذكرت أن عمره ست سنوات وهو اشتباه، والصحيح ما أثبتناه.

(٢) قال الطبري في أحداث سنة ثلاث وثلاثين ومائتين (توافق ٨٤٧م): وفيها وثب ميخائيل بن توفيل على أمه تذورة فشمسها وأدخلها الدير، وقتل اللغثيط لأنه اتهمها به، وكان ملكها ست سنين. (والمقصود من شمسها أنه جعلها خادمة للكنيسة ، واللغثيط المقصود هو ثيوكتيستوس، وسيأتي معنى اللغثيط).

وهو اشتباه من الطبري، فالوارد في التاريخ البيزنطي أن حكمها دام من سنة ٨٤٢م إلى سنة ٨٥٦م أو ٨٥٧م، كما أن الطبري نفسه ذكر مبادرة ثيودورا في فداء الأسرى سنة (٢٤١هـ-٨٥٥م). فما أورده هنا من عزلها وقتل ثيوكتيستوس خطأ واضح.

هذه السنوات تبدل رأي الإمبراطور في خاله ومال قلبه إلى باسيل المقدوني، ودبّر باسيل عملية اغتيال باراداس سنة ٨٦٦م، ثم صار باسيل المقدوني هو الآمر الناهي، وظلّ الإمبراطور مشغولا بملذاته في الشرب والسكر ومتابعة سباق الخيول وغيرها من شؤون الدنيا التي عرف بها حتى لقب بميخائيل السكير(١).

الملاحظ في حقبة ميخائيل الثالث رغم طولها أن الإمبراطور لم يحكم الإمبراطورية قط! وإنما كان يدير الأمور غيره طوال فترة ملكه(٢)، كما تعتبر هذه الحقبة الزمنية مرحلة حيوية في التاريخ البيزنطي صحبتها نهضة علمية داخلية، ونقلة ثقافية عقائدية في الفكر النصراني، وعودة المعارك البيزنطية الإسلامية بقوة، والبدء بحملات تنصير البلغار، حتى أنها كانت الطريق لدخول بيزنطة عصرها الذهبي، وكان القيصر باراداس رائد نهضة بيزنطة في تلك الحقبة(٣).



(١) راجع تاريخ الإمبراطورية البيزنطية محمد محمد مرسي الشيخ ص١٧٦، والإمبراطورية البيزنطية وحضارتها د. محمود سعيد عمران ص١٢٩، والدولة البيزنطية د. السيد الباز العريني ص٢٩٤، ومعجم التراجم البيزنطية أ.د. دونالد نيكول، ترجمة أزد. حسن حبشي ص٩٦ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ١٥٣

(٢) راجع: Bury, Eastern Roman Empire, 154

(٣) العالم البيزنطي ج م هسى، ترجمة د. رأفت عبد الحميد ص١١٨

وقد أدرجنا في ملاحق الكتاب بعض الرسومات المهمة لهذه المرحلة من التاريخ البيزنطي.

الألقاب والمناصب الرسمية

من الالتباسات الواضحة عند كثير من الباحثين خلطهم بين لقب (القيصر) و(الإمبراطور) وبناؤهم على أنهما لقب واحد، والحقيقة أنهما يشيران إلى أكثر من منصب، ولهما دلالتهما الخاصة، والوارد عندنا في قضية السيدة نرجس عليها السلام أنها من نسل القيصر لا من نسل الإمبراطور، ورَدُّ الرواية بناء على أن الإمبراطور لم يكن له أحفاد آنذاك ناشئ عن قصور في مطالعة التاريخ البيزنطي.

وقد عنت كثير من الكتب بتفصيل هذه الألقاب وذكر الفوارق بينها ودلالتها، ثم إن ذلك يختلف باختلاف الأزمنة والأماكن، فإننا يجب أن نعرف دلالات الألقاب في نفس الظرف الذي وردت فيه الرواية، كما لو تحدثنا اليوم عن دلالة المناصب الرسمية في الدول، مثل الملك والأمير ورئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وقائد القوات المسلحة ورئيس البرلمان وغيرها، فإنها مناصب قد تجتمع في شخص واحد في بعض الدول فيكون الأمير هو نفسه رئيس الوزراء وقائد القوات المسلحة، وقد تفترق في دول أخرى فيشغل كل منصب شخص معين لوحده، كما أن نفس المسمى قد يكون له وظيفة تشريفية في بلد ما لا أهمية عملية لها في إدارة البلاد، وقد يكون نفسه المتصرف بكل شيء في بلد آخر، كمنصب الملك فإنه يختلف من بلد إلى آخر، بل قد تتفاوت الصلاحيات في نفس البلد من زمان إلى آخر، فلا يكون لرئيس الجمهورية الأثر السياسي المهم اليوم، وكان له كامل الهيمنة والسلطنة السياسية بالأمس في نفس البلد مثلا.

هي ظروف تتغير وتتفاوت بتغير الحيثيات، فلا يقاس ظرف اليوم بظرف الأمس ونحن نتحدث في غضون سنين محدودة عشناها وشهدناها فما بالك بإمبراطورية امتد حكمها قرونا طويلة؟ إنه من الطبيعي أن يكون الإمبراطور يوما لا دور له في إدارة البلد، وفي ظرف آخر يكون هو المتصرف في كل شيء، وفي ظرف ما يكون الإمبراطور هو القيصر نفسه، وفي آخر يكونان منصبين مختلفين.

وبعيدًا عن الإطالة؛ من الشواهد اللطيفة على وجود فرق في هذه المناصب ما دونّه كليترولوجيون فيلويوس[١] في وصف مآدب الطعام الرسمية في البلاط الإمبراطوري أنه كانت هناك ست شخصيات رئيسة تشارك الامبراطور طعامه ويجلسون على ميمنته وميسرته على المائدة وهم على التوالي: بطريرك القسطنطينية، ثم القيصر، ثم النوبليسيموس (الأكثر نبلا)، ثم القربلاط، ثم البازيليوباتور (والد الإمبراطور)! وأخيرًا البطريقة الزوستى.[٢]

هذا فضلا عن سائر المدعويين للمآدب، كما أن بعض المناصب التي تدعى إلى الموائد قد لا تكون موجودة في حقبات زمنية أخرى كوالد الإمبراطور، وإنما فيلويوس وثّق مرحلة عمله في البلاط فذكر الشخصيات الموجودة، وهذا

---

(١) عاش في أواخر القرن التاسع الميلادي، وهو المشرف على الولائم الإمبراطورية (الأتريكلينس) في عهد ليو السادس، ومن هنا قام بتصنيف قائمة للمدعوين إلى هذه الولائم والمناسبات الإمبراطورية، لتكون دليلا للعاملين بالتشريفات الملكية في القصر، اعتمد فيها على ترتيب كافة موظفي الدولة حسب مناصبهم أو درجة أهميتهم وكذلك الألقاب الشرفية التي كانوا يحملونها.

(٢) بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، تأليف أ.د. طارق المنصور ص٦٧

التعداد للمناصب ليس مطّرِدًا في كل موائد أباطرة الروم، إلا أننا أشرنا إلى هذه الشخصيات لنوضح أن القيصر هو الشخصية الثانية من المدعوين للمأدبة، يسبقه رئيس السلطة الدينية الأسقف الأعظم (البطريك). وهذا يؤكد أن القيصر ليس هو الإمبراطور كما يتسامح كتاب المعاجم في تدوين هذه المعلومة.

والحقيقة أن هذا الخطأ راجع إلى عدم المداقة في التعامل، فإن باحثًا غير مسلم لو قرأ التاريخ الإسلامي ووصف الخليفة بأنه رئيس سلطة القضاء في الدولة الإسلامية، لكان صادقًا لو أنه تحدث عن زمن خلافة أمير المؤمنين عليه السلام وسيكون مخطئا لو أنه تحدث عن زمن خلافة المعتصم العباسي!

والذي يظهر أن جذر هذا الالتباس في فهم معنى القيصر يعود إلى الخلط بين دلالة هذا اللقب عند الرومان في روما، وعند البيزنطيين في القسطنطينية، فإن الإمبراطور الروماني كان يحمل لقب القيصر زيادة على لقبه الإمبراطوري.

وبعد هذا التفريق فإنه لابد من التنويه على أن التسميات: قيصر وقربلاط ولغثيط[١] قد تكون لأشخاص متعددين وقد تجتمع في شخص واحد وذلك باختلاف العصور، فمثلا فإن القيصر باراداس حاز على لقب قربلاط (kouropalates)[٢]، وهذا اللقب في حقبة ميخائيل الثالث كان يحمله القيصر نفسه فلا فرق، فيما حمل ثيوكتيستوس لقب لغثيط فقط.

---

(١) وفي بعض المصادر يعرّب لوجثيت Logothetes

(٢) راجع: Bury, Eastern Roman Empire, 161

وقد تعرضت التواريخ إلى وصف مهام أبرز موظفي الدولة، فذكروا أن أهمهم على الإطلاق اللغثيط وهو بمثابة وزير الخارجية ومستشار الإمبراطور والمشرف على الخزانة الإمبراطورية، ورئيس دار الإنشاء الإمبراطورية، والمشرف على ميدان السباق، وفي بعض الأحيان كان يُعَيَّن قائدًا للأسطول البيزنطي، وكان القربلاط يحمل رتبة قيصر (نائب الإمبراطور)، وعلى ذلك لبس تاجًا بدون صليب.[1]

والحقيقة أن أهم خصلة يجب توفرها في القيصر كونه مؤهلا لوراثة العرش الإمبراطوري تحت ظرف معين، فكان يمنح الأباطرة هذا اللقب لأبنائهم غالبًا، وقد يمنح لغيرهم، كما منحه ثيوفليوس لزوج ابنته[2] ومنحه ميخائيل الثالث لخاله باراداس[3]، أي أن القيصر قد يكون مجرد ولي عهد، وقد يكون هو اللغثيط ووزير الخزانة والقائد العام للقوات المسلحة وغيرها من مناصب، كالقيصر باراداس الذي ذكروا له كل هذه المهام.

هذا بالنسبة للقيصر أما الإمبراطور فهو رأس الهرم في الدولة، وهو الذي ينصّب سائر موظفي الدولة في مناصبهم، لكنه عمليًّا قد لا يمارس من

(١) المجتمع البيزنطي ص٧٢ تحت مقال بعنوان: التركيب العرقي والطبقي للمجتمع البيزنطي، للأستاذ المساعد محمد زايد عبد الله

(٢) لكن زوج ابنته ترك المنصب لاحقًا وعاش في دير وقضى بقية حياته راهبًا.

(٣) بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، تأليف أ.د. طارق المنصور ص١٢٧

الصلاحيات إلا القليل كالتي ترتبط بالتشريفات وشؤون البلاط، وقد يمارس كل شيء بنفسه فيتجول في الأسواق يرعى شؤون الرعية، ويخرج إلى الحروب بنفسه ليشرف على المعارك، وهو على كل حال نائب المسيح[1] قد اختير من قبل الرب[2]، وهو ظل الله في الأرض[3]، وهو نصف إله ورب القصر[4]، أما الحاكم الحقيقي للقسطنطينية هو المسيح نفسه، لذلك نجد في صور المسيح وتماثيله ما يصوره ملكا متوجا يرتدي رداء الإمبراطور. وكان يوضع إلى جانب عرش الإمبراطور عرش آخر خال هو عرش الملك الحق وهو المسيح، وربما وضعت عليه أيقونة مقدسة أو إنجيلٌ مفتوح.[5]

ثم إن الإمبراطور قد يمنح هذا اللقب لبعض أفراد عائلته، كولي العهد ووريث العرش، وربما يمنحه لزوجته وغيرهم، وربما طبعت صورة الإمبراطور الصغير إلى جانب أبيه على العملة، فيكون الإمبراطور الأكبر هو الأتقراطور الحاكم الفرد المانع المعطي لكل فئات الشعب وهو رأس الهرم والسلطة والمحور الرئيس الذي تدور عليه شؤون البلاد.[6]

(١) بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، د. رأفت عبد الحميد ص٥٠

(٢) بيزنطة في حرب، تأليف جون هالدون، ترجمة د. فتحي عبد العزيز ٢٦

(٣) الفن البيزنطي دراسة د. ثروة عكاشة ج١١ من موسوعة تاريخ الفن ص١٥

(٤) الفن البيزنطي دراسة د. ثروة عكاشة ج١١ من موسوعة تاريخ الفن ص١١

(٥) الفن البيزنطي دراسة د. ثروة عكاشة ج١١ من موسوعة تاريخ الفن ص١١

(٦) بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، تأليف أ.د. طارق المنصور ص١٢٥

وقريب من وصف الإمبراطور وصف آخر شاع في الدولة البيزنطية، وهو البازيليوس، ومعناه الملك باليونانية، وهذا هو لقب الإمبراطور الحاكم فعلا، ولقب من سيعتلي سدة العرش من بعده يشتركان فيه.[١]

ومن أهم المناصب في بيزنطة أيضًا: البطريك[٢] وهو الأسقف الأعظم الذي يتولى رئاسة الكنيسة، وفي الغالب يكون الشخصية الثانية في الإمبراطورية[٣].

يقول المسعودي في وصف البطريك ووظيفته: وهو ملك الدين والقيم به، كما أن الملك صاحب السيف، فهو صاحب كرسي القسطنطينية إلى هذا الوقت المؤرخ به كتابنا[٤] وصاحب الكرسي هو شريك الملك ليس يساوى الملك في الخلق أحد إلا هو، ولا يُكفِّر[٥] الملك إلا له، وإذا جلس الملك جلس على كرسي من ذهب وجلس البطريرك على كرسي من حديد فما كان من نفقات الحرب وجباية الخراج وإعطاء الجند فهو إلى الملك، وما كان من أموال الأحباس والوقوف لنفقات الكنائس والديرة والأساقفة والرهبان وما أشبه ذلك من أمر دينهم فهو

---

(١) بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، تأليف أ.د. طارق المنصور ص١٢٤

(٢) اختلفت المصادر العربية في كيفية تعريبه، منهم من عرّبه البترك، والبطرك، والبطرق الأكبر، وبطريركس.

(٣) بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، تأليف أ.د. طارق المنصور ص١٣٢

(٤) أي إلى وقت تدوين كتاب التنبيه والأشراف.

(٥) التكفير: وضع اليد على الصدر والانحناء احترامًا وتعظيمًا.

إلى البطريرك، وله في كل بند[1] عامل مثل عامل الملك، والبطريرك لا يأكل اللحم ولا يطأ النساء ولا يتقلد السيف ولا يركب الخيل وإذا أراد أن يركب ركب حمارا وحول رجليه على جانب مثل ركوب النساء.[2]

وهناك لقب آخر لابد من الإشارة إليه وهو البطريق، وهو لقب شرفي وليس وظيفة ويعني النبيل أو الشريف، وهو من الألقاب الإمبراطورية الرفيعة جدًا، والتي يحمل صاحبها شارة عبارة ألواح صولجان محفورة من العاج، وهذا اللقب يمنح لكبار رجال الدولة غالبًا، وقد يمنح لغيرهم[3]، وهو يعادل لقب أمير عند العرب[4].

---

(١) البند أو الثيم هم جيش نظامي يقيم قرب مدن الثغور الإسلامية، والقائد العسكري الذي يتولى قيادة الثيم لقبه ستراتيجوس وهو عامل الملك الذي يتولى قيادة الجيش ورئاسة الحكومة المدنية في نفس الإقليم.

(٢) التنبيه والأشراف ١٤٧

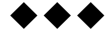
(٣) بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، تأليف أ.د. طارق المنصور ص١٥٤

(٤) جاء في كتاب الأنس الجليل ١/ ٢٥٥ لمؤلفه عبد الرحمن بن محمد المقدسي، قال: وَلما قدم عمر بن الْخطاب بِبَيْت الْمُقَدّس نزل على الْجَبَل الشَّرْقِي وَهُوَ طور زيتا وأتى رَسُول بطريقها إِلَيْهِ بالترحيب وَقَالَ أَنا سنعطي بحضورك مَا لم نَكُنْ نُعْطِيه لأحد دُونك وَسَأَلَهُ أَن يقبل مِنْهُ الصُّلْح والجزية وَأَن يُعْطِيهِ الْأمان على دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالهمْ وكنائسهم، فأنعم لَهُ عمر بذلك فَسَأَلَهُ الرَّسُول الْأمان لصَاحبه ليتول مصالحته ومكاتبته، فأنعم، وَخرج إِلَيْهِ بطريقها فِي جمَاعَة فَصَالحهُمْ وَأشْهد على ذَلِك. والبطريق هُوَ الْأَمِير وَأما البطرك فَهُوَ الكاهن.

والشاهد من النقل التفريق بين البطريق والبطريك، وأن البطريق يوازي لقب الأمير عند العرب.

إلى هنا تنتهي حاجتنا في بيان معاني بعض الألقاب البيزنطية، وهناك مؤلفات صنفت في هذا الموضوع غير أننا نقلنا موضع الحاجة ومن أراد التفاصيل فليرجع إلى المصادر.

والذي يهمنا في المقام أن الذي ورد في رواية الشيخ الصدوق رحمه الله أن السيدة نرجس عليها السلام كانت ابنة القيصر لا ابنة الإمبراطور، وقد تبين الفرق. ومن المهم أيضًا التنبه على أن القيصر أو ولي العهد أو الإمبراطور الصغير قد يوصف بالملك، وأن وصف الملك غير مختص برأس الهرم في بيزنطة، وسيأتي بيان ذلك، ويأتي استخدامهم وصف الملك للسيد المسيح والإمبراطور ولولي عهده، ولبطريك الكنيسة باعتباره ملك الدين، كما يوصف الزوج والزوجة بأنهما ملوك الأسرة، وغير ذلك من تعابير متعارفة في الموروث البيزنطي يعادلها في الوصف العربي (أمير) أو (شيخ) أو (إمام)، فإن العرب تصف القادة وأمراء القبائل وكبار رجالات الدولة ورجال الدين بأوصاف مثل هذه ولا تستخدم وصف الملك إلا لرأس السلطة في الأنظمة الملكية دون سائر أنظمة الحكم. ويأتي المزيد من البيان في تحقيق دقة الأوصاف الواردة في الرواية.



القيصر باراداس

باراداس هو القيصر المهيمن على إمبراطورية الروم في بيزنطية مدة عشر سنوات (من ٨٥٦ – ٨٦٦ للميلاد)، ويوافق (٢٤٢ – ٢٥٢ للهجرة) وذلك إبان حكم ابن أخته الإمبراطور ميخائيل الثالث، وكان مجلس الوصاية على الإمبراطور الطفل يتكون من عدة شخصيات منها ثيودورا وأخواها باراداس وبتروناس، وهم من عائلة نبيلة ذات أصل أرمني(١) من بافلاجونيا(٢)، كان أبوهم قائدًا عسكريًّا(٣)، إلا أن معرفة تفاصيل أنساب العائلات البيزنطية الكبرى من الأمور العسيرة، فإنه لم يكن من عادة البيزنطيين حفظ الأنساب(٤)، خلافا لعادة العرب في الاهتمام بالأنساب لاسيما أنساب الأشراف.

وأشار التاريخ البيزنطي إلى أبناء باراداس، فأما أحدهم فكانت وظيفته مرتبطة بالتعليم في بيزنطة، وكان الثاني قائدا عسكريا في أووربا(٥)، كما كان له أولاد آخرون من زوجتين طلق إحداهما. وذكر التاريخ أن أحد أولاد باراداس توفي وبقيت أرملته تعيش في بيت عمها القيصر باراداس والد زوجها(٦).

---

(١) الدولة البيزنطية د. السيد الباز العريني ص٢٩٤

(٢) إقليم يقع شمال الأناضول على ساحل البحر الأسود

(٣) الفن البيزنطي دراسة د. ثروة عكاشة ج١١ من موسوعة تاريخ الفن ص١٥ ص٢٣

(٤) الحضارة البيزنطية ستيفن رنسيمان، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ص٢٣١

(٥) راجع: Bury, Eastern Roman Empire, 161

(٦) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، أسد رستم ص٢٩٢

فيما كان أخوه بتروناس القائد العسكري في الشرق في القسم الغربي من آسيا الصغرى وقام بعدة حملات ضد العرب[١]، وكان لبتروناس أولاد منهم مارينوس الذي منح منصبًا إداريًّا في الدولة[٢].

ثم إنه لم يكن من المهم تاريخيًّا تدوين أسماء جميع أبناء الأباطرة والقياصرة، كما هو شأن العرب أيضًا إذ لا يفصلون في ذكر أسماء أبناء الخلفاء[٣] فضلا عن الوزراء وعامة القادة، فالتاريخ عادة يذكر المبرزين منهم ممن تقلد منصبًا مهما أو كان له موقف بارز في التاريخ دون سائر الأبناء.

أما بالنسبة لشخصية القيصر باراداس فإنه كان مهمشًا في بداية تولي الإمبراطور ميخائيل الثالث لمنصبه، حتى تمكن من التخلص من السياسي ثيوكتيستوس، ثم التخلص من الإمبراطورة ثيودورا (أخته، وزوجة الإمبراطور

---

(١) معجم التراجم البيزنطية أ.د. دونالد نيكول، ترجمة أزد. حسن حبشي ص١٩٤

(٢) راجع:

Charanis P., The Armenians in Byzantine Empire, Livraria Bertrand; 1st edition (January 1, 1963), p 24

(٣) مثلا سليمان بن المنصور الدوانيقي لم أجد في سيرته تفصيلا سوى ما ورد في رواياتنا من أن الحمية أخذته حين رأى نعش الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فأمر بتشييعه ودفنه، لذلك يتعسر مثلا الإجابة عن التساؤلات حول عقيدته وانتمائه وموقفه من خلافة بني أخيه، لاسيما أنه ورد في ذرية المنصور الدوانيقي من يتشيع لأهل البيت عليهم السلام مثل عيسى بن أحمد بن عيسى بن المنصور. فما هو تفصيل حياة سليمان بن المنصور؟ فهذا التاريخ الإسلامي على ما فيه من تفصيل نجده شحيحًا في الإجابة عن هذا السؤال ونظائره، والسبب أنه لم يتقلد منصبًا بارزا في الدولة فهمشه التاريخ.

السابق ثيوفيلوس، ووالدة الإمبراطور الحالي ميخائيل) وعزلها مع بناتها في دير، ثم إنه صار الآمر الناهي في الإمبراطورية، بتفويض من الإمبراطور الشاب ميخائيل الثالث، وحاز على منصب القيصر منذ ذلك الوقت[1].

وقد روى الطبري خبرًا تاريخيًّا في أحداث سنة ٢٤٦هـ(الموافق ٨٦٠م) حول فداء أسرى المسلمين عن نصر بن الأزهر الشيعي وكان رسول المتوكل إلى ملك الروم في أمر الفداء، أنه قال: لما صرت إلى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادي وسيفي وخنجري وقلنسوتي فجرت بيني وبين خال الملك (بطرناس) المناظرة وهو القيم بشأن الملك... إلى أن قال: وانقطع الأمر بيني وبينهم في الفداء على أن يعطوا جميع من عندهم وأعطي جميع من عندي، وكانوا أكثر من ألف قليلا، وكان جميع الأسرى الذين في أيديهم أكثر من ألفين منهم عشرون امرأة معهن عشرة من الصبيان، فأجابوني إلى المحالفة فاستحلفت خاله، فحلف عن ميخائيل، فقلت: أيها الملك قد حلف لي خالك فهذه اليمين لازمة لك؟ فقال برأسه: نعم. ولم أسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم إلى أن خرجت منها؛ إنما يقول الترجمان وهو يسمع فيقول برأسه نعم أو لا، وليس

---

(١) معجم التراجم البيزنطية أ.د. دونالد نيكول، ترجمة أزد. حسن حبشي ص١٥٣، ص٢٤، ص٩٦، وراجع أيضا: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، أسد رستم ص٢٩٢

وراجع: Bury, Eastern Roman Empire, 161 حيث ذكر تقلد باراداس رتبة قربلاط والتي تعطيه كل مهام القيصر، وذلك منذ عزلت ثيودورا عن إدارة البلاد.

يتكلم، وخاله المدبر أمره[١].

والشاهد في الرواية ما رآه رسول الخليفة من أن خال الإمبراطور هو المدبر لشؤون الدولة وليس للإمبراطور رأي، لكن الملفت أنه عبّر عن خاله ببطرناس ولم يسمه باراداس.

لا شك أننا نعاني خللا في التعريب وعدم دقة وتفاوت في نقل الأسماء، فهذه ثيودورا أم الإمبراطور يعرّبها ابن خلدون باسم ندوره! وفعلا قد أشار الباحثون[٢] إلى أن بطرناس معرب باراداس، وليس المقصود منه بتروناس لأن مهام بتروناس لا ترتبط تاريخيًّا باستقبال السفراء وإنما هذا الدور يعنى به باراداس القيصر، كما أن العرب عارفون عن قرب بالقائد العسكري بتروناس الذي واجههم عسكريًّا عدة مرات وكان ينبغي ذكر وصفه عند اللقاء به، غير أن نصر بن الأزهر ذكر الوصف المناسب للقيصر في كونه المدبر لشؤون الملك.

على أي حال فإنه من الواضح أن شؤون الدولة على إطلاقها كانت بيد باراداس، وأنه كان الحاكم الفعلي للإمبراطورية لا ميخائيل، لذلك فإنه من المناسب وصفه بملك الروم، كما وصف المؤرخون ثيودورا أخت باراداس بأنها

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٣٨٨

(٢) الروم والمشرق العربي د. سيد أحمد الناصري ص٢٩٢

كما تنبه لهذا الخلل في التعريب الباحثان الأكاديميان: إحسان روحي وهادي تقوي، ونقلا جملة من آراء الباحثين في التاريخ البيزنطي حول هذه الجزئية في مقالهم الأكاديمي:

An Ignored Arabic Account of a Byzantine Royal Woman

ملكة الروم[1]، والحقيقة أنها ليست ملكة وإنما كانت وصية على عرش الإمبراطور، ولما كانت متصرفة في كل شؤون الإمبراطورية صح نسبة هذا الوصف لها، فكذلك يصح نسبة هذا الوصف إلى القيصر باراداس، وقد تقدم أن البازيليوس (مرادف الملك) يطلق على الإمبراطور وعلى المخول بارتقاء سدة العرش بعد الإمبراطور، وهذه الصفة تنطبق على القيصر باراداس أيضًا.

أي أننا الآن نتحدث عن قيصر الروم الرسمي، والملك الفعلي للإمبراطورية برضا وإمضاء وتعيين الإمبراطور الشاب ميخائيل الثالث، والقيصر المذكور قاد الإمبراطورية إلى نهضة مهمة، كانت مفصلية في التاريخ البيزنطي كاملا.

وأهم ما يذكر في سيرته وما يميز مرحلته تاريخيًّا عن سائر مراحل الإمبراطورية هو اهتمامه البالغ في المؤسسات العلمية، لأن الإمبراطورية مرت في فترة ظلام في القرن السابع الميلادي وسيطرة الكنيسة على المؤسسات العلمية،

---

(١) قال ابن خلدون في تاريخه ٤/ ٢٧٧: وكانت ندورة ملكة الروم قد حملت أسرى المسلمين على التنصر..

وقال الطبري في تاريخه في أحداث سنة سبع وعشرين ومائتين (الموافق ٨٤٢م): وهلك هذه السنة توفيل (أي: ثيوفيلوس) ملك الروم وكان ملكه اثنتى عشرة سنة، وفيها ملكت بعده امرأته تدورة وابنها ميخائيل بن توفيل صبى.

ووصفها الطبري في مورد آخر في أحداث سنة إحدى وأربعين ومائتين (٨٥٥م) بأنها ملكة الروم، وصاحبة الروم أيضًا وهو التعبير الذي يستخدمه المؤرخون العرب لوصف الحاكم العام للروم.

كان ذلك في فترة التشدد الديني وحرب تحطيم الأيقونات[١]، بل كانت جامعة أثينا مغلقة منذ القرن السادس الميلادي انتصارًا للكنيسة والتشدد الديني![٢] أما القرن السابع فكان أشد القرون عقمًا في تاريخ الفكر البيزنطي[٣]، أما القرن الثامن فلم يكن مختلفًا كثيرًا، وأبرز علمائه يوحنا الدمشقي، ولكنه تفرغ للدفاع عن المسيحية[٤]، والأمر استمر إلى بداية الأسرة العمورية، حتى ذكروا أن ميخائيل الثاني الإمبراطور نفسه لم يكن يحسن القراءة والكتابة[٥]!

عمليًّا لم تبدأ النهضة الثقافية إلا في القرن التاسع الميلادي على يد القيصر باراداس وإليه يعود الفضل في إحياء جامعة القسطنطينية فإنه استدعى أعلم علماء زمانه وجمعهم في مدرسة الماغنوارا لتدريس اللغة والفلسفة والهندسة والفلك واشتد عطفه على الجامعة فتردد إليها واحتك بأساتذتها وحضهم على السير في سبيل العلم، ومضى في عمله غير مبال بتشدد الكنيسة وإنما نفخ في عاصمة روما روحا علمية مهدت السبيل لوثبة القرن العاشر[٦]، بل نجده تدخل في تنظيم

(١) الحضارة البيزنطية ستيفن رنسيمان، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ص٢٧٢، وحضارة الإمبراطورية البيزنطية د. محمود سعيد عمران ص٢٩٥

(٢) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، أسد رستم ص١٦٥

(٣) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، أسد رستم ص٢٥٥

(٤) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، أسد رستم ص٣٠٣

(٥) الدولة البيزنطية د. السيد الباز العريني ص٢٧٣

(٦) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، أسد رستم ص٣٠١

الكنيسة وكانت له اليد الطولى في عزل البطريك أغناطيوس وتعيين فوتيوس بطريكا للقسطنطينية، وكان فوتيوس محبًّا للعلم صديقا للرياضي الشهير ليو[١].

وقد ضمت الجامعة أهم علماء العصر كفوتيوس وليو الرياضي[٢]، وهما شخصيتان مهمتان علميًّا، أما فوتيوس فهو الذي كان قد ترأس سفارة إلى بغداد[٣]، أما ليو[٤] الرياضي فهو الذي سعى المأمون حثيثًا أن يأتي به إلى بغداد ولم يتمكن، وعرض مقابل ذلك الصلح الدائم مع القسطنطينية وألف قطعة ذهب، لكن الإمبراطور ثيوفيلوس كان قد رفض ذلك لأنه كان يرى أن ليو الرياضي سر لا ينبغي أن يطلع عليه المسلمون[٥].

ولما آلت الأمور إلى باراداس سخّر كل إمكانيات الإمبراطورية لخدمة هؤلاء العلماء، وقد عمد إلى تدبير كل الاحتياجات المالية اللازمة لشؤون جامعة القسطنطينية (الماغنوارا)[٦].

تعتبر هذه المرحلة هي مرحلة النهضة في الدولة البيزنطية، لاسيما في مجال التعليم، ويعتبر القيصر باراداس رائد هذه النهضة، الذي أجمعت المصادر على

---

(١) معجم التراجم البيزنطية أ.د. دونالد نيكول، ترجمة أزد. حسن حبشي ص٢٤، ص٣٩

(٢) حضارة الإمبراطورية البيزنطية د. محمود سعيد عمران ص٢٩٦

(٣) نفس المصدر، وأيضًا الموسوعة الفلسفية لعبد الرحمن بدوي ج٣ (الملحق) ص٢١٢

(٤) بعض المصادر عرّبت اسمه إلى ليون، ولاوون.

(٥) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، أسد رستم ص٣٠٧

(٦) العالم البيزنطي ج م هسی، ترجمة د. رأفت عبد الحميد ص١٣٦

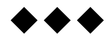
محبته للعلم.

بهذا التعريف الموجز لشخصية القيصر يتبين مدى انطباق المواصفات على جد السيدة نرجس عليها السلام، من أنه كان محبًّا للعلم في وقت لم يكن الاهتمام بالعلم حالة مطردة في سلوك القياصرة، وكان هو القيصر والقائد العام للقوات المسلحة في الإمبراطورية، وكان هو الحاكم الفعلي، أي أنه بالفعل كان القيصر وملك الروم كما وصفته الرواية.

ثم إن باراداس كان له أولاد متزوجون، وكان له أخ له أولاد في سن الزواج، ثم إن كون أحد أبناء باراداس قائدًا عسكريًّا يقضي غالب وقته في الحروب يستلزم أن يتعلق الجد بأبناء ولده تعلقًّا خاصًّا ويتعهد بتربيتهم.

كل هذه المعطيات التاريخية منسجمة ومنطبقة مع الخبر الوارد في كمال الدين للشيخ الصدوق رحمه الله، وهي شاهد صدق يضاف إلى ما تقدم من شواهد.

ثم إن كبير الأساقفة الذي ينبغي أن يكون هو الشخصية الثانية في الإمبراطورية بدا أكثر تواضعًا أمام القيصر ما يوحي بأن القيصر كان فعلا هو الشخصية الأولى في الإمبراطورية، وما يؤكد أن للقيصر فضلا خاصًّا على هذا البطريك (كبير الأساقفة)، ولأن كبير الأساقفة آنذاك كان فوتيوس فإن التاريخ ينص على أن لتعيينه في هذا المنصب الفضل الكامل لباراداس.



الصراعات الداخلية والخارجية

منذ آل ملك الدولة البيزنطية إلى الإمبراطور الطفل ميخائيل الثالث وتولت الوصاية عليه والدته الإمبراطورة ثيودورا دخلت الإمبراطورية مرحلة جديدة من الصراعات، وهي: الانتصار للأيقونات، والخلاف على منصب الأسقف الأعظم، وأيضًا التوجه إلى مزيد من التوتر في العلاقات الخارجية شرقا وغربًا.

والأيقونة كلمة يونانية معربة تعني مثالا أو صورة، تصنع لأغراض عبادية، وهي من فنون النصارى المعروفة تملأ كنائسهم ودورهم والحوانيت، تطرز على الملابس وتنقش على الكتب والأثاث وسائر الأدوات، نحتها البيزنطيون في الميادين العامة وعلى أسوار القصور. وقد تكون الأيقونة على صور المقدسات كالسيد المسيح والسيدة العذراء والرسل والرهبان، وقد تكون على رموز أشجار وطيور ونحوها مما يحمل دلالات رمزية، وقد تكون على هيئة صلبان وإنجيل ونحو ذلك.

كان الفكر السائد في بيزنطة الاعتقاد بالنبوءات والمعجزات والأناشيد الدينية وغمر ذلك كله جميع مظاهر الحياة بل إن كافة النوازل والمحن جرى تفسيرها تفسيرًا دينيًّا، فليس في وسع الإنسان أن يدفعها إذ أنها ليست إلا أمرًا سماويًّا يتحتم التسليم والإذعان إليها، وازدادت بتلك المعتقدات مكانة رجال الدين الأحياء منهم والأموات، فتُلتَمس منهم البركات وتطلب منهم الآثار

لتكون تميمة وملاكا حارسًا لعامة الناس.

وفسّر عامة النصارى الحوادث التاريخية على ضوء هذه المعتقدات فاعتبروا انتصار هرقل على فارس إنما يرجع إلى أنه كان يحمل صورة العذراء دون نظر إلى ما أبداه من مهارة وشجاعة وقوة عسكرية ونحوها من أسباب طبيعية.

وهذه الأيقونات يتقرب بها إلى ابن الله، وعبادتها وتبجيلها توصل المصلي إلى أصحابها، ومن لا يعبد الصور لا يعبد ابن الله الذي يُعتبر الصورة الحية للإله الذي لا يُبصَر؛ فلكل شيء ناحيتان، ناحية جسدية مادية وناحية روحية، والروح تستر وراء الجسد، ومن خلال الحواس يكون الوصول إلى الحقائق الروحية، ومن أجل ذلك اجتمع في المسيح الجسد والروح، فكان ذا طبيعتين، أي أن فكرة عبادة الصور ترجع جذورها إلى عقائد مجمع خلقيدونية المسكوني، ومناهضوها منقلبون على المذهب الملكاني الأصيل، بل على قوانين المجامع المسكونية عموما.

وفي القرن الثامن الميلادي عند حكم الأسرة الأيسورية بدأ الجدل يدخل الوسط المسيحي حول شرعية هذه الأيقونات وصدر الأمر الإمبراطوري بإزالة الأيقونات الدينية، ولكن رفعت صور الأباطرة والبطاركة المعاصرين! ما أحدث اضطرابا عند نصارى الشرق، وزاد سخط الكنيسة الغربية في روما على كنيسة الشرق في بيزنطة، واعتبروا ذلك دخولا في الإلحاد.

ويختلف المحللون في منشأ هذا الجدل، إن كان عقائديًّا أو سياسيًّا، أو الجانبين معًا، إذ تقوية سلطة الحاكم تقتضي تضعيف اعتقاد عامة الناس بالكنيسة

ورجال الدين، كما أن الأمر قد لا يخلو من تأثر نصراني بالفكر الإسلامي وعدم إمكانية تجسد الإله في طبيعتين جل الله وعلا عن ذلك علوًّا كبيرا.

غير أن هذا الجدل بلوازمه دام أكثر من قرن من الزمان صحبه فترة تأخر وظلام في كنيسة الشرق، وما تنفس الشعب البيزنطي إلا عند السماح بتبجيل الأيقونات، وذلك بعد وفاة الإمبراطور ثيوفليوس (٨٤٢م-٢٢٨هـ)، حيث استلم الامبراطور الطفل ميخائيل الثالث المنصب، وآلت أمور الإمبراطورية إلى والدته ثيودورا (زوجة ثيوفليوس) والوصية على الإمبراطور الطفل، وكانت تبجل الصور.

وبعد عدة إجراءات واجتماعات ومجامع نصرانية أقيمت في بيزنطة، استطاعت ثيودورا أن تنتصر للأيقونات فأعيد تبجيلها رسميًّا في الكنائس، وعقد لذلك احتفال رسمي حضره الإمبراطور ووالدته والوزراء ورجال الدين وهم يحملون الصلبان والشموع والأيقونات ليعاد رفعها، وأقيم الاحتفال في كنيسة آياصوفيا وسط العاصمة في بيزنطة.

كان صدور القرار الرسمي بتحريم عبادة الصور في (١٧ يناير ٧٣٠م) وعلى إثر ذلك عزل البطريك (الأسقف الأعظم) وقتها ونصّب مكانه بطريكا يناهض عبادة الصور. وكان صدور القرار الرسمي بإعادة عبادة الصور في (١١ مارس ٨٤٣م) وعلى إثر ذلك عزل البطريك المناهض لعبادة الصور ونصّب

مكانه البطريك ميثوديوس المؤيد لعبادة الصور.[١]

تعتبر هذه المرحلة من تاريخ المسيحية حاسمة ومهمة، دوّن التاريخ تفاصيلها بإسهاب ودقق في تواريخها لأهميتها العقائدية، وتعتبر العودة إلى الأيقونية منعطفًا حساسًّا في التاريخ البيزنطي، انتصارًا عقائديًّا للأرثوذكسية، وتمسّكًا بقرارات المجامع المسكونية وإيقافًا للتمرد على الملكانية، كما أنها عودة إلى الفنون والعلوم ما فتح باب تجاوز عصور الظلام وبداية النهضة البيزنطية.

ومن جانب آخر فهي نزول إلى رغبات الشارع وعامة الناس وإرضاء لذائقة المجتمع المتدين البسيط في سلوكياته، فالمجتمع لم يكن راضيًا على سلوك الأباطرة بتحريم رفع صور القديسين وتعظيمها، والسماح بتبجيل صور الأباطرة، وكان موقف الشعب موضع حرج بالنسبة للأباطرة[٢]، فهذه العودة للأيقونية كانت سببًا لاستقطاب قلوب العامة.

من ناحية عسكرية فإن التوجه العام للجيش البيزنطي في فترة تحريم عبادة الأيقونات كان مؤيدًا لقرار الإمبراطورية بتحريمها، لكنّ عددًا كبيرًا من رجال الأسطول البحري كانوا مؤمنين بعبادة الصور -وهو إيمان يتجاوب صداه مع روح الملاح- وفي نفس الوقت كانت قوة العرب البحرية في اضمحلال، لذا رأوا من الأسلم إلغاء القيادة العليا للأسطول البحري، وأن ينقصوا عدد السفن

(١) للمزيد: الدولة البيزنطية د. السيد الباز العريني، الصفحات ١٧٩، ١٩٩، ٢٥٧، ٢٩٢، ٢٩٤

(٢) الفن البيزنطي دراسة د. ثروة عكاشة ج١١ من موسوعة تاريخ الفن ص١٣

إنقاصا كبيرًا، فكان للحركة اللاأيقونية أثرٌ واضحٌ في تضعيف الأسطول البحري البيزنطي.

وكما عادت قوة الأسطول البحري العربي في القرن التاسع الميلادي، فإن الأسطول البيزنطي رجع إلى سابق عهده في نفس الفترة مع إعادة تقديس الصور وعبادة الأيقونات بداية من عهد ثيودورا[١].

أما الصراع الداخلي الثاني في بيزنطة فكان حول منصب البطريك أو الأسقف الأعظم، فبعد وفاة ميثيوديوس بطريك القسطنطينية المؤيد لعبادة الصور تم تنصيب أغناطيوس[٢]، واستلم المنصب هذا الأسقف ابتداءً من ٨٤٧م لغاية ٨٥٨م، لم تكن هناك مشكلة في تعيينه بادئ الأمر، ولكن بعد تسلط باراداس على شؤون الدولة وتصفية ثيوكتيستوس، ثم عزل ثيودورا مع بناتها في الدير، اعترض الأسقف الأعظم على هذا التصرف وجن جنونه، فلم يكن أمام الإمبراطور والقيصر إلا أن يعزلوه من منصبه، فعزل ونفي إلى إحدى الجزر، وحل محله فوتيوس[٣] وكان هذا الأسقف الجديد يتميز بإسهاماته العلمية الكثيرة ما شجّع باراداس القيصر على انتخابه للمنصب[٤]، كان المتعارف عند تعيين

---

(١) الحضارة البيزنطية ستيفن رنسيمان، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ص١٧٧

(٢) أغناطيوس، وقد تعرب أغناتيوس وأجناتيوس وإجناتيوس.

(٣) فوتيوس، ويعرب في بعض المصادر فوطيوس

(٤) معجم التراجم البيزنطية أ.د. دونالد نيكول، ترجمة أزد. حسن حبشي ص٢٤، ص٣٩

بطريك جديد أن يرسل إلى البطاركة الأربعة في الكنائس الرئيسة يخبرهم بذلك؛ بطريك روما[١] والإسكندرية وأنطاكيا وبيت المقدس، لكن بطريك روما اعترض على هذا التنصيب[٢]، لاسيما أن فوتيوس لم يتدرج بالشكل الصحيح لارتقاء المنصب وإنما أخذ يعلو درجات الكهنوت في سُرعة فائقة، فسيم في اليوم الأول متوحدًا، وفي اليوم الثاني إناغنوسطسًا، وفي اليوم الثالث إيبوذياكونًا، وفي الرابع شماسًا، وفي الخامس قسًّا، وفي السادس يوم عيد الميلاد أسقفًا وبطريركًا[٣].

بالتزامن مع هذه الأوضاع الداخلية هناك علاقات خارجية للإمبراطورية البيزنطية لابد من الإشارة إليها، ففي هذه المرحلة -مرحلة حكم ميخائيل الثالث- دخلت الإمبراطورية في صراع مع الروس استغلالا من الروس لصراعات البيزنطيين الداخلية والخارجية، كما دخلت بيزنطة في صراع مع البلغار انتهى بانتصار البيزنطيين وتنصير البلغار وهذا ما عزز موقف بطريك القسطنطينية فوتيوس وأكسبه مشروعية أكبر، كما كانت هناك صراعات مع المسلمين الأغالبة في جزيرة صقلية، وهناك حملات بيزنطية على جزيرة كريت اليونانية التي كانت تحت يد مسلمي الأندلس، وصراعات متكررة مع مسلمي

---

(١) يعرف بطريك روما بلقب بابا روما دون بقية البطاركة.

(٢) الدولة البيزنطية د. السيد الباز العريني ص٣١٨

(٣) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، أسد رستم ص٢٩٤
كما لم يعترف بفوتيوس بطاركة الإسكندرية وأرشليم (بيت المقدس) وأنطاكيا، راجع: موسوعة عالم الأديان ج٩ الكنيسة البيزنطية الأرثوكسية ص١٠٦

مصر في دمياط.

أما العلاقة مع الدولة العباسية فإنها عادت إلى الاضطراب بالفعل، وأعادت الدولة البيزنطية ترتيب صفوفها، واهتمت بتدعيم التحصينات في آسيا الصغرى، وتم إعادة بناء تحصينات أنقرة التي دمرها المعتصم العباسي من قبل وتم تقوية دفاعات نيقيه[1].

لقد وقعت في هذه الفترة عدة معارك مع المسلمين سواء في الثغور الإسلامية مع الدولة العباسية أو في جهة مصر أو في جزيرة كريت، وكانت فترة حيوية من الناحية العسكرية فتحت الباب لحروب العصر المقدوني مع المسلمين في القرن العاشر.

لقد دخلت الإمبراطورية في هذه الفترة في سياسة جديدة من جميع النواحي داخليًّا وخارجيًّا، جعلتها تعيد ترتيب الأوراق، كان أبرزها القرار العقائدي الخطير بالعودة إلى تقديس الصور وما صحبه من جدل عقائدي عام، وإن الفكر المسيحي يقدس الغيب والرموز والإشارات، كما أن فوتيوس منذ استلم منصب الأسقف الأعظم (البطريك) عادت الصراعات الداخلية جميعها إلى الازدهار من مسألة الطبيعة والطبيعتين إلى مسألة الأيقونات[2].

لذلك فإن تسافل الصلبان والأعمدة وسقوط العرش (في حفل زفاف

---

(١) الإمبراطورية البيزنطية من ٣٢٤-١٠٢٥م د.وسام عبد العزيز فرج ص٢٥٨

(٢) موسوعة عالم الأديان ج٩ الكنيسة البيزنطية الأرثوكسية ص١٠٦

حفيدة القيصر) أربكت الأسقف الأعظم (فوتيوس) وقتها، واستشعر أنها نحوس دالة على زوال هذا المذهب الملكاني، المذهب الذي يقدس الأيقونات.

مسألة الأيقونات في ظاهرها مجرد صور تعلق، ولكنها في الواقع تحمل بعدًا فنيًّا وبعدًا عقائديًّا، أما البعد الفني فيتجلى أثناء مراسم الحفل الذي عقد في قصر القيصر بالإبداع الفني في تصميم العرش المسوغ من أصناف الجواهر؛ فبيئة تعظيم الأيقونات بيئة حاضنة لأصحاب الفنون.

أما الجانب العقائدي، فقد كان مذهب تحطيم الصور في أساسه مسألة تدخل تحت علم طبيعة المسيح وتصويرها؛ وهل يعد من الوثنية عبادة صورة له؟ وكان من اليسير إثبات أن لاهوت تحطيم الصور إما أن يكون لاهوتا مونوفيزيا يؤمن بوحدة طبيعة المسيح أو نسطوريا[١].

والحقيقة أن الانتصار للأيقونات انتصار لمجمع خلقيدونية المسكوني، أي أنه انتصار للملكانية، وكان تسافل الصلبان والرجة الحاصلة في القصر نذير شؤم ونحوس دالة على زوال المذهب الملكاني، فتوقف لذلك الأسقف الأعظم فوتيوس، لذلك صرّح بعبارة: أيها الملك اعفنا عن ملاقاة هذه النحوس الدالة على زوال هذا الدين المسيحي والمذهب الملكاني.

ثم إن الترتيب الرسمي للمناصب في الإمبراطورية يقتضي أن يكون الأسقف ثاني رجل في الدولة بعد الإمبراطور، ولكن لما كان لباراداس كامل

(١) الحضارة البيزنطية ستيفن رنسيمان، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ص١٣٤

الفضل في تعيين فوتيوس في منصبه، ولما كان باراداس الحاكم الفعلي للبلاد ظهر الأسقف الأعظم في سياق الحادثة أقل من القيصر وأكثر تأدبًّا في الحديث معه.

لقد كان للحوادث الكونية أثرٌ في تفسير الأحداث، وذلك يتجلى عند الأيقونيين أكثر من غيرهم، وهذه الهزة في قصر القيصر تشبه زلزلة أخرى وقعت في القسطنطينية في القرن الثامن في عهد الإمبراطور ليو، حين أراد تحطيم الأيقونات واعترض الناس عليه، وحدث وقتها زلزال، فخطب في الناس يعظهم بأن الزلزال غضب بسبب تقديس هذه الأيقونات التي يجب أن تزال[1]، والأيقونيون بطبيعة الحال أكثر اعتقادًا من اللاأيقونيين بعلاقة الحوادث الطبيعية بذنوب الناس، لذا فإن هذه الزلزلة في قصر القيصر كانت نذير شؤم تهدد بزوال المذهب من أصله.

ثم إن الخلاف المحتدم حول منصب الأسقف الأعظم يستدعي قلقا من استغلال هذه الحوادث للحرب على القيصر وأتباعه، وكل ذلك يورث حالة تشاؤم ورغبة في الاعفاء عن الاستمرار في حفل الزفاف.

هذا بالنسبة للصراعات الداخلية، أما بالنسبة للصراعات الخارجية فإن الحروب كانت مستمرة وكثيرة بين المسلمين، وإن حملة إعادة تقديس الأيقونات صحبها إعادة تنظيم للأسطول البحري، وإعادة ترتيب لصفوف الجيش البيزنطي، لذلك سجّل التاريخ عدة معارك على الثغور الإسلامية البيزنطية، ومن

---

(١) الدولة البيزنطية د. السيد الباز العريني ص٢٠٤

ثم آلاف الأسرى والسبايا، فعمليات الفداء وتبادل الأسرى.

ومن الجهل توهم أن الصراعات الإسلامية البيزنطية منحصرة في معركة مؤتة واليرموك وعمورية! فإن العلاقة بين الدولتين كانت مضطربة في أكثر الأحيان، والثغور الإسلامية البيزنطية لا تهدأ إلا في فترات يسيرة.

كما أن معارك المسلمين والروم لا تنحصر بثغور الدولة العباسية، وإنما الحرب مع المسلمين قد تكون مع مسلمي الأندلس في جزيرة كريت، أو مع الأغالبة في جزيرة صقلية، أو مع المصريين في دمياط، والأرجح أنها تكون في ثغور بني العباس.

وأيًّا كان موضع المعركة، فإن المعارك حين تنتهي ينتج عنها أسر وسبايا، يتم نقلهم بين البلدان حتى يستقر الرأي على بيعهم في أسواق النخاسة، وليس بعيدًا أن يسترق العبد في جزيرة صقلية ويباع في أسواق بغداد، أو ربما أسر في ثغور أرمينية وبيع في أسواق مصر، فإن منشأ الأسر لا يمنع إمكانية انتقال العبد وبيعه في مختلف أسواق النخاسة، هكذا كانت الحياة سابقًا.

نحن نرى بوضوح انسجام ظروف المرحلة التاريخية مع الأحداث الواردة في رواية الشيخ الصدوق رحمه الله سواء نظرنا إلى أحداث التاريخ نظرة إجمالية من بُعد حول الصراعات الداخلية والخارجية، أو نظرنا إلى تفاصيل الأحداث عن قرب، فكلما خطونا خطوة في تنقيب الأحداث نجد تطابقا دقيقا بينها.

◆◆◆

المرأة في الحضارة البيزنطية

كشأن النساء في الأمم السابقة كانت العفة فضيلة تميز المرأة الحرة سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة، فضلا عن كونها من بنات الأشراف، فكلما ارتفعت مكانتها زادت عفافا، وكان التبرج والابتذال شأن الإماء والجواري، ما كنّ يستحين ولا يخجلن من كشف الوجوه والتهتك والابتذال.

والمرأة اليوم -المسلمة وغيرها- لا تمثل ثقافة المجتمع السابقة، فلا ينبغي ربط صورة نساء هذا العصر بنساء العصور الماضية، بل إن عقول نساء اليوم هي عقول جواري الأمس في العفة والحياء، ولا أقصد سائر كمالات المرأة، فقد تصدر المعاصي والزلّات من نساء تلك العصور غير أنهن لا يهتكن ستورهن؛ لأن العفة والستر فضيلة وتركها من أعظم الموبقات الأخلاقية الاجتماعية قبل أن يأمر بها الإسلام.

لذلك تجد الراوي يسأل الإمام عن حكم نقاب المرأة في الصلاة، فإن الأصل عند الراوي أن تتنقب فأذن له الإمام بأن تكشف المرأة وجهها حال الصلاة[1]، وتجد الراوي الآخر يسأل الإمام عن حكم النظر إلى وجه المرأة التي يرغب في الزواج منها فيأذن له الإمام بذلك أيضًا[2]، فالأصل عنده أن لا ينظر إلى وجه الحرة، وفي أحكام الشهادات يسأل الراوي عن حكم الشهادة للمرأة بأنها

---

(١) وسائل الشيعة ٤/ ٤٢١

(٢) وسائل الشيعة ٢٠/ ٨٨

فلانة دون أن تظهر للرجال، أو إقرارها وهي ليست بمسفرة، فيجيبه الإمام عن كيفية شهادتها وإن كان يجب عليها الإسفار أو يكفي معرفتها بعينها وإن لم تسفر[1].

ففي كل هذه الموارد فإن الأصل عند الراوي أن تستر الحرة وجهها عن الأجانب، وسؤاله إن كان يجوز لها كشف وجهها في حالات معينة.

أما عند سؤال الراوي عن الإماء فإنه يسأل بالعكس إن كان يجوز لهن لبس القناع حال الصلاة[2] فإن الأصل عند السائل أن الأمة حجابها دون الحرة لكن في الصلاة هل تتشبه بالحرة في حجابها؟ وقد ورد أن الإماء إذا أردن التشبه بالحرائر تقنعن في الصلاة[3].

كل ذلك جئنا به لنستعرض ثقافة المجتمع في عفة الحرائر، وهذا ما نعرفه من ثقافة رائجة في الأوساط التي حفظت مكارم الأخلاق وتوارثت السلوك الاجتماعي القويم حتى في الأوساط غير المتدينة، فإنها قضية غير مختصة بالمتدين الذي يتلو القرآن ويواظب على الصلاة في وقتها، بل هي سلوك راجع إلى فطرة سليمة ترى العفة مكرمة والتبرج رذيلة، وما الحداثة التي راجت اليوم إلا شذوذ عن الفطرة والسلوك الاجتماعي الصحيح.

(١) وسائل الشيعة ٢٧/ ٤٠١

(٢) وسائل الشيعة ٤/ ٤٠٩

(٣) وسائل الشيعة ٤/ ٤١٢

يصف الرحالة ابن جبير نساء أنطاكيا قائلا: وزي نساء النصارى في هذه المدينة زي نساء المسلمين، فصيحات الألسن، متلحفات متنقبات.(١)

ومجتمع الروم ليس مختلفًا عن هذه الحال بطبيعته -لولا غلبة ثقافة المماليك وعقول الجواري على مجتمع اليوم-، وهذا ما عرضه التاريخ ودوّنه مؤرخو الحضارات، لا أقول بأن حجاب المرأة المسلمة في ذلك العصر هو عين حجاب الرومية، وإنما أقول بأن فضيلة العفة والحياء سمة مشتركة في المجتمعات المحترمة.

ومن نماذج ذلك تشريعات صدرت في أواخر القرن التاسع الميلادي في بيزنطة تمنع تصدي المرأة لكثير من المهام العامة منها أن تمثل غيرها في المحاكم سواء بصفتها محامية أو بصفتها أمًّا أو زوجة، ولا ترفع دعوى قضائية إلا من خلال ممثل لها، وقد عبر الإمبراطور ليو السادس عن أهمية هذا التشريع بأن الوصول غير المقيد للمرأة إلى محاكم القضاء يخلق إرباكا وتدميرًا للحدود الفاصلة بين الجنسين، ويعطي فرصة للنساء لأن ينكشفن بلا تحفظ أمام أعين الرجال، وإن القانون في حظره هذا إنما ينم عن الحياء والاحتشام اللذيْن يميزان المرأة. كما أنهم حظروا مثولها أمام المحكمة إلا في موارد خاصة، ولم تكن تعين المرأة وصية على القصّر إلا في حال الأرملة والجدة(٢).

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٦٣ وابن جبير عاش في القرن الهجري السادس.

(٢) المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية د. عبد العزيز رمضان ص٣١

وكان من المتعارف في المجتمع البيزنطي عزل المرأة في المنزل وهذا الأمر من العناصر الأساسية لفهم إيدلوجية المجتمع البيزنطي وأعرافه، وكانت النساء البيزنطيات منعزلات خجولات مغرمات بالعزلة والاحتشام، مكرسات أنفسهن بصورة مطلقة للواجبات الأسرية والدينية. كما أن خارج حجرات النساء كان متوقعًا منهن أن يرتدين غطاء الرأس الذي لا يكشف من وجههن سوى الأنف والعينين[١]، ولم يكن السير في الطرقات مسموحًا لبنات الأسر المحترمة، وإنما عاشت العذارى وربات البيوت مقصورات على دورهن لا يخرجن منها إلا وهن داخل محفات[٢] محجبة، اللهم إلا فئة استثنائية سمح لهن بمزاولة الأعمال العامة لظروف خاصة كزوجات بعض الأباطرة[٣].

هذا بالنسبة لعامة المجتمع البيزنطي، أما الطبقة الأولى في المجتمع فالأمر مختلف أيضًا، فكان مما توصف ماريا زوجة الإمبراطور ميخائيل السابع أنها لم تكن تتحدث مع أي رجل غير زوجها[٤]، كما قامت الإمبراطورة إيريني بتبديل حجابها الإمبراطوري بآخر أسود بسيط بعد وفاة زوجها[٥].

كما أننا لا ندعي أن جميع النساء المجتمع كن محجبات كالحجاب

(١) المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية د. عبد العزيز رمضان ص٦٢ و٦٤

(٢) المحفة مركب يشبه الهودج تحمل فيه المرأة.

(٣) الفن البيزنطي دراسة د. ثروة عكاشة ج١١ من موسوعة تاريخ الفن ص١٧

(٤) المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية د. عبد العزيز رمضان ص٦٥

(٥) المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية د. عبد العزيز رمضان ص٦٦

الإسلامي، لكن نؤكد على أن المجتمع لم يكن متهتكا، وقد كان الرجال والنساء خارج المنزل يرتدون العباءات، ولكن النساء كنّ يغطين الرأس والأكتاف(١).

وهنا لا بأس بنقل مشاهدة الرحالة المغربي ابن بطوطة حيث يقول واصفًا مجتمع القسطنطينية: وأهل المدينة من جندي وغيره صغير وكبير يجعلون على رؤوسهم المظلات الكبار شتاء وصيفًا والنساء لهن عمائم كبار(٢).

كل ذلك لا ينفي أن الطبقة الدنيا كانت تخرج إلى الشوارع دون مراعاة للآداب ومقتضيات الحياء يسدلن شعورهن على أكتافهن(٣)، ولعلهن اللواتي أنشد فيهن أبو فراس عند أسره في الروم:

ومُستَرْدَفاتٍ من نساءٍ وصِبيةٍ تَثَنَّى على أكتافِهِنّ الضفائرُ

لا يخفى أننا نشير إلى جانب العفة في المجتمع ولا ينبغي أن نلغي وجود المرأة في ميادين أخرى، أي أن تسليط الضوء على جانب واحد لا يعني انعدام سائر الجوانب في الحياة، فقد تجد المرأة البيزنطية تتصدى لبعض المناصب القيادية أو تصحب زوجها في المراسيم الرسمية، لكن بما لا يتعارض وطبيعتها الاجتماعية، كما أن فارق السن له دور، فالعفة التي في الفتيات والعذارى تختلف عن كبيرات السن من زوجات الأباطرة والنبلاء.

---

(١) راجع: Kazhdan, A.P. "Women at Home" Dop, Vol. 52,(1998), p.14

(٢) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، في وصف القسطنطينية.

(٣) الملابس والزينة في المجتمع البيزنطي د. شعبان حمزة ص٣٦

ومن الجوانب المهمة في بيزنطة أن التعليم لم يكن محظورًا على المرأة، بل كان البنون والبنات يتلقون التعليم، غير أن البنات مراعاة للعفة والحياء لم يكنّ يذهبن إلى الجامعات ولكنهن يحصلن على مستوى عال من التعليم باللجوء إلى المعلمين الخصوصين وكان التعليم الخصوصي متوفرًّا ومتيسرًّا للعوائل الثرية، سيما في القرن التاسع الميلادي حيث النهضة العلمية في بيزنطة[1].

والحديث عن المرأة البيزنطية أوسع من ذلك لكننا نقتطف مواضع الحاجة في بحثنا، وآخر نقطة تهمنا في البحث هو السن المتعارف للزواج لفتيات بيزنطة.

لقد شجع المجتمع البيزنطي على الزواج المبكر كسائر مجتمعات تلك العصور، وهو سلوك إنساني موافق للطبيعة البشرية من أن المرأة لم تولد لتعيش عزباء! فكان المتعارف أن تخطب وهي ابنة سبع سنين وتتزوج وهي ابنة اثني عشر أو ثلاثة عشر سنة، وهي السن التي أقرتها القوانين البيزنطية للزواج، كما أن الأسر البيزنطية كانت حريصة على تزويج بناتها مبكرًّا لأن البنت في هذا العمر تكون ناضجة بما يكفي لإتمام خطبتها، التي ربما كانت قبل السابعة من عمرها! لكن الزواج بمعناه التام ما كان يقع قبل وصولها إلى سن البلوغ.

وكان من العوامل التي تدفع الأبوين إلى التعجيل في تزويج الأبناء خشية موت الآباء سيما مع وجود الحروب وخوض القادة العسكريين لها فإنهم يرغبون

(١) العالم البيزنطي ج م هسى، ترجمة د. رأفت عبد الحميد ص٢٨٦

برؤية مستقبل أبنائهم مستقرًّا تامًّا.[١]

وكان قرار تزويج البنت بيد رب الأسرة، وكانت عائلة الزوجة هي التي تتكفل بنفقات الزواج والمهر، وليس للبنت نصيب في ميراث أسرتها وإنما تكون حصتها من الميراث مهرها الذي تقبضه للتزوج.[٢]

ونحن بعد اقتطاف هذه المعطيات من تاريخ الحضارة البيزنطية المفصل نجد أن كل ما ورد عن المرأة البيزنطية متطابق تمامًا مع ما أورده بشر بن سليمان النخاس في وصف ابنة قيصر الروم! فإن السيدة نرجسعليها السلام في الرواية تمتنع من السفور وتجزع لأي محاولة نظر إليها، وإن جدها القيصر كان قد أوعز إلى امرأة أن تعلمها الآداب فكانت تختلف إليها.

وأشارت الرواية إلى أن سن السيدةعليها السلام وقت زفافها في بيزنطة كان آنذاك ثلاث عشرة سنة، وكان القيصر هو المتكفل بشؤون الزفاف كما هو المرسوم في بيزنطة، وكان هو صاحب الرأي تماما في الرواية، فهو الذي قرر تزويج ابنته وتكفل بالزواج، ثم عزم على تزويجها ثانية من عريس آخر، وهذا يناسب الأحكام والأعراف في بيزنطة.

كل ذلك متطابق بشكل دقيق مع معطيات التاريخ البيزنطي، ومن أين

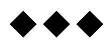
---

(١) المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية د. عبد العزيز رمضان ص١٤٢

(٢) للمزيد راجع: مقال أكاديمي بعنوان: حقوق المرأة في القانون البيزنطي (دراسة تاريخية)، لماهر شعاب عمار عبد السلام، منشور في المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية.

لشخص يريد ابتكار حكاية بهذه التفاصيل أن يعلم كل ذلك؟ أين له أن يعرف أن فتيات الطبقة الحاكمة كن يجلسن في القصور ويتلقين التعليم الخصوصي؟ وكيف لعربي حجازي يعيش في بغداد أن يعرف أن أسر البنات هم من كان يتكفل بمصاريف الزفاف؟

ألیست كل هذه التفاصيل دليل صدق الرواية وأن اجتماعها بهذا الانسجام والانضباط لا يصدر من كاذب؟!



في الأدب البيزنطي

تعرضنا في الفصل الأول إلى أكثر الملاحم الأدبية البيزنطية شهرة، وهي ملحمة ديجينيس، وأشرنا إلى أهمية التعاطي معها بقواعد النقد التاريخي، لمعرفة ما إذا كان لها ربط بالفعل بما نحن فيه.

لكن من القضايا المهمة أيضًا في الأدب البيزنطي مما له صلة ببحثنا اهتمام البيزنطيين بأدب الرسالة، فذكروا أن أوفر فروع الأدب النثري البيزنطي هو كثرة الرسائل، ما يعكس تلهف البيزنطي عليها وعنايته بها، كما تظهر بأحسن الصور موهبتهم في التعبير العملي عن الذات[1]، فالقارئ للأدب البيزنطي يستطيع تقسيمه إلى قسمين، أدب الرسالة، والآداب الأخرى، ولسنا نُعنى هنا بسرد أشهر المراسلات، ولكن يهمنا فقط التنويه بأهمية أدب الرسالة عند البيزنطيين.

هي ثقافة مجتمع يجب أن تفهم كما هي، فكما أن الأدب العربي القديم ينقسم إلى شعر عمودي وآداب أخرى (الرسائل والخطب وسجع الكهان والمقامات وغيرها من فنون) ما لو اجتمعت بمختلف العصور ووضعت في كفة لرجحت كفة الشعر العمودي عليها مجتمعة، فإن ثقافة البيزنطيين وآدابهم تتميز بأدب الرسالة.

وعليه فإن شخصًا لو أراد استعطاف قلب العربي واستمالته فأفضل وسيلة خطاب كانت هي الشعر، في الاستجداء من الملوك وبث الحماسة في

---

(١) الحضارة البيزنطية ستيفن رنسيمان، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ص٣٠١

الحروب والرثاء والعتاب والنصح والموعظة، العربي يأنس بالشعر في كل شيء حتى تحولت المتون العلمية إلى منظومات شعرية!

أما في الأدب البيزنطبي فإن النموذج الذي يقابل الشعر عند العرب هو الرسالة، تكتب لجميع الأغراض؛ فكانت رسائل البيزنطيين تشمل الأباطرة والبطارقة والأساقفة ورجال السياسة وعامة الناس؛ منها رسائل حكومية سياسية، ومنها دينية كنسية، ومنها رسائل تعزية، أو نصح وخواطر شخصية، ومنها أخوية ودية حميمية، تكتب كمطولات أو رسائل قصيرة، بحيث يظهر أدب الرسالة في أحسن الصور موهبة عند البيزنطي في التعبير العملي عن الذات، وكما ظهر إبداعهم الأدبي في الرسالة ظهر ضعفهم الأدبي في سائر فنون الأدب كالشعر فأكثر شعرهم فج ساذج[1].

ونحن نقرأ في الرواية أن الإمام الهادي عليه السلام (كتب كتابًا بخط رومي ولغة رومية)، ما يوحي بأن الراوي رأى اهتمامًا من الإمام عليه السلام في كيفية كتابة الكتاب فكرر المعاني بألفاظ أخرى.

ثم إن السيدة عليها السلام لما قرأت الكتاب أظهرت اهتمامًا بالغًا به؛ من بكائها وتقبيلها الكتاب ووضعه على عينيها؛ قد يبدو الأمر للوهلة الأولى طبيعيًّا، لكن عند التأمل تجد كيفية توجيه الخطاب من الإمام عليه السلام وكيفية استجابتها للرسالة أمرًا ملفتا ينم عن إحاطة الإمام عليه السلام بثقافات الأمم، وينم عن طبيعة رومية في

(١) الحضارة البيزنطية ستيفن رنسيمان، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ص٣٠٢

كيفية الاستجابة للرسالة.

هذه الصورة لم ترد في قضايا سائر أمهات الأئمة عليهم السلام؛ أما سيد الشهداء عليه السلام فلما أراد خطبة السيدة شهربانو عليها السلام فإنها اختارته في قصة مفصلة[1]

وكذلك وردت تفاصيل قصة شراء السيدة حميدة المصفاة عليها السلام والدة الإمام الكاظم عليه السلام ولم يرد فيها شيء من هذا القبيل، وقد ورد أيضًا خبر شراء السيدة نجمة عليها السلام والدة الإمام الرضا عليه السلام، وقد ورد شراء السيدة خيزران عليها السلام والدة الإمام الجواد عليه السلام وكل تلك الأخبار ليس فيها شيء من هذا القبيل، رغم وجود تفاصيل دقيقة في كثير من الروايات، من وجود ملك يحرس والدة الإمام الكاظم عليه السلام[2]، والنخاس الذي جاء بالسيدة نجمة والدة الإمام الرضا عليه السلام مر على امرأة من أهل الكتاب فأخبرته أن هذه الجارية تكون عند خير أهل الأرض وتلد منه غلاما ما يولد بشرق الأرض ولا غربها مثله[3]، والإمام الكاظم عليه السلام يوصي ولده الرضا عليه السلام أن يبلغ والدة الإمام الجواد عليه السلام سلامه[4].

---

(١) الكافي ١/ ٤٦٧ وإن كانت أصل القضية ثابتة، إلا أن جانبًا واحدا في الروايات فيه تعارض من جهة كون قدومها المدينة في خلافة الثاني أو الثالث، وتحقيق ذلك في محله.

(٢) الكافي ١/ ٤٧٧ ودلائل الإمامة ٣٠٨ وفيه أن النخاس حين باع الجارية واستلم صرة المال وفيها سبعون دينارًا، قال: لا إله إلا الله! رأيت البارحة في النوم رسول الله صلى الله عليه وآله وقد ابتاع من هذه الجارية بهذه الصرة بعينها.

(٣) الكافي ١/ ٤٨٧

(٤) الكافي ١/ ٣١٦

نحن نجد لكل قصة من قصص انتقال أمهات الأئمة عليهم السلام تفصيلها الخاص، وقصة ابنة قيصر الروم ليست حكاية متشابهة مثلا مع حكاية السيدة شهربانو كما توهم البعض، فالإمام عليه السلام العارف بكل لسان ولغة يتعامل في كل ظرف وفق الصواب وما تقتضيه المصلحة؛ قد يخاطب ابنة يزدجرد بالفارسية مباشرة[1]، فالفارسي يعتز بقوميته ولغته ويأنس كثيرًا بمخاطبته بها، أما البيزنطي فطبيعته مختلفة؛ كانت القومية والعنصرية فكرة غريبة في بيزنطة، كان مجتمعهم مسكونيًّا (يعني عالميًّا)، حتى امتزجت الدماء؛ الأرمن والرومان والعرب والإغريق، وحَكَم الإمبراطورية ملوكٌ من مختلف الأطياف، فكانت حضارة تضم العالم المتحضر بأكمله[2]، البيزنطي مختلف عن الفارسي، البيزنطي يأنس بالرسائل والمكاتبات. وهنا تجد وجهًا وجيهًا في مخاطبة الإمام عليه السلام ابنة القيصر في كتاب بالرومية محكم الخط واللغة.

جاء في عيون أخبار الرضا عليه السلام عن أبي الصلت قال: كان الرضا عليه السلام يكلم الناس بلغاتهم، وكان والله أفصح الناس وأعلمهم بكل لسان ولغة.

فقلت له يوما: يا ابن رسول الله إني لأعجب من معرفتك بهذه اللغات

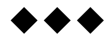
---

(١) روى الطبري في دلائل الإمامة ص١٩٦ أن أمير المؤمنين عليه السلام قال لوالدة الإمام زين العابدين عليه السلام يوم خطبتها: ما اسمك؟ فقالت: شاه زنان، فقال (بالفارسية): نه، شاه زنان نيست، مگر دختر محمد صلى الله عليه وآله وهي سيدة النساء، أنت شهربانويه، وأختك مرواريد بنت كسرى. قالت: آريه.

(٢) الحضارة البيزنطية ستيفن رنسيمان، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ص٢١٣

على اختلافها!

فقال: يا أبا الصلت أنا حجة الله على خلقه وما كان الله ليتخذ حجة على قوم وهو لا يعرف لغاتهم؛ أوما بلغك قول أمير المؤمنين عليه السلام: أوتينا فصل الخطاب؟! فهل فصل الخطاب إلا معرفة اللغات[1].



(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١/ ٢٥١

الزفاف المنحوس

تُحدِّث السيدة نرجس عليها السلام في الرواية عن تفاصيل حفل الزفاف مع ابن أخي القيصر وكيف أن الحفل انتهى إلى كارثة ولم يتم، فتقول عليها السلام: (أنبئك العجبَ العجاب؛ إن جدي قيصر أراد أن يزوجني من ابن أخيه -وأنا من بنات ثلاث عشرة سنة- فجمع في قصره من نسل الحواريين ومن القسيسين والرهبان ثلاثمائة رجل، ومن ذوي الأخطار سبعمائة رجل، وجمع من أمراء الأجناد وقواد العساكر ونقباء الجيوش وملوك العشائر أربعة آلاف، وأبرز من بهو ملكه عرشًا مسوغا من أصناف الجواهر إلى صحن القصر فرفعه فوق أربعين مرقاة. فلما صعد ابن أخيه وأحدقت به الصلبان وقام الأساقفة عكفًّا ونشرت أسفار الإنجيل تسافلت الصلبان من الأعالي فلصقت بالأرض وتقوضت الأعمدة فانهارت إلى القرار، وخرّ الصاعد من العرش مغشيًّا عليه؛ فتغيرت ألوان الأساقفة، وارتعدت فرائصهم، فقال كبيرهم لجدي: أيها الملك أعفنا من ملاقاة هذه النحوس الدالة على زوال هذا الدين المسيحي والمذهب الملكاني، فتطيّر جدي من ذلك تطيّرًا شديدًا، وقال للأساقفة: أقيموا هذه الأعمدة وارفعوا الصلبان وأحضروا أخا هذا المدبر العاثر المنكوس جده، لأزوج منه هذه الصبية فيدفع نحوسه عنكم بسعوده. فلما فعلوا ذلك حدث على الثاني ما حدث على الأول. وتفرّق الناس، وقام جدي قيصر مغتمًّا، ودخل قصره، وأرخيت الستور).

في هذه الفقرة صورة متكاملة لزفاف ملكي في قلب عاصمة بيزنطة،

شهده آلاف الحضور ولا يجرأ واحدٌ منهم على إذاعة خبره، لا في حياة القيصر ولا بعد وفاته، اللهم إلا تلميحًا وذلك -فضلا عن الخوف من سطوة القيصر- لأن فيها تضعيفًا للدين النصراني، ومثل هذه الحوادث وإن تسرّبت لمن عاصر هذه الحقبة إلا أن تدوينها وتوثيقها التاريخي أمر غير متيسر.

على سبيل المثال فإن زفافًا مهمًّا عقد في قصر المأمون في بغداد حين زوّج المأمون ابنته أم الفضل من إمامنا الجوادعليه السلام وهو ابن تسع سنين، تصلنا أحداث هذا الزفاف بشكل عجيب، حضور ضخم بدءًا من الوجهاء والأعيان، إلى قادة الجيش، إلى كبار الوزراء في البلاط، ثم يبدأ قاضي القضاة بمناظرة الإمام الجوادعليه السلام -والإمام إذ ذاك ابن تسع سنين وأشهر جالس على دست كدست المأمون في صفه وقاضي القضاة بين يديه- فيفحمه الإمام بجوابه، ويبين العجز والتلجج وانقطاع الحجة في وجه قاضي قضاة الدولة الإسلامية، فيتم عقد القران وتبدأ مراسم الحفل بعد المناظرة.

يدخل جماعة من الخدم يجرون سفينة من فضة بحبال من إبريسم على أصوات الملاحين في وسط القصر، والسفينة موضوعة على عجلة مملوءة من الغالية[1] لتخضب بها لحايا الخاصة، ثم طيبت منها العامة، ووزعت الجوائز ونصبت الموائد، وانصرف الناس.

---

(١) الغالية أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر، وسمي بذلك لغلاء ثمنه ما قد يبلغ آلاف الدراهم. راجع الكافي ٦/ ٥١٦ باب الغالية.

ثم إن المأمون سأل الإمام الجواد أن يتم المناظرة؛ ففصّل الإمام عليه السلام في جواب سؤال يحيى بن أكثم، وصارت النوبة إلى الإمام ليسأله، فسأل سؤالا يرتبط بأحكام النكاح -على فقه العامة- فأعجز القاضي مرة أخرى! وانفضت الجلسة وقد انقطعت حجة قاضي المِصر على يدي إمامنا الجواد عليه السلام وهو في هذا العمر.

فلما كان من الغد أحضر الناس وحضر أبو جعفر عليه السلام وسار القواد والحجاب والخاصة والعمال لتهنئة المأمون وأبي جعفر عليه السلام، فأخرجت ثلاثة أطباق من الفضة، فيها بنادق[١] مسك وزعفران، معجون في أجواف تلك البنادق رقاع مكتوبة بأموال جزيلة، وعطايا سنيّة، وإقطاعات، فأمر المأمون بنثرها على القوم من خاصته فكان كل من وقع في يده بندقة أخرج الرقعة التي فيها والتمسه فيعطى ما التمسه في الرقعة، ووضعت البِدر[٢]، فنثر ما فيها على القواد وغيرهم، وانصرف الناس وهم أغنياء بالجوائز والعطايا[٣].

ورغم أن الطبري أشار إلى تزويج الإمام الجواد عليه السلام من أم الفضل[٤] في

(١) البنادق يقصد منها كور مجوفة تحشى الرقعة في داخلها.

(٢) البِدَر جمع بَدْرة، وهي كيس كبير لحفظ المال.

(٣) راجع الخبر مفصلًا في البحار ٥٠/ ٧٤

(٤) وذلك في أحداث سنة اثنتين ومائتين، وكان ذلك قبل شهادة الإمام الرضا عليه السلام والإمام الجواد عليه السلام في المدينة والمأمون في خراسان. ثم إن زواج الإمام الجواد عليه السلام منها جرى على أرض الواقع بعد هذه الحادثة بعدة سنوات. وكان من المتعارف في تلك العصور تسمية الزوج للزوج قبل بلوغها، بل إجراء العقد الشرعي قبل البلوغ، ويكون حفل التزويج متأخرًا.

نفس الموضع الذي أشار فيه إلى تزويج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل، لكنه ذكر لاحقًا تفاصيل الزفاف الملكي للمأمون من بوران بنت الحسن بن سهل[١]، كما نقلت التواريخ الإسلامية تفاصيل حفلات الزفاف الملكية المتعددة في العصر العباسي إلا زفاف الإمام الجوادعليه السلام من ابنة المأمون فإنهم ذكروا تزويجها منه ولم يذكروا كيفية حفل الزفاف!

والمؤكد أن مقتضيات التعتيم على حادثة زفاف الإمام الجوادعليه السلام من ابنة المأمون كثيرة فلا ينبغي أن يوثقها التاريخ، فمن جهة كانت هزيمة لقاضي القضاة ولكبار بني العباس، ومن جهة أخرى كان حفل زفاف ملكي في البلاط العباسي لعدو من أعداء البلاط! لكن كيف تسرب هذا الحدث؟

راوي الخبر هو الريان بن شبيبرحمه الله وهو من شيعة أهل البيتعليهم السلام وكان حاضرًا في هذا الحفل -ولعله الشيعي الوحيد يومها!- وكان الريانرحمه الله خال المعتصم العباسي، أي أنه كان صهر هارون الرشيد، ولهذه القرابة كان تواجده في قصور بني العباس طبيعياً فأخته أم المعتصم العباسي لعنه الله.

في الحقيقة لولا وجود راوٍ للخبر بهذه المواصفات لانقطع خبر هذا الزفاف الضخم من التاريخ، ومثل هذا حوادث كثيرة حفظها التاريخ تحت ظروف صعبة -كورود إمامنا الباقرعليه السلام إلى الشام لملاقاة هشام ثم مناظرة زعيم النصارى- وأكثر منها ما ضيّعه التاريخ!

---

(١) في أحداث سنة عشر ومائتين.

إن مقتضيات ضياع مثل حادثة الزفاف المنحوس لابنة القيصر من التاريخ كثيرة رغم كثرة شهودها، نعم قد يتسرب الخبر كحديث يقال وينسى، أما التوثيق فذاك صعب المنال تحت هذه الظروف.

أنت ترى القيصر والحاكم الفعلي للإمبراطورية هو المنكوب في الحادثة مع أخيه قائد القوات المسلحة، فمن يجرؤ على تسقيطهما؟ وترى أن ما جرى كان بحضور الأسقف الأعظم وهؤلاء الرهبان، فمن منهم يذيع على الرهبان ما وقعوا فيه؟! أم ترى أنه ينبغي أن يذاع في البلد أن الصلبان تسافلت وأن النصرانية آيلة للزوال؟! أو على النصارى الذين دونوا تاريخ بيزنطة أن يكتبوا ذلك؟!

لذلك يجب أن نفهم أننا أمام حادثة يصعب توثيقها في التاريخ البيزنطي مفصلّة، وإنما يجب أن نستل قرائن صدقها بتحليل عبارات الرواية لنرى مدى تطابق تفاصيل الرواية مع طبيعة القصور البيزنطية، أو بقراءة ما بين سطور التاريخ كما سيأتي في الحديث عن الزلزال وموعظة الأسقف الأعظم بعد الزلزال وما أصاب القسطنطينية من عواصف في تلك الأيام، ونقرأ مدى ارتباطها بالحادثة، فنعرف حينها مدى صدق الراوي.

ومن قرائن صدق الرواية ما تقدم من كون عمر الزفاف في بيزنطة يناسب العمر المذكور للسيدة نرجس عليها السلام في الرواية، ومنها أيضًا ما جاء في الرواية من أن القيصر وهو جد السيدة نرجس عليها السلام كان قد عزم على تزويجها من ابن أخيه وأنه أعد كل شؤون الزفاف، وهذا متوافق مع العرف البيزنطي من تكفل ذوي

الزوجة بشؤون الزفاف كما تقدم.

لكن مع ذلك فهناك مزيد من الرموز يمكن تفكيكها؛ الأرقام والأوصاف التي في الرواية لم ترد عبثًا، ولا وصف الصلبان والأعمدة وحالة الزفاف الملكي أمر اعتباطي، بل هي من الانضباط بمكان، وإن للنحوسة في فشل هذا الزفاف وجوهًا لاسيما بعد فهم الذهنية المسيحية التي ورثت الفلسفة اليونانية والعقيدة النصرانية وما للرمزية من شأن في الفكر البيزنطي.

الواضح في الرواية أن هناك كارثة نزلت أثناء حفل الزفاف، ولا يظهر أنها بالحسابات المادية كانت كارثة عظمى أو زلزالا مدمرًّا، وإنما شيء لحق بالقصر وهدأ، ثم عاد مرة أخرى للقصر فتفرق الناس.

يمكن أن يكون ذلك هزة أرضية أو ريحًا عاتية أو شيئًا من هذا القبيل، ومن البعيد أن يكون زلزالا مدمرًّا يقع ولا يتفرق الناس هربًا فور وقوعه. هذا ما ستأتي مناقشته بالتفصيل. لكن لنا وقفات هنا حول سائر التفاصيل؛ العرش والأعمدة والصلبان، الرموز والعلامات ونشر أسفار الإنجيل...

يقول إميل برييه[1]: لقد خلق مع الفن المسيحي المبكر عالم معنوي بينه وبين العالم الحسي صراع أشبه ما يكون بذلك الصراع بين الروح والجسد[2]. وترجع هذه الحالة إلى انطلاق البيزنطيين من الفلسفة اليونانية التي ورثوها عن

---

(١) فيلسوف ومؤرخ فلسفة وأستاذ جامعي فرنسي.

(٢) الفن البيزنطي دراسة د. ثروة عكاشة ج١١ من موسوعة تاريخ الفن ص٤٨

أسلافهم؛ ما جعل الطبيعة المرئية الملموسة ليست إلا وسيلة إلى الروحانية، وليس الفن إلا وسيلة للتأمل وإيقاظ الروح لا لإشعال الذكاء وإمتاع الذوق.

من ذلك على سبيل المثال شيوع القباب في بيزنطة فإن ذلك لم يكن وليدًا لأسباب إنشائية عمرانية فحسب، بل كان وليد أفكار رمزية أشد أهمية من المقاصد المعمارية؛ السماء الصافية بزرقتها نهارا ونجومها ليلا تبدو للناظر كقبة أو نصف كرة فتسمى القبة السماوية، ومنها انطلق النصارى في بناء كنائسهم فجعلوا القبة تتوسط مجاز الكنيسة رامزة إلى السماء، تتوسطها أيقونة صورة المسيح ضابط الكل[1]، أما الأعمدة فهي جزء من إحساس الروح البشرية بالرغبة للارتقاء نحو السماء والارتفاع عن الأرض وأوزارها، وكانت الأعمدة تزين القسطنطينية لا أعني أنها أساسات يتقوم بها البناء، بل أعمدة تراد بنفسها، قد يكثر عددها وتثبت عليها الأسقف دون حاجة هندسية لذلك وإنما بغرض روحاني، ولاختيار عدد مخصوص ذي رمزية معينة، وربما وجد العمود منفردًا دون أن يرتفع فوقه بناء، كالأعمدة التي ملأت شوارع القسطنطينية؛ منها عمود كان يقع قبالة كنيسة آياصوفيا مصنوع من الرخام المكفت بالنحاس الأصفر، والمربوط بأشرطة قوية من الحديد، ويبلغ قطره قدر استدارة أذرع ثلاثة رجال وارتفاعه ثلاثمائة قدم، وكان يقع أعلاه قاعدة منبسطة من الحجر نصب فوقها تمثال أحد أباطرة الروم، ومنها أعمدة النساك العموديين، كان الناسك النصراني يبني عموده ويعيش فوقه

(١) الفن البيزنطي دراسة د. ثروة عكاشة ج١١ من موسوعة تاريخ الفن ص١١٠

مدى حياته يتعبد هناك حيث يكون أقرب إلى السماء[١]، ومنها تجد الكنائس مليئة بالأعمدة، وليس شرطًا أن تكون لحمل الأسقف.

كما ذكروا أن كنيسة آياصوفيا فيها أعمدة ضخمة مصنوعة من الرخام والأحجار الثمينة، وهم يعتقدون أن ليس فيها عمود إلا وله قدرة على الشفاء![٢]

ثم إن الأعمدة تحمل جانبًا معنويًّا آخر كالذي يحمله الصليب من آلام، فإن المسيح قبل أن يرفع على الصليب ربط على عمود ليجلد بالسياط كما جاء في إنجيل مرقس: (فابتدأ قوم يبصقون عليه، ويغطون وجهه ويلكمونه ويقولون له: تنبأ. وكان الخدام يلطمونه)[٣]؛ فبقي لهذا المشهد أثره في الوجدان المسيحي، ولاتزال النصارى تحتفظ ضمن جملة من الذخائر المقدسة بعمود يزعمون أنه هو عينه الذي جلد عليه السيد المسيح!

ومنه يتضح وجه من وجوه الحكمة في نهي الشارع المقدس عن زخرفة المساجد وتعلية المنائر، إذ ورد أن أمير المؤمنين عليه السلام مر على منارة طويلة فأمر بهدمها، ثم قال: لا ترفع المنارة إلا مع سطح المسجد[٤].

---

(١) أول من ابتدع هذا الصنف من التنسك هو القديس سمعان العمودي من رهبان سوريا، كان يعيش فوق عمود يبلغ طوله أكثر من خمس عشرة مترا، وأمضى أكثر من ثلاثين عامًا فوق عموده حتى مات في القرن الخامس الميلادي.

(٢) بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، تأليف أ.د. طارق المنصور ص٢٨، ص٣٢

(٣) إنجيل مرقس ١٤/ ٦٥

(٤) تهذيب الأحكام ٣/ ٢٥٦

وروي أنهعليه السلام رأى مسجدًا بالكوفة وقد شرّف[١]، فقال عليه السلام: كأنه بيعة[٢]، إن المساجد تبنى جمًّا لا تشرّف[٣]. وروي أنه عليه السلام كان يكسر المحاريب[٤] إذا رآها في المساجد ويقول كأنها مذابح اليهود[٥]، وروي عن الباقر عليه السلام أنه كان يكره الصلاة في المساجد المصوّرة[٦]، وورد أن من علامات آخر الزمان أن تزخرف المساجد كما تزخرف الكنائس[٧].

وهذه الروايات تشير إلى كبرى النهي عن التشبه بالنصارى وما كان شعارًا من شعارات الضلال والباطل في ذلك الزمان يميز دور عبادتهم؛ من زخارف وأيقونات وأعمدة عالية وغيرها حيث اتسعت رقعة الدولة الإسلامية

---

(١) تشريف المسجد أن يعمل فيه شرفة، وهي متعارفة في بناء الكنائس وكانت الشرف في الطابق الثاني سابقًا في الكنائس مخصصا للنساء مراعاة لسترهن.

(٢) البِيعة: كنيسة النصارى، وجمعها بِيع.

(٣) تهذيب الأحكام ٣/ ٢٥٣

(٤) ليس المقصود المحاريب المتعارفة اليوم فإنها داخلة في الحائط لا تكسر إلا بتكسير الحائط! وإنما المقصود منها حجرة خاصة تعمل لصلاة الإمام فيها تحفظًّا من اغتياله.

مضافًا إلى ذلك فإن النصارى البروتستانت يعترضون على سائر النصارى لأن المذبح في كنائسهم يشبه مذابح اليهود.

راجع الحدائق الناضرة ٧/ ٢٨١، وفيه أدلة استحباب المحاريب المتعارفة في مساجد المسلمين.

(٥) تهذيب الأحكام ٣/ ٢٥٣

(٦) الكافي ٣/ ٣٦٩

(٧) تفسير القمي ٢/ ٣٠٥

وتأثر المسلمون بفنون العمارة عند الأديان الأخرى.

أما الصليب فقد هيمن على جوانب الحياة في بيزنطة؛ منه ما نحت على أسوار العاصمة وجدران المنازل والجسور والأعمدة ورسم على جوانب الشوارع ومنه ما يتقلده البيزنطيون على أعناقهم أو يطرزون به ثيابهم، لطرد الشرور المادية والروحية وليأتي لهم بالمعجزات والشفاء من الأمراض، ومنه ما هو كبير الحجم قد يرصع بالدرر والجواهر يرفع في الأعياد وحفلات الزواج، ومنه ما يسار به في الطرقات في مواكب عامة لتبارك الجدران والقصور والمنازل وكل زوايا المدينة، أو لدفع البليات مع أي كارثة طبيعية، ومنه ما يوضع في الحقول لحمايات المحاصيل، ومنه ما يتقدم رايات الجيوش لينصرهم على الأعداء[1].

ثم إن من مظاهر الابداع الفني في بيزنطة زخرفة العروش الملكية، فكان يوضع للإمبراطور عرش مذهب، وكان يوضع إلى جانب عرش الإمبراطور عرش آخر خال هو عرش الملك الحق وهو المسيح، وربما وضعت عليه أيقونةٌ مقدسةٌ أو إنجيلٌ مفتوحٌ[2]، وكانت هناك عروش أخرى للإمبراطور، كعرش يحمل على العربة الإمبراطورية المذهبة تحوطه أربعة أعمدة تحمل مظلة يبدو وكأنه

(١) المجتمع البيزنطي ص١٥١ تحت مقال بعنوان: الرفات والأيقونات في المعتقد الشعبي البيزنطي، للأستاذ مصطفى محمود الشعيني

(٢) الفن البيزنطي دراسة د. ثروة عكاشة ج١١ من موسوعة تاريخ الفن ص١١

كله صنع من الذهب[1]، والإبداع في العروش تطور أكثر مع انتصار الأيقونيين ودعم الحركة الفنية، وبعد النهضة العلمية في القرن التاسع الميلادي، سيما مع دخول عالم الرياضيات الشهير ليو، الذي استطاع تصميم عرشٍ خاص بالإمبراطور بآليات أوتوماتيكية تجعله يرتفع فجأة في الهواء بتقنية دفع المياه وذلك لإبهار الضيوف والسفراء بمقام الإمبراطور[2]، فكان الاهتمام بهذه المظاهر مما يميز بيزنطة لا سيما في هذه الحقبة الزمنية.

والعرش في حقيقته مكان الملك، يتربع عليه الإمبراطور، وأحق منه بالعرش السيد المسيح. والزواج في المسيحية هو الإكليل المقدس وهو سر من أسرار الكنيسة السبعة[3] وتعبير مكثف عن الحضور الإلهي في هذا العالم، وليس مجرد عقد له صفة قانونية وشرعية يقيد حرية الرجل والمرأة، ولكنه عهد أبعد من أن يكون واجبًا والتزاما بل هو موقف حياتي يتخطى لغة القانون والشرع، لأن استسلام الزوجين الواحد للآخر أعلى من كل شيء، وكون الزواج عهدًا يعني أنه مبني على علاقة أزلية غير قابلة للانحلال، وشركة ثنائية لا تقبل زيادة وتعددًا!

لكل سر من أسرار الكنيسة فلسفته وبُعده اللاهوتي حسب معتقدهم،

---

(١) بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، تأليف أ.د. طارق المنصور ص٢٩

(٢) الحضارة البيزنطية ستيفن رنسيمان، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ص٢٢٥

(٣) والأسرار السبعة هي: المعمودية، الميرون، التوبة والاعتراف، الإفخارستيا، مسحة المرضى، الزيجة، الكهنوت.

فمثلا في سر الإفخارستيا (المناولة) يتشبع الجسم الإنساني من ألوهية المسيح ويمتلئ حبورًا.

وفي سر الزواج أو الإكليل المقدس يشهد النصارى حضور جسد المسيح السري في حياة الرجل والمرأة، فيهتفون بفرح وحبور، ويعتقدون أيضًا أن الرجل والمرأة حينما يشعران بالانسجام التام واستسلامهما الواحد للآخر يكتشفان الله في حياتهما ويشتركان في كهنوت السيد المسيح، وإن اتحاد الزوجين ليس من هذا العالم وإنما صورة الله الحقيقية! ويكون الأسقف أو الكاهن هو الخادم الحقيقي الذي يمنح هذا السر للزوجين وهو الذي يكلل العروسين ليقبلهما في عداد أبناء الملكوت، ويوشحهما بحلة كهنوت المسيح، ويعيش الزوجان شركة حميمة مع روح القدس الواهب للحياة الحاضر في كل مكان المالئ لكل شيء.

ولكل طقس من طقوس الزفاف المسيحي البيزنطي رمزيته الخاصة؛ فالخاتم رمز الاتحاد، والكأس المشتركة ترمز إلى أن الحياة التي كانت تسري في جسدين منفصلين ستتدفق الآن في جسد واحد، وترمز إلى أن الزوجين سوف يشهدان في حياتهما لتحقيق اتحاد المسيح بالكنيسة. أما الإكليل (التاج) يوضع على رأس الزوجين كرمز إلى أن الزواج حالة ملوكية في الفكر المسيحي، لذلك يقوم الكاهن بتكليل الزوجين ثلاث مرات باسم الأب والابن وروح القدس، ويضع التاج على رؤوسهما، معتقدين حضور الثالوث المقدس في حفل الزواج أو حفل الإكليل المقدس، وهي حالة تشبه تتويج الملوك تمهيدًا لجعله سائس المملكة، والزواج مملكة مصغرة يسوسها الزوج والزوجة، ومن جانب آخر فإن الكاهن

هو من يضع هذا الإكليل على رأسيهما في إشارة إلى أن الزواج وإباحة هذه العلاقة تكون بمنحة وعطية من الكنيسة. كما يقوم الكاهن بوضع البرنس وهو من حلل الكهنة على الزوج لأن الزوج كاهن الأسرة، فإن الزواج كنيسة مصغرة.

هذا ومن مراسم الزواج أيضًا تقدم الرجل على المرأة فلا يدخلان معًا[1] لأن الرجل رأس المرأة، وهو المدبر لشؤون الأسرة وعلى المرأة الانصياع لزوجها دائما، ولكنهما يخرجان بعد إتمام مراسم الإكليل المقدس معًا لأنهما كيان واحد.

والاتحاد بإنسان آخر ترقٍّ جديد للنفس، فالأنا الذاتية تسعى دومًا للترقي نحو السمو الإلهي إلى الله نفسه من خلال العلاقة الحميمة بالآخرين من خلال إنشاء جماعة إنسانية منسجمة، والمظهر المادي لهذا الترقي هو ارتقاء العروسين المراقي نحو كرسيهما لبلوغ الحب اللامتناهي والعلاقة الأزلية.[2]

هذا والتفاصيل في رواية الشيخ الصدوق رحمه الله كلها تشير إلى طقس نصراني أرثوذوكسي بيزنطي دقيق، يليق بزفاف ملكي استثنائي لحفيدة القيصر، من تقدم الزوج في مراسيم الزفاف إلى ارتقائه العرش في حالة ملكية، إلى قيام الأساقفة عكفا، فإنهم في تلك الحالة المقدسة يمضون في مراسمهم الخاصة يتلون

(١) وهذا من مراسم الزفاف المسيحي التي ألغيت في العصور المتأخرة.

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع كتاب: لاهوت الإكليل، للمطران يوسف ريا، والأب جوزيف معلوف البولسي، وراجع أيضًا كتاب: اللآلئ النفيسة في شرح طقوس الكنيسة، القمص يوحنا سلامة ج٢ ص٩٣

صلوات الإكليل المقدس، ويطوف بعضهم حول المذبح مع البخور في مراسيم لاهوتية متأملين حضور الرب في الحفل، ولا تخلو يد كل راهب من صليب يحمله، والصلبان تملأ المكان المقدس.

ثم إن المراقي الأربعين لبلوغ العرش ليست جزافًا فإنه -وكما تقدم- لكل شيء في الفكر المسيحي رمزيته، والأربعون للترقي تناسب الفكر المسيحي فإن المسيح صعد إلى الهيكل بعد أربعين يومًا من ولادته، وبعد تعميده صام أربعين يومًا، وحصلت قيامته بعد أربعين ساعة من دفنه، وصعد إلى السماء بعد عيد الفصح بأربعين يومًا.

والأربعون[1] -في الفكر المسيحي- هو رقم عشرة مكررا أربع مرات، أي أنه يشير إلى المشارق والمغارب والشمال والجنوب، أي أنه يشير إلى كل شيء والعالم اللامتناهي، كما يشير في نفس الوقت إلى الصليب، ورقم العشرة يشير إلى الكمال العددي ومن مضاعفاته تتكون جميع الأعداد الكبيرة كالمائة والألف وهكذا[2].

وهكذا يقال بأن المسيح في صومه الأربعين صام أربعين يومًا من أجل المسكونة كلها، وفي بقائه أربعين يومًا على الأرض بعد قيامته فإن ذلك لأجل حياة المسكونة كلها، ومرادنا أن القيصر حين نصب أربعين مرقاة لوصول ابن أخيه إلى

(١) رمزية ومعاني الأربعين غير مختصة بالنصرانية، بل هي موجودة في كثير من الملل عامة وفي الأديان السماوية خاصة.

(٢) راجع: المسيح مشتهى الأجيال للأنبا بيشوري ص٧٦١

عرش الزفاف أشار إلى علاقة زوجية دائمة لامتناهية ذات سلطان شامل لكل شيء.

كما أن استضافة ثلاثمائة من نسل الحواريين والرهبان والقساوسة ليس اعتباطًا، فلعل ذلك تيمنا بالرهبان الذين اشتركوا في مجمع نيقيه المسكوني الأول وأمضوا عقائد المسيحية الملكانية.

وهناك وجه آخر لمعرفة فلسفة أعداد ضيوف الحفل، ولابد من كتابة الأعداد الإغريقية[1] القديمة وما يقابلها بالعربي، ثم التعليق عليها:

9 θ	8 η	7 ζ	6 ϛ	5 Ε	4 Δ	3 Γ	2 β	1 α
90 ϟ	80 π	70 ο	60 Ξ	50 Ν	40 μ	30 λ	20 κ	10 ι
900 ϡ	800 ω	700 ψ	600 Χ	500 Φ	400 υ	300 τ	200 σ	100 ρ
9000 ͵θ	8000 ͵η	7000 ͵ζ	6000 ͵ϛ	5000 ͵ε	4000 ͵Δ	3000 ͵Γ	2000 ͵β	1000 ͵α

ومن بين كل هذه الرموز اختيرت أرقام محددة: ثلاثمائة من نسل الحواريين ومن القسيسين والرهبان، وسبعمائة رجل من ذوي الأخطار، وأربعة

(١) كانت اللغة الرسمية والرائجة في بيزنطة بعد هرقل الإغريقية (اليونانية)، أما في كنيسة الغرب في روما فكانت اللغة هي اللاتينية، والأعداد اللاتينية المعروفة تختلف عن أعداد بيزنطة في القرون الوسطى.

آلاف من أمراء الأجناد وقواد العساكر ونقباء الجيوش وملوك العشائر[١].

والثلاثمائة بالإغريقية تكتب (τ) وهي علامة الصليب، والسبعمائة تكتب (ψ) وهي إما شمعدان يحمل ثلاثة شموع أو صليب يحمل ثلاثة شموع، وأما الشموع فهي تستخدم في مناسبات متعددة كالتناول والعماد والإكليل، وعند إيقاده تقال صلوات خاصة، ويستخدم في الكنائس شمع العسل إشارة إلى وجوب التحلي بالفضائل كالنحلة التي تجتهد في جمع العسل من زهور كثيرة وبساتين متعددة، والشمعدان يرمز إلى ملائكة القيامة، أما الصليب بثلاثة شموع فإنه الذي يستعمله الكاهن في صلاة افتوني ناي نان، يشير بحمله صليبًا ذا ثلاثة شموع إلى أن الذي كان على الصليب هو نور العالم، وهو واحد من الثالوث المقدس؛ نور من نور[٢]، والأربعة آلاف تكتب (͵Δ) والمثلث رمز الثالوث المقدس، أي إله واحد في ثلاثة أقانيم.

لا يبدو أن اختيار أعداد حضور حفل الزفاف كان جزافًا، فكل شيء مقصود في الفكر المسيحي، ولا ينبغي أن تقرأ الرموز في التراث المسيحي كما نقرأها في تراثنا، الرمزية عندهم ترجع إلى فكر ومبدأ أن الفن والحس غرضه التسامي على المادة لبلوغ حالة روحانية، وعلى ذلك فإنك ترى الأيقونات البيزنطية ثنائية الأبعاد، ليس لكون فن الرسم متأخرًّا، وإنما انطلاقًا من مبدأ أن

(١) لاحظ أن العرب تقول أمراء أو شيوخ العشائر، أما التعبير بملوك فهو تعبير بيزنطي.

(٢) اللآلئ النفيسة في شرح طقوس الكنيسة، القمص يوحنا سلامة ج١ ص١٠٧

بُعد الأيقونة الثالث هو عمق أو علو روحانية صاحب الأيقونة[١].

ولتأنس أكثر بهذا التعاطي مع الأعداد إليك شرح بعض النصوص الواردة في العهد القديم من الكتاب المقدس[٢]، جاء فيه ضمن خبر حكاية قتال القاضي جدعون للمديانيين: فَقَالَ الرَّبُّ لِجِدْعُونَ: بِالثَّلاَثِمِئَةِ الرَّجُلِ الَّذِينَ وَلَغُوا أُخَلِّصُكُمْ وَأَدْفَعُ الْمِدْيَانِيِّينَ لِيَدِكَ، وَأَمَّا سَائِرُ الشَّعْبِ فَلْيَذْهَبُوا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَكَانِهِ.

جاء في تفسير الكتاب المقدس ما نصه: (ويرى القديس أغسطينوس أن رقم ٣٠٠ يشير إلى الصليب، لأن حرف (τ) الذي يحمل شكل الصليب يشير إلى رقم ٣٠٠ في اليونانية. ويقدم لنا القديس أمبروسيوس ذات التفسير إذ يقول: اختار جدعون ٣٠٠ رجلاً للمعركة لكي يظهر أن العالم كان يجب أن يتحرر من هجمات العدو الخطيرة بسر الصليب، لا خلال الجماهير الغفيرة، فإن حرف (τ) في اليونانية يستخدم لرقم ٣٠٠ ويحمل شكل الصليب)[٣].

وقعة حادثة قتال جدعون للمديانيين قبل ميلاد المسيح مع ذلك فإن مفسري الإنجيل يرون اختيار الثلاثمائة رجل إشارة إلى الصليب، قد يكون غريبًا على من يقرأ نصوص النصارى بذهنية عربية أن يجد ربطًا بين هذه الرموز والأعداد، غير أن العقل النصراني يختلف في تعاطيه للأمور، إنهم يرون الكنيسة

(١) المسيح مشتهى الأجيال للأنبا بيشوري ص٧٥٩

(٢) العهد القديم، سفر القضاة، الإصحاح ٧

(٣) تفسير سفر القضاة، الإصحاح ٧ تفسير القمص تادرس يعقوب

ذات وجود مادي يقوم بأعمدة، تعبر عن الكنيسة المعنوية التي تمثل النصرانية ككل وأعمدتها الرسل وتلامذة بولس ونحو ذلك؛ لذلك فإن عدد الأعمدة في الكنائس لا يتوقف على قول المهندس المعماري، بل على الرؤية اللاهوتية للأسقف أو الكاهن الذي يقرر أن هذه الكنيسة يجب أن تتقوم بعدد معين من الأعمدة، وربما امتلأ المبنى أعمدة لا تحمل سقفا ولا ترفع شيئًا، ولكنما العمود يراد في نفسه!

إذا تمت قراءة الحدث بالذهنية البيزنطية، وتكاملت الصورة المقدسة في الفكر المسيحي؛ الصليب، الأعمدة، العرش، تلاوة الصلوات ونشر أسفار الإنجيل وعكوف الأساقفة، المراقي نحو العرش، التيمن بالأعداد والرموز، مباركة الرب وحضوره ساعة الإكليل المقدس... قبل أن يتم كل ذلك يتزلزل قصر القيصر وتتسافل الأعمدة والصلبان والعرش ويخر العريس مغشيًّا عليه! كانت آية كونية أربكت الأساقفة فتغيرت ألوانهم وارتعدت فرائصهم ورأوها نذير زوال الدين من رأسه!

نحن أمام نص نصراني بيزنطي محكم لا يحسن سبكه وضبطه إلا مقيم في وسط القصر مراقب للحدث يعيشه لحظة بلحظة، فإن انسجام الأحداث وترابطها ودقة رموزها بمكان لا يحتمل الوضع والتلفيق.

هل يمكن لنخاس يقيم في بغداد أن يختلق حكاية من هذا النوع، يفترض حدثًا يتزلزل له القصر ثم تتساقط الأعمدة فيأمر القيصر بنصبها، فتنصب من ساعتها وتعود الأمور كما كانت؟ من أين سيخطر في الذهن العربي أن العمود

ينصب وسط القصر لا ليحمل شيئًا، فإذا سقط العمود لا ينهار القصر وإنما يعاود الأساقفة نصبه؟ ومن أين علم أن الأساقفة هم من يقيم الأعمدة لا الخدم والحشم؟!

كل هذه الأحداث تجعل كبير الأساقفة يفسر الموقف على أنه نحوس تلاحق الحفل وتؤذن بزوال المذهب الملكاني، بل النصرانية من رأس! ثم إن اهتزاز الصلبان ينذر بغزو وسبي[١] وهو ما لا يجرأ كبير الأساقفة على التصريح به أمام القيصر، لكن أخذته الرِّعدة وطلب الاستعفاء وإلغاء هذا الحفل.

ترى هل كان للأزمات الداخلية علاقة بتطير كبير الأساقفة؟ لقد تسنم الأسقف الأعظم (بطريك القسطنطينية) منصبه جرّاء خلاف شخصي بين القيصر والإمبراطور من طرف، وبين البطريك السابق من طرف آخر، ما أدى بالقيصر أن يعزل البطريك السابق (أغناطيوس) وينصب بطريكا جديدا (فوتيوس)، ما قاد إلى شقاق في الكنيسة البيزنطية، وكان أتباع أغناطيوس يظنون عزله سببًا لكل نحس يلاحق القسطنطينية.

ولعل سبب تطير الأسقف ما حل في عهد باراداس من الرجوع إلى عبادة الأيقونات، والانقلاب على الواقع البيزنطي، وما كان يراه اللاأيقونيون ضربًا من الوثنية، وقد سبق أن وقع زلزال في القسطنطينية إبان تحريم عبادة الأيقونات فنسب ذلك إلى ما كان يقع من الأيقونيين في بيزنطة وأن الغضب سيحل على

---

(١) ستأتي الإشارة إلى كلام كلام البطريك توماس في هذا الموضوع.

الشعب إن استمر في تقديسه للأيقونات.(١)

ولكنني لا أرى تطير كبير الأساقفة يرجع إلى هذين العاملين، فإن العودة إلى الأيقونية هي عودة إلى الملكانية التي أقرها مجمع نيقيه ومجمع خلقيدونية المسكوني، وكان كبير الأساقفة متطيرًا مما ينذر بزوال المذهب الملكاني، كما أن النحوس في الرواية راجعة إلى الزفاف ولا ترجع إلى كبير الأساقفة، ولو كانت النحوس راجعة إلى الخلاف على منصب الأسقف الأعظم لترك الأسقف منصبه بنفسه ولا علاقة للإعفاء من حفل الزفاف بذلك.

وإنما تطير كبير الأساقفة لنفس هذا الزفاف، وهذا ما بث في نفسه الخوف، فإن المعطيات توحي بأن القيصر كان مهتمًّا بحفيدته، يرجو لها مستقبلا خاصًّا، ويظن في ذريتها الملك والسلطان(٢)، فأحب القيصر أن لا يخرج هذا الملك عن أسرته، فعمد إلى زواج الأقارب، وزواج الأقارب محرم في بيزنطة، لكن الملوك تجاهلوا هذا الحكم!

إن زواج الأقارب على قسمين، قسم منه يعد من ضمن السفاح المحرم

(١) تقدم تفصيل هذه الظروف عند حديثنا عن الصراعات الداخلية في بيزنطة.

(٢) خصوصًا مع ربط أحداث الرواية بملحمة ديجينيس التي فيها أن هذه الفتاة تنبأ العرافون بمستقبلها. ولا يفتك أن كتّاب التاريخ البيزنطي ونقّاده في كل فصل من فصول التاريخ يأتون بشاهد من ملحمة ديجينيس الأسطورية لربطها بالواقع في بيزنطة، ولا يتعاملون معها كأسطورة أدبية فحسب، وإنما حادثة ذات بعد واقعي.

وقد تقدمت الإشارة لهذه الملحمة في الفصل الأول، تحت عنوان: النقد التاريخي للأدب البيزنطي.

كالارتباط بالأخوات والعمات والخالات ونحوهم، ومنه ما يعد محرمًّا لكنه ليس من السفاح والزنا. والقرابات التي تحرم هي قرابة الدم[١]، وقرابة التبني[٢]، وقرابة المصاهرة[٣]، وقرابة المعمودية[٤].

وكلامنا فعلا في قرابة الدم، فإن الحكم القائم آنذاك في بيزنطة مبني على حرمة التزاوج من ذوي الرحم إلى سبع درجات[٥]، ولكن مع ذلك فإن كثيرًا من الأسر الملكية والعوائل النبيلة في بيزنطة كانت لا تبالي بهذا الحكم ولا تطبقه خشية

---

(١) قرابة الدم: أي ذوي الرحم بالتعبير الإسلامي.

(٢) قرابة التبني: وهو أن يتبنى الشخص أطفالا إما لأنهم أيتام وإما لأسباب أخرى كحكم قضائي.

(٣) قرابة المصاهرة: فإن الزواج يعني اتحاد الزوج والزوجة، وعليه فأرحام الزوجة هم أرحام الزوج، وأخت الزوجة وعمتها وخالتها وابنة عمها وغيرهم تربطهم نفس الصلة تمامًا بالزوج بحكم المصاهرة، فهم أخوات الزوج وعماته وخالاته وبنات عمه وغير ذلك، ويترتب على ذلك من أحكام ما يترتب من أحكام على أقارب الزوج الحقيقين.

(٤) قرابة المعمودية أو القرابة الروحية، هي القرابة التي تكون بين الكاهن ومن يعمده، فتكون عائلة العراب التي عمدها الكاهن كلها عائلة واحدة!

(٥) طريقة حساب الدرجات بين أبناء العم المباشرين مثلا:

(والد الزوج = درجة١)، (الجد = درجة٢)، (والد الزوجة = درجة٣)، وعليه فيكون بين أبناء العم ثلاث درجات، ويكون بين الأخ وأخته درجتان، وبين الأب وابنته درجة واحدة، وفي رواية السيدة نرجس عليها السلام يكون بينها وبين ابن أخي القيصر أربع درجات، كالآتي:

(والد العروس = درجة١)، (جدها = درجة٢)، (والد جدها = درجة٣)، (والد العريس = درجة٤)، فإن الدرجات تحسب تصاعديًّا حتى تبلغ إلى الجد المشترك، ثم تحسب تنازليًّا حتى تصل إلى الطرف الآخر.

ضياع أموالها وجاهها إلى عوائل غريبة، وكان من الصعب على الكنيسة إجبار الأباطرة على تطبيق هذا الحكم. بل تمرد بعض أباطرة بيزنطة (الإمبراطور أركاديوس) في مطلع القرن الخامس الميلادي على ما أقرته المجامع الكنسية من تحريم زواج أبناء العم وأباحه، كما أن الإمبراطور (جيستيان الأول) بعد قرابة قرن من الزمن أقر هذا الحكم أيضًا واستمرت إباحة زواج أبناء العم إلى القرن السابع الميلادي في مجمع ترولو المسكوني حيث أعيد تحريمه.[1]

إن التمرد على ما تقره المجامع المسكونية تمرد على الملكانية، ونذير شؤم تكرر صدوره من أباطرة سابقين غير مبالين بهذا الحكم، منهم هرقل مثلا، الذي تزوج ابنة أخته فكانت نذير شؤوم على الإمبراطورية، وكان الناس يعتقدون أنها سبب لسخط الله على الروم، وكان رغم ذلك لا يبالي بقول الناس بل كان يصحبها في حروبه[2]، حتى انهزم على أيدي المسلمين في الشام.

وكان هرقل لا يبالي بنصائح بطريك القسطنطينية مصرًّا على معارضة توجيهات الكنيسة، وتوالت الانتكاسات في الإمبراطورية وسقطت مصر والشام من أيديهم بسبب الغضب الإلهي لزواج هرقل الذي أجبر الكنيسة على مباركته![3]

---

(١) لمزيد من التفصيل حول زواج الأقارب راجع دراسة بعنوان: موانع زواج الأقارب في الإمبراطورية البيزنطية، د. وفاء إبراهيم، منشورة في مجلة وقائع تاريخية.

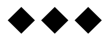
(٢) الدولة البيزنطية د. السيد الباز العريني ص١٣٧

(٣) في الدراسة المشار إليها حول زواج الأقارب في بيزنطة تفاصيل وأمثلة كثيرة حول هذا الموضوع، فمن أراد المزيد فليرجع إلى المصدر.

من هنا نعود إلى نص الرواية وكيف رأى كبير الأساقفة أن زواج ابنة القيصر من ابن أخيه نذير شؤم على الإمبراطورية وهو سلوك تكرر من ملوك بيزنطة مرارا في تعديهم على قوانين الكنيسة بحكم مناصبهم وقدرتهم ما يضطر الكنيسة إلى مباركة هذه الزيجات رغما عنها وهي غير راضية تراها نذير شؤم ونحس على النصرانية لأنها عصيان لقرارات المجامع المسكونية التي يفترض أنها تمثل الملكانية والنصرانية الحقة.

أما القيصر فقد حاول تغيير اتجاه كبير الأساقفة وأشار إلى أن النحوسة ليست في نفس الزواج وإنما النحوسة في شخص العريس غير المؤهل ليتزوج من حفيدة القيصر! فلما عاود الكرة تبين أن النحوس لا تعود إلى أحد أبناء أخي القيصر، فاغتم القيصر لذلك ودخل قصره.

وبعد كل هذا العجب العجاب فإنه لا ينبغي للسيدة الطاهرةعليها السلام أن تظن في نفسها أنها سبب للنحوس، فرأت تلك الليلة فيما يرى النائم المسيح ووصيه شمعون والحواريين في قصر جدها وقد نصب منبر يباري السماء علوًّا، وأقبل عند ذلك سيد الخلائق رسول الله صلى الله عليه وآله ليخطبها إلى مولانا أبي محمد العسكري عليه السلام فهي مصطفاة لتكون زوجًا له عليه السلام، ولذلك اضطربت الأرض وتزلزل القصر ولم يتم شيء مما عزموا عليه، فإنها مذخورة لتكون والدة الخلف عجل الله تعالى فرجه الشريف.



الزلزال وخطبة الأسقف الأعظم

أشارت الحادثة المفصلة لزفاف السيدة نرجس عليها السلام في قصر القيصر الذي تحول إلى كارثة ولم يتم منه شيء إلى وقوع هزة في القصر، والحادثة فعلا لا تشير إلى زلزال كبير سبب هلعا ودمارًا شاملا تهاوت له البيوت وخلّف آلاف القتلى ونحو ذلك، فإن كل ما ذكر أن الصلبان تسافلت على إثره وتقوضت الأعمدة وسقط العريس مغشيًّا عليه، فلم يتفرق الناس وإنما تطيروا لذلك، فأعيد تنظيم الحفل ورفع ما تسافل، فتكررت الهزة مرة أخرى، فتفرق الناس متطيرين من الحدث لا لأجل دمار شامل.

والحقيقة أن القسطنطينية منطقة زلازل، والزلازل بهذا المستوى متكررة عندهم اعتادوا عليها وإنما أكثر ما كان مربكا في الحفل تسافل الصلبان فإنه يدل على الكثير من الآلام والمخاطر ويعني اهتزاز الإيمان والردة في النصرانية، بل ينذر بوقوع غزو وسبي![1] وهو ما جلب مخاوف كبير الأساقفة، تلك الساعة.

ومع ذلك فإنه وبالرجوع إلى المصادر وجدنا عدة زلازل وثقها التاريخ وقعت في القسطنطينية في فترة هيمنة القيصر باراداس عليها[2]، وأشارت المصادر

---

(١) راجع كلام البطريك توماس في هذا الموضوع:

Theodore of Sykeon's Life, quoted in Robert G. Hoyland, G. Seeing Islam as Others Saw It: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam (Princeton: Darwin Press, 1997), p. 53.

(٢) أي من سنة ٨٥٦م إلى ٨٦٦م (الموافق: ٢٤٢هـ إلى ٢٥٢هـ)

إلى تواريخ بعض الهزات كسنة ٨٦٠م، و٨٦٢م وغيرها، وبعض الزلازل ذكرت في نفس الحقبة دون تعيين تاريخها المحدد.(١)

والذي نرجحه أن الزلزال الذي وقع في قصر القيصر كان ضمن سلسلة زلازل سنة ٨٥٩م (أي: ٢٤٥هـ)(٢) وذلك لعدة قرائن تنسجم مع سياق الرواية، كالعفو عن مجموعة من أسارى المسلمين في وقت يعقب هذا الزلزال، فإن السيدة نرجس عليها السلام كانت طلبت من جدها القيصر عقيب الزلزال أن يخفف عن أسرى المسلمين ويمن عليهم بالخلاص، ومن القرائن أيضًا أن القيصر باراداس خرج لحرب المسلمين بعد هذا الزلزال(٣)، ومن القرائن أيضًا أن الرواية ذكرت أن السيدة نرجس عليها السلام كانت وقت الزلزال من بنات ثلاث عشرة سنة، وكان عمر

---

(١) راجع المقال العلمي للأستاذين هادي تقوي وإحسان روحي ففيه فوائد كثيرة:

Caesar Bardas and the Earthquake of Constantinople

(٢) تعرضت لهذه الزلازل جميع الكتب التي تعنى بتاريخ الزلازل والكوارث الطبيعية، منها مثلا: سجل الزلازل العربي أ.د. عبد الله الغنيم ص٨٦، حيث ذكر وقوع الزلازل في سنة ٢٤٥هـ (٨٥٩م) وذكر أن الزلازل فيها عمت الدنيا، وامتدت الزلزلة إلى خراسان من جهة الشرق وإلى مصر من جهة الغرب. ومثلا: أسرار عالم الزلازل والبراكين د. عامر علي غبره ص٧٢ تحت عنوان زلازل لا ينساها التاريخ.

وغيرها من مصادر لا يسعنا إحصاؤها. ومن المصادر الأجنبية:

Ambraseys N, Earthquakes In The Mediterranean And Middle East A Multidisciplinary Study Of Seismicity Up To 1900, Cambridge University Press, 1st edition (2009), p 243

(٣) ستأتي الإشارة إلى هذه القرائن بالتفصيل في الفصلين القادمين.

الإمام العسكري عليه السلام في تلك السنة أربع عشرة سنة[1] أو نحو ذلك، وهذه أعمار مناسبة للزواج لهما عليهما السلام فيكون زواجهما بعد الحادثة بفترة يسيرة أمرا معقولا.

وأما زلزال سنة ٨٥٩م فهو واحد من أعظم الزلازل في تاريخ البشرية كان مركزه أنطاكيا وتبعد ما يقارب ٩٠٠كم عن القسطنطينية وهو عبارة عن سلسلة زلازل عمت الدنيا شرقًا وغربًا، كان أشدها في أنطاكيا قتل فيها خلق كثير وسقط منها ألف وخمسمائة دار، وسقط من سورها نيف وتسعون برجًا، وسمعوا أصواتا هائلة لا يحسنون وصفها وتقطع جبلها الأقرع (وهو جبل ضخم مطل على البحر الأبيض المتوسط) وسقط في وسط البحر، وهاج البحر ذلك اليوم وارتفع منه دخان أسود مظلم منتن، وغار منها نهر على فرسخ لا يدرى أين ذهب![2]

لقد صرّح المؤرخون أن هذه الزلازل عمت الدنيا، كما أنه من الطبيعي جيولوجيا أن تصل هزاته الارتدادية إلى القسطنطينية لوقوعها في مناطق صدوع الأناضول (فالق الأناضول).

يجب أن يكون واضحًا أن الطبري وابن الأثير وغيرهم يصعب عليهم

---

(١) اختلف في مولد الإمام العسكري عليه السلام إما سنة ٢٣١هـ أو ٢٣٢هـ، ويوافق: ٨٤٥م أو ٨٤٦م، فيكون عمره الشريف سنة ٨٥٩م مقاربًا لعمر السيدة نرجس عليها السلام.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦/ ١٦٢، ونهاية الأرب للنويري ٢٢/ ٢٩٢، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٨/ ١٤، وغيره من مصادر التاريخ الإسلامي.

توثيق هزة ارتدادية وقعت في عاصمة الروم، فالحوادث التي توثق خارج الدولة الإسلامية هي الحوادث العظمى في الغالب، كهلاك ملك وهزيمة في معركة كبرى، لذلك لابد من الرجوع إلى التواريخ البيزنطية للبحث عن حدث مشابه، لكنه أيضًا يندر توثيق هزة ارتدادية عادية، لذلك لابد من البحث عن القرائن.

ومما عثرنا عليه من قرائن ما ذكرته المصادر البيزنطيية عن وصول غبرة عظيمة على القسطنطينية بلون الدم سقطت من الجنة(١) على أسطح البيوت في السنوات الأولى لسيطرة القيصر باراداس على الإمبراطورية(٢).

إن الكارثة التي حلت على سواحل البحر الأبيض المتوسط من تقطع الجبل الأقرع وانهيار جزء منه في البحر ما سبب ارتفاعا في الغبار والدخان قد

---

(١) لا يخفى عليك أن الذين دونوا حوادث القرن التاسع الميلادي في بيزنطة وما جرى في زمن القيصر باراداس هم أعداء باراداس أنصار قاتله باسيل الذي استولى على الإمبراطورية من بعده، وسيكون مناسبًا أن يصف غبرةً عظيمة كانت سببا لإرباك حفل زفاف حفيدة القيصر بأنها قادمة من الجنة رغم مظاهر البؤس الذي تحمله الغبرة!

نعم لا يمكن التصريح بمجريات الحفل وما جرى فيه من تسافل الصلبان فإن هذا ما لا يدونه ويوثقه أي نصراني، فضلا عن أن كبير الأساقفة الذي أراد إبرام الزفاف يومها رجع إلى البطريكية في عهد باسيل وصار مرضيًّا عنه عند السلطة الجديدة المعادية لباراداس، وتوثيق الحدث يعد تسقيطًا لشخصه.

وهذا وجه وجيه لتعبير المؤرخ البيزنطي بأن الغبرة أقبلت من الجنة بنظر المؤرخين!

(٢) راجع:

Wahlgren, S. (2019). The Chronicle of the Logothete. Translated Texts for Byzantini. (pp. 183). Liverpool University Press

يكون هو نفس السبب في هبوب هذه الغبرة العظيمة التي يوثقها التاريخ، فإن الحدثين متشابهان وزلازل الأناضول ترتبط بزلازل البحر الأبيض المتوسط سيما مع هذه الكارثة العظمى التي حلت في البحر، كلها احتمالات تؤيد أن الرواية العربية والبيزنطية تتحدثان عن كارثة واحدة ترجع إلى زلزال واحد.

ومن المؤيدات القوية جدًّا التي تورث الاطمئنان بذلك ما ذكرته كتب الزلازل الأجنبية عن وقوع زلزال في القسطنطينية في السنة التالية لتولي فوتيوس منصبه[1]، ورغم أنه زلزال لم يخلّف أضرارا إلا أنه كان مصدر قلق عام دون ذكر سبب القلق! غير أن الأسقف الأعظم (فوتيوس) خرج في خطاب عجيب غريب بعد هذا الزلزال وصعد بنفسه المنبر وقال مستنهضا الناس: لم تهتز الأرض بسبب تكاثر الخطايا وإنما بسبب فائض المياه.[2]

---

(١) تولى فوتيوس منصب الأسقف الأعظم (البطريك) سنة ٨٥٨م. والمؤرخون لم يحددوا تاريخ هذا الزلزال بدقة، ولكن المذكور أنه في السنة التالية لتسنم فوتيوس منصبه، والقول بأنه في سنة ٨٥٩م يناسب هزات ارتدادية لزلزال أنطاكيا.

(٢) راجع:

Ambraseys N, Earthquakes In The Mediterranean And Middle East A Multidisciplinary Study Of Seismicity Up To 1900, Cambridge University Press, 1st edition (2009), p 244

كما أن موعظة فوتيوس هذه ذكرت في عدة مصادر، منها:

Cyril Mango, The Homilies of Photius, Patriarch of Constantinople: English Translation, Introduction and Commentary (Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press), p. 5

وكانت موعظة فوتيوس في بداية تسنمه المنصب فترة سيطرة القيصر باراداس على الإمبراطورية.

وهذا النص المهم في التاريخ البيزنطي يكشف عن عدة أمور يجدر التوقف عندها، أولها أن التاريخ هنا يوثق هزة من الناحية الجيولوجية تعتبر هزة عادية لم تخلف أضرارا عظيمة، وتوثيق ذلك أمر غير معهود في كتب الزلازل، لكن هذا التوثيق هنا يرجع إلى أن الهزة كانت مصدر قلق عام في العاصمة لم تذكر التواريخ سببه!

ومما يمكن استلهامه من النص أن هناك هزات أرضية وقعت في بيزنطة صاحبها فيضان للمياه واضطراب في حركة البحر، وهذا متوافق مع تحطم الجبل الأقرع في البحر الأبيض المتوسط واختفاء بعض الأنهار كما ورد في المصادر العربية، أي أن هذه الرواية البيزنطية تورث مزيدًا من الاطمئنان بأن الحادثة واحدة، وأن هزات ارتدادية واضطرابًا في البحر وغبرة عظيمة أصابت القسطنطينية في نفس وقت زلزال أنطاكيا.

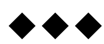
ومن المهم التأمل أيضًا في كلمة كبير الأساقفة فوتيوس، حيث أرجع سبب الزلازل المتوالية إلى أمر جيولوجي طبيعي، وهو خطاب غير متوقع من بطريك كان عليه أن يعظ الناس ويتهمهم بأن ذنوبهم هي سبب البلاء، ثم يدعوهم إلى الصلاة والتوبة! يظهر أن البطريك كان في موقف الدفاع عن نفسه أو عن القيصر ليدفع تهمة احتمل أن توجه ضدهما تلك الليلة!

وقد تقدم أن السلطات في بيزنطة كانت ترجع الزلازل إلى ذنوب الناس، كالزلزال الذي وقع مع حملة تحطيم الأيقونات حين اعترض الأيقونيون على

تخطيهما فاهتزت الأرض فاتهمتهم السلطات بأنهم سبب البلاء والغضب الإلهي. إنه من الغريب فعلا أن تخطب السلطة بعد زلزال يقع في العاصمة وتبرء الناس وترجعه لسبب جيولجي صرف، ويوثق خطاب البطريك في التاريخ البيزنطي ويدوّن ضمن مواعظه!

ثم إن هذا الخبر لا يشير إلى زلازل مدمرة، وإنما يشير إلى زلازل متكررة في ليلة واحدة، وبالضبط هذا ما أشارت إليه رواية الشيخ الصدوق رحمه الله عند تعرضه لخبر الزفاف، حيث تكررت الآية مرتين في حفل واحد.

وهذه قرائن تورث مزيدًا من الاطمئنان برواية بشر بن سليمان النخاس، لمجيئها في سياق منضبط متوالي الأحداث، فإذا اجتمعت أورثت يقينا بوقوع الحادثة؛ نحن نتعامل مع الحادثة كتعامل رجال الأدلة الجنائية في الحوادث، يجمعون قرائن متفرقة صغيرة، قد لا تكفي كل قرينة إذا وجدت مستقلة للجزم بالنتائج، لكن مع اجتماع القرائن المتفرقة فإن العاقل لا يستطيع تخطئة النتائج!



العفو عن أسارى المسلمين

من الأخبار التاريخية الملفتة ما أورده الطبري[1] في أحداث سنة خمس وأربعين ومائتين، حيث ذكر: وبعث ملك الروم فيها بأسرى من المسلمين وبعث يسأل المفاداة بمن عنده وكان الذي قدم من قبل صاحب الروم رسولا إلى المتوكل شيخ يدعى أطروبيليس معه سبعة وسبعون رجلا من أسرى المسلمين أهداهم ميخائيل بن توفيل ملك الروم إلى المتوكل وكان قدومه عليه لخمس بقين من صفر من هذه السنة[2].

وقبل التعليق على الرواية فإن عبارة الطبري (أهداهم ميخائيل بن توفيل) قد لا تكون دقيقة، فإن الطبري قد يكون دقيقًا في نقل الحدث من عاصمة الخلافة الإسلامية، في تحديد موعد وصول الأسرى وعددهم، أما دقته في تحديد صاحب الهدية إن كان ميخائيل الإمبراطور أو القيصر باراداس فهذا يمكن المناقشة فيه.

وكيف كان فإن المؤكد وصول هذا العدد من الأسرى ابتداءً من صاحب الروم إلى بلاد المسلمين دون مقابل، وهذا غريب ملفت للنظر مثير للاستغراب.

إن امبراطورية عظمى تعيش في نزاع وحروب مستمرة مع المسلمين بأي وجه تبادر في العفو عن هذا العدد من الأسارى؟ وأسرى الحروب على مر

(١) تاريخ الطبري ٩/ ٢١٣، وراجع العرب والروم تأليف فازيليف ترجمة محمد عبد الهادي ص٢٠٦

(٢) أي ما يوافق بداية الشهر السادس من سنة ٨٥٩م

راجع كتاب: التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية تأليف محمد مختار

العصور ورقة مفاوضات يُتّجر بها لنيل المكتسبات وجلب المنافع.

لا أجد تفسيرًا لهذه المبادرة إلا ربطها برواية الشيخ الصدوق رحمه الله، فإن السيدة نرجس عليها السلام تنقل مجريات الأحداث في قصور الحكم آنذاك وما جرى عقيب أحداث حفل الزفاف من ابن أخي القيصر الذي توقف ولم يتم، تقول عليها السلام: (حتى امتنعت من الطعام والشراب، وضعفت نفسي ودق شخصي، ومرضت مرضًا شديدًا، فما بقي من مدائن الروم طبيب إلا أحضره جدي وسأله عن دوائي، فلما برّح به اليأس، قال: يا قرة عيني فهل تخطر ببالك شهوة فأزودكِها في هذه الدنيا؟ فقلت: يا جدي أرى أبواب الفرج علي مغلقة فلو كشفت العذاب عمن في سجنك من أسارى المسلمين، وفككت عنهم الأغلال، وتصدقت عليهم، ومننتهم بالخلاص، لرجوت أن يهب المسيح وأمه لي عافية وشفاءً، فلما فعل ذلك جدي تجلدت في إظهار الصحة في بدني وتناولت يسيرًا من الطعام، فسر بذلك جدي وأقبل على إكرام الأسارى وإعزازهم)

فإن الخبر يشير إلى أن جدها القيصر استجاب لطلبها في إعزاز أسارى المسلمين والمنِّ عليهم بالخلاص، وأن جدها فعل ذلك، والواضح أنه لم يمنن على جميعهم بالخلاص وإنما منّ على بعضهم وأكرم الباقين وأعزهم، وبعث يسأل الفداء ليفرج عن الباقين.

وما يؤكد الربط بين الأمرين أنه لم يكن من دأب سلاطين الروم في تلك الحقبة الزمنية الرفق بالمسلمين، بل كان شأنهم اضطهاد المسلمين وظلمهم، وإن صدر شيء من الرفق فإنه لاستمالتهم وتنصيرهم لا حبًّا فيهم. ويكفيك في بيان

حال المسلمين في سجون الروم ما وصفه أبو فراس الحمداني في قصائده الرومية، وكان مما قال:

أُقَلّبُ طَرْفِي بين خِلٍّ مُكَبَّلٍ ... وبين صَفِيٍّ بالحديدِ مُصَفَّدِ

ودونك ما حدّث به التاريخ من أن الإمبراطورة ثيودورا والدة ميخائيل الثالث أجبرت عام ٨٥٥م-٢٤١ه ما يقرب من ستة آلاف من الأسرى المسلمين على التحول إلى المسيحية. وإلى جانب التنصير تعرض العرب للتعذيب على يد البيزنطيين، فقد تعرض أهل مدينة زبطرة في منطقة الثغور الإسلامية للأسر على يد الإمبراطور ثيوفيلوس في عام ٨٣٧م-٢٢٢هـ، فقام بسمل أعينهم وقطع آذانهم وجدع أنوفهم[1].

نعم لو تتبعت التاريخ لوجدت مشاهد شفقة ورحمة من حكام الروم تجاه أسرى المسلمين لكنها ترجع في منتهى المطاف إلى مصالح الروم، منها مثلا تلطف الإمبراطور ببعض الأسارى ودعوتهم على موائد الطعام في البلاط الإمبراطوري أيام أعياد النصارى كعيد الميلاد المجيد، ومنها دعوة بعض الأسارى للتفرج على سباقات الخيل للترفيه، وذلك يرجع إلى غايات وأهداف غير اللطف والشفقة بالمسلمين، منها إبراز قوة الإمبراطورية وعظمة القصور وفخامة الموائد -يقال إن إحدى تلك الموائد كانت لسليمان بن داود مرصعة بالدر والياقوت، والثانية لداود

---

(١) المجتمع البيزنطي ص٦٤ تحت مقال بعنوان: التركيب العرقي والطبقي للمجتمع البيزنطي، للأستاذ المساعد محمد زايد عبد الله

مرصعة أيضاً، والثالثة مائدة قارون، والرابعة مائدة قسطنطين الملك- فمظهر المائدة وحجمها وفخامتها وعدد الضيوف وهندامهم كلها توحي بقوة النصرانية والإمبراطورية، كما أن إكرام الأسرى بهذه الكيفية في الإطعام المصحوب بأناشيد عيد الميلاد المجيد ورفع الصلبان حول الموائد ثم إعطاء أسرى المسلمين شيئا من المال يعد نوعا من التبشير بالنصرانية، وهو من أسمى أغراض النصارى(١).

والدليل على أن الشفقة والرحمة بالأسارى لم تكن غرض الحكام في امبراطورية الروم وإنما كان الغرض دعوتهم إلى التنصر ما ذكر في التواريخ من تنصير كثير من أسرى المسلمين وقد تقدمت الإشارة إلى موقف ثيودورا من الأسرى. وما ذكر من اضطرار أهالي المصيصة وطرسوس إلى التنصر، وإجبار الأسرى على القتال دفاعا عن العاصمة كما أنه يشترط على المسلم المقيم في بيزنطة -من غير الأسرى، كالتجار- إذا أراد الزواج من بيزنطية أن يتنصر، كما أن التنصر كان شرطًا في الإعفاء من الضرائب(٢).

ومما يؤكد ذلك أيضًا ما ذكره البشاري حيث قال في وصف القسطنطينية: ولا يسكن دار البلاط من المسلمين الّا وجيه في إجراء وتعاهد وتنزّه، وسائر الأسارى من عامّة المسلمين يستعبدون ويستعملون في الصنائع(٣).

---

(١) راجع بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، تأليف أ.د. طارق المنصور ابتداءً ص٨٥

(٢) المجتمع البيزنطي ص٦٤

(٣) أحسن التقاسيم ١٤٨ لمحمد بن أحمد البشاري المقدسي المولود في القدس والمتوفى سنة ٣٨٠هـ

وهناك غرض آخر من الشفقة على المسلمين وهو المقايضة مقابل مصالح أخرى، فإن للنصارى رعايا في بلاد المسلمين، ولابد من مراعاة ذلك ومسايسة دولة الخلافة، وإن المسلمين لما دفنوا أبا أيوب الأنصاري﵁ وخافوا أن ينبش قبره في القسطنطينية، هددوا إن وقع شيء من ذلك لما أبقوا كنيسة في بلاد المسلمين.

ومن الأمثلة أيضًا ما ذكروه في شأن مسجد القسطنطينية، وهو أنّ السجناء المسلمين في القسطنطينية المهمّين احتُجزوا في مساكن خاصّة، وخصّص هؤلاء المساجين جزءًا من هذه المساكن لغرض العبادة. وبعد فترةٍ من الزمن، تحوّل المصلّى إلى مسجدٍ بطبيعة الأمر، فكان التجّار والمسافرون والسجناء والمنفيّون يؤدون صلواتهم في هذا المصلى[1].

---

(١) حاول بعض المؤرخين نسبة الفضل في بناء هذا المسجد إلى مسلمة بن عبد الملك بن مروان، والحقيقة أن هذا لا يكون إلا بتخيلاتهم! فإنه كيف لمن وصل القسطنطينية وهرب أن يأمر الإمبراطور النصراني ببناء مسجد؛ لذلك فإن مؤرخي الغرب لا يصدقون هذه الحكاية!

إلا أن الأصل في الحكاية أن مسلمة بن عبد الملك حين التقى بصاحب الروم طلب منه أن يخصص لأسارى المسلمين من الأشراف سجنا خاصًا في العاصمة، وكان ذلك السجن مقر عبادتهم حتى عرف بمصلى المسلمين ثم صار مسجدهم، ويؤيد هذا الرأي ما ذكره الرحالة الجغرافي المسلم البشاري المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم، حيث قال: اعلم ان مسلمة بن عبد الملك لمّا غزا بلد الروم ودخل هذا المصر شرط على كلب الروم بناء دار بإزاء قصره في الميدان ينزلها الوجوه والأشراف إذا أسروا ليكونوا تحت كنفه وتعاهده فأجابه الى ذلك وبنى دار البلاط.

ويؤيد القول بأن المصلى حين بني لم يكن مسجدًا وإنما دارًا للإشراف ما ذكر من أن الحسن بن الحسين الأصغر بن الإمام زين العابدين﵇ دفن فيه، أي أنه من الأشراف الذين أقاموا فيه وتوفوا هناك.

←←←

ومن الطبيعي أن الإمبراطورية تخشى على مصالح النصارى في مختلف أراضي المسلمين وترجو بقاء دور عبادتهم، فإن ذلك يدعو إلى إتاحة المجال بهذا المقدار للسماح للنصارى المقيمين في بلاد المسلمين بأداء طقوسهم العبادية، كما أن المصالح التجارية مع تجار المسلمين تقتضي مثل ذلك.

أي أن هذا النوع من التسامح مع المسلمين يرجع في حقيقته إلى رغبة ملك الروم بكسب مصلحة تعود عليه وعلى النصارى، ولا يرجع الأمر إلى غرض التسامح فإن المتتبع لأحوال أباطرة تلك الحقبة وما فيها من ظروف وعداء وحروب بين المسلمين يعلم أن التعامل مع الأسارى كان مبنيًّا على المصالح.

فالأمر من الوضوح بمكان أنه لا مورد للشفقة على المسلمين بين قوم متعصبين للنصرانية يعذبون المسلمين ويستعبدونهم وأن أي فعل يصدر منهم ويظهر منه الشفقة لا يكون إلا لمصلحة النصارى، إما بغرض تنصير المسلمين، أو مقايضة بمصالح أخرى.

بتعبير آخر فإن الأسرى يبقون في السجون معذبين، فإما أن يتم تنصيرهم أو استعبادهم وتكليفهم بالمهام الشاقة، وإذا بقي الأسير في السجن مصرًّا على

➡➡➡

والتفاوض مع ملك الروم بهذا المقدار أمر معقول، فإن تخصيص الأشراف والقادة من أسرى المسلمين بدار تليق بشأنهم إلى أن يتم حسم أمرهم من إمكان تبادل الأسرى معهم ونحو ذلك ينفع ملك الروم في أن يطالب بالمثل ليحظى أسراه في بلاد المسلمين بمعاملة تليق بشأنهم.

لمزيد من التفاصيل راجع: الآثار الإسلامية في القسطنطينية (مقال منشور في مجلة الدراسات العربية).

حاله فإنه يتحمل الأذى والتعذيب حتى يحين موعد الفداء -ومن المشهورات حكاية أبي فراس الحمداني ورومياته في السجون، حتى خرج في فداء شهر رجب من سنة ٣٥٥هـ[١]-، كما أن استمرار بقاء الأسرى في البلدين دون إمكانية توطينهم واستعبادهم يشكل عبئا على الدولتين، ومن جانب آخر فإنه يضعف ثقة الشعوب بقدرة الحكام على استرجاع المفقودين من أبنائهم، وكل ذلك عوامل تشجع على عمليات تبادل الأسرى.

وعلى كل حال فإن هذا هو الأصل في منهج الدول في علاقاتها الدبلوماسية وتعاملها بين أسرى دول الضد لاسيما إذا كانت المضادة راجعة إلى سبب ديني وسياسي، فإن هذا هو السلوك المتوقع وأي مبادرة عفو غير مسبوقة بمقدمات ولا ملحوقة بطلب مقابل تكون مثارا للاستغراب، وإلا فإن العفو عن الأسرى عادة يكون بمبدأ تبادل الأسرى لا بمبدأ الهدية المجانية![٢]

فيبقى العفو عن عشرات الأسرى من ملك الروم دون مقابل مورد تساؤل لا تجد له جوابًا إلا إذا ربطته بما أخبرت به السيدة نرجس عليها السلام.

وقد تكررت على مر العقود في العلاقة بين الدولة العباسية والدولة

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ١٤/ ١٧٥

(٢) كانت تسبق طلبات الفداء هدايا يستعرض فيها الحكام عظمة دولهم، بدءًا من كتابة الرسائل بماء الذهب إلى تقديم الأموال الطائلة كهدية، كما يستقبل السفراء أبهى وأعظم استقبال لاستعراض عظمة القصور وبنائها؛ أما الأسرى فهم ورقة المساومة دائمًا لا يُتنازل عنهم إلا بمقابل، فإما أن يفتدى الأسير بأسير مثله من نفس جنسه وصفاته وعمره وقوة بدنه وسلامته من الأمراض، أو الفداء بالمال.

البيزنطية عمليات الفداء وتبادل الأسرى[١]، منها ما كان في سنة ١٨٩هـ، و١٩٢هـ في خلافة هارون الرشيد، ومنها ما كان في سنة ٢٣١هـ في خلافة الواثق، ومنها ما كان في سنة ٢٤١هـ، و٢٤٦هـ في خلافة المتوكل، ومنها ما كان في سنة ٢٥٣هـ في خلافة المعتز، ووقع غيرها من عمليات فداء في هذه الحقبة لكنها كانت أقل شهرة وأقل عددًا.

وكان الفداء يقع على نهر اللامس[٢]؛ لأنه يتميز بموقع جغرافي يفصل بين مدينة طرسوس التابعة للخلافة العباسية، وسلوقية التابعة للدولة البيزنطية، وكان المسلمون يصِلون إلى النهر برًّا، ويأتيه البيزنطيون عن طريق البحر، وكان النهر يشكل حاجزًا طبيعيًّا يمنع الاصطدام حال وقوع خلاف، كما يسهل النهر عملية التبادل فيجعلها عملية منضبطة بحيث لا يتيسر الهرب للأسرى قبل إتمام مجريات الفداء.[٣]

---

(١) وقد تعرض المسعودي في التنبيه والأشراف ص١٦٠ مفصلا إلى أفدية المسلمين والروم، حيث قال: فلنذكر الآن ما كان من الأفدية والهدن بين الروم والعرب في أيام ولد العباس إذ لم يكن في أيام بني أمية فداء معروف مشهور فنذكره بل كان يفادى بالنفر بعد النفر في سواحل الشام ومصر والإسكندرية وبلاد ملطية وغيرها من الثغور الجزرية، إذ كانت أموية والثغور الشامية عباسية. ثم إنه بدأ بتعداد الأفدية...

(٢) ونهر اللامس يقع غربي مدينة طرسوس، وكان يدعى زمن الروم بنهر ليموس Lemos، وسماه العرب نهر اللامس، واسمه اليوم نهر ليمونولو Limonolu.

(٣) مدينة طرسوس ودورها في التاريخ العربي الإسلامي، سناء عبد الله الطائي، ص٢٢

وكان الفداء يستمر عدة أيام في هدنة متفق عليها مسبقًا، يشهده كبار القادة من الطرفين، وعامة الناس المترقبين للإفراج عن الأسارى، ويعقد على النهر جسرين، يقف المسلمون على جانبه الشرقي والروم على جانبه الغربي، يرسل المسلمون روميًّا على الجسر ويرسل الروم مسلمًا على الجسر، فيصير كل منهما إلى قومهم حتى يكتمل الفداء[1]، وباقي الأسارى يفتدون بالمال[2].

على غير هذه العادة المطردة في الأفدية يأتي فداء سنة ٢٤٦هـ بتنازل سخي من ملك الروم حيث يقدّم لخليفة المسلمين ضعف العدد، فيعفو المسلمون عن أكثر من ألف نصراني، وعفى النصارى عن أكثر من ألفي مسلم، وكانت الضابطة يومذاك أن يعفو المسلمون عن كل من عندهم ويعفو النصارى عن كل من عندهم.

وكانت مجريات هذا الفداء غريبة دوّنها الطبري بالتفصيل في تاريخه[3]، وحاصل مجريات الفداء أن صاحب الروم بعث إلى المتوكل العباسي يطلب الفداء بين الأسرى في سنة ٢٤٥هـ، فبعث إليه المتوكل نصر بن الأزهر سفيرًا ومعه هدايا ثمينة نحو ألف من نافجة مسك وثياب وحرير وزعفران وكثير طرائف –وهذا

---

(١) تجارب الأمم وتعاقب الهمم لابن مسكويه ٤/ ٢٨٣

(٢) مثلا ذكر ابن الأثير في أحداث سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة في ذكر فدائها أنه فضل للروم على المسلمين مائتان وثلاثون أسيرًا، فوفاهم سيف الدولة الحمداني بالمال.

(٣) تاريخ الطبري ٩/ ٢١٩

رسم متعارف في السفارات من حمل التحف والهدايا لإبراز قوة الدولة- فلما وصل نصر بن الأزهر سفير المتوكل إلى القسطنطينية أراد دخول البلاط بسيفه وخنجره وقلنسوته وسواده(١)، فأبوا أن يدخلوه بهذه الصورة فأراد الانصراف من البلاط، فأرجعوه من الطريق وسمحوا له بالدخول!

ثم إن الامبراطور ميخائيل كان جالسًا على سرير العرش وحوله البطارقة قيام، وقبل الإمبراطور هدايا المتوكل، ثم هيّأ لسفير المتوكل منزلا بقربه فنزل فيه نصر بن الأزهر السفير فترة المفاوضات.

وحسم أمر المفاوضات على أن يعطي النصارى جميع من عندهم وكانوا أكثر من ألفين، ويعطي المسلمون جميع من عندهم وكانوا أكثر من ألف، ووافق على هذه المفاوضات خال الإمبراطور وحلف يمينا على ذلك، هذا والإمبراطور ساكت لا يتكلم بشيء والأمور كلها بيد خاله.

يقول نصر بن الأزهر (سفير الخليفة المسلم) بعد أن حلف خال الإمبراطور: فقلت: أيها الملك قد حلف لي خالك، فهل هذه اليمين لازمة لك؟ فقال برأسه: نعم. ولم أسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم إلى أن خرجت منها، إنما يقول الترجمان وهو يسمع، فيقول برأسه: نعم أو لا، وليس يتكلم؛ وخاله المدبر أمره.

ثم إن نصر بن الأزهر خرج من القسطنطينية بالأسرى بأحسن حال،

(١) السواد شعار بني العباس.

وتوجهوا إلى موضع الفداء، فأطلق أسرى المسلمين دفعة واحدة، وأسرى النصارى دفعة واحدة، خلافًا لسائر الأفدية من إطلاق الأسرى واحدًا بواحد. وكان الفداء قد وقع في شهر صفر وقيل جمادى الأولى من سنة ٢٤٦هـ.

وتجلت في هذا الفداء صورة غريبة من تنازل صاحب الروم، وهي أن قومًا من أسرى المسلمين عنده كانوا تنصروا، ولكن ملك الروم لم يقبل تنصرهم، وإنما أمرهم باتباع سفير المتوكل والتوجه إلى موضع الفداء، فإذا وصلوا هناك وتم الفداء وأرادوا الدخول في النصرانية قبل منهم التنصر! ولم يبق في بلاد الروم من أسرى المسلمين أحد إلا وأطلق في هذا الفداء.

وستتضح الصورة أكثر مع ترتيب الأحداث وربطها بالزلزال والغارة على سميساط، وهي كالآتي:

- وقع الزلزال مطلع سنة ٢٤٥هـ (الموافق: شهر إبريل ٨٥٩م)، ويتوقع أن موعد زفاف السيدة نرجس عليها السلام مع ابن أخي القيصر كان في ذلك الوقت. فمرضت عليها السلام وطلبت من جدها القيصر أن يخفف عن أسارى المسلمين ويمن عليهم بالخلاص.
- وصل سبع وسبعون أسيرًا هدية من ملك الروم إلى خليفة المسلمين في سامراء في ٢٥ من شهر صفر ٢٤٥هـ (الموافق: مطلع شهر يونيو ٨٥٩م)، وطلب ملك الروم بعدها الفداء والتخفيف عن أسرى المسلمين.
- خرج إمبراطور الروم مع القيصر إلى حامية سميساط للغارة على

المسلمين هناك في صيف سنة ٢٤٥هـ-٨٥٩م، وفي هذه الحادثة يحتمل أن السيدة نرجس عليها السلام فقدت من معسكر الروم، كما فر جيش الروم بقياداته إلى القسطنطينية.(١)

• وصل مبعوث المتوكل إلى القسطنطينية استجابة لطلب ملك الروم في إجراء الفداء، ثم اتفق على الفداء بعد مفاوضات تأخرت أربعة أشهر، وتم الفداء في سنة ٢٤٦هـ-٨٦٠م. وكانت شؤون هذا الفداء كلها بيد خال الإمبراطور، وقد تنازل كثيرًا أثناء الفداء، فرضي أن يفتدى كل أسرى المسلمين بكل أسرى النصارى، وحتى من تنصر من المسلمين فإنه يرجع إلى قومه في الفداء فإن أحب الرجوع إلى القسطنطينية فليرجع بعد إتمام الفداء، وكانت طريقة الفداء أن يطلق جميع أسرى المسلمين دفعة واحدة كما يطلق جميع أسرى النصارى دفعة واحدة.

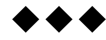
تُرى من كان من النصارى في أسرى المسلمين يجعل خال الإمبراطور يقبل بكل هذا التنازل؟ لماذا يرضى بأن يسلم ضعف العدد للمسلمين؟ هل احتمل أن حفيدته المفقودة موجودة في أسرى المسلمين وخشي التصريح بهذا الأمر فقرر إرجاع جميع من يمكن إرجاعه من الأسرى لعله يجد بغيته؟

من المؤكد أن القيصر لا يستطيع التصريح بهذا الأمر علنًا فهو سر ينبغي أن لا يذاع عسكريًّا حتى لا يكون ورقة مساومة، ثم إنه لا يعلم إن كانت سبيت إلى بغداد، أو بقيت في سميساط أو قتلت أو جرى غير ذلك عليها؟ المؤكد أنه

(١) سيأتي تفصيل هذه المعركة.

فقدها من قصره[1].

في الحقيقة نحن أمام تطابق وانسجام بين خبر الشيخ الصدوق رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسائر معطيات التاريخ، ولا يمكن لمنصف أن يقرأ الرواية ويطلع على التاريخ البيزنطي ثم يدعي وجود اضطراب في متن الرواية! هذا كلام لا يصدر من واع ومثقف!



(١) مع ربط الأحداث بملحمة ديجينس التي تحدثنا عنها في الفصل الأول يرجح احتمال أن قصة اختفائها لم تكن مجهولة تماما بل لعل إحدى الجواري أذاعتها.

حرب المسلمين والروم

سجل التاريخ خلال هذه الفترة عدة معارك بين المسلمين والروم، ولتحديد التاريخ بشكل دقيق، فإن الإمام صاحب الأمر عجل الله فرجه الشريف قد ولد في سنة ٢٥٥هـ-٨٦٩م، فلابد من متابعة المعارك بين المسلمين والروم خلال الفترة السابقة لولادة الإمام عليه السلام بعدة سنوات، والحقيقة أن هذه الفترة مليئة بالمعارك ولكننا نضع الاحتمالات القريبة، ونستبعد بقية الاحتمالات[1].

أما غزو المسلمين للروم فينطلق من مبدأ إسلامي، وهو كما ذكر السيد الخوئي قدس سره بعد أن أشار إلى أن المراد بالجهاد القتال لإعلاء كلمة الإسلام وإقامة شعائر الإيمان... إلى أن قال قدس سره: فيمن يجب قتاله، وهم طوائف ثلاث:

الطائفة الأولى: الكفّار المشركون غير أهل الكتاب، فإنّه يجب دعوتهم إلى

(١) من الاحتمالات التي استبعدناها مثلا ما احتمله المرحوم السيد هادي الميلاني في كتابه قادتنا كيف نعرفهم ج٧ ص٢٠٧، حيث احتمل أنها أسرت في معركة بين مسلمي الأندلس والافرنج سنة ٢٥١ه، ولكننا نستبعدها لما قدمناه من أن قيصر الروم المقصود هو الموجود في القسطنطينية لا في بلاد الافرنج.

وقال السيد قدس سره في معرض حديثه عن هذا الموضوع: وقد يذهب بعض المعاندين إلى التشكيك في هذه الحوادث بنفي وقوع حرب بين المسلمين والمشركين في الأزمنة المعاصرة لولادة المهدي (سلام الله عليه). وما ذلك إلا لجهله بالتاريخ، مضافا إلى العناد والعداء للحق...

أقول: فعلا من العجيب إنكار وقوع حرب في هذه الفترة، وكان الأولى البحث عن فترة سلم في هذه الحقبة الزمنية لشدة اضطرابها وكثرة حروبها!

كلمة التوحيد والإسلام، فإن قبلوا وإلاّ وجب قتالهم وجهادهم إلى أن يسلموا أو يقتلوا وتطهّر الأرض من لوث وجودهم. ولا خلاف في ذلك بين المسلمين قاطبة، ويدلّ على ذلك غير واحد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿فلْيُقاتِلْ فِي سبِيلِ اللهّ الّذِين يشْرُون الْحياة الدُّنْيا بِالْآخِرةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وقاتِلُوهُمْ حتّى لا تكُون فِتْنةٌ ويكُون الدِّينُ كُلُّهُ للهّ﴾ وقوله تعالى: ﴿حرِّضِ الْمُؤْمِنِين على الْقِتالِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فإِذا انْسلخ الْأشْهُرُ الْحُرُمُ فاقْتُلُوا الْمُشْرِكِين﴾، وقوله تعالى: ﴿وقاتِلُوا الْمُشْرِكِين كافّةً كما يُقاتِلُونكُمْ كافّةً﴾، وغيرها من الآيات. والروايات المأثورة في الحثّ على الجهاد وأنّه ممّا بني عليه الإسلام ومن أهمّ الواجبات الإلهيّة كثيرة، والقدر المتيقّن من مواردها هو الجهاد مع المشركين.

الطائفة الثانية: أهل الكتاب من الكفّار، وهم اليهود والنصارى، ويلحق بهم المجوس والصابئة، فإنّه يجب مقاتلتهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ويدلّ عليه الكتاب والسنّة.

قال اللهّ تعالى: ﴿قاتِلُوا الّذِين لا يُؤْمِنُون بِاللهّ ولا بِالْيوْمِ الْآخِرِ ولا يُحرِّمُون ما حرّم اللهُّ ورسُولُهُ ولا يدِينُون دِين الْحقِّ مِن الّذِين أُوتُوا الْكِتاب حتّى يُعْطُوا الْجِزْية عنْ يدٍ وهُمْ صاغِرُون﴾، والروايات الواردة في اختصاص أهل الكتاب بجواز أخذ الجزية منهم كثيرة وسيجيء البحث عنه.

الطائفة الثالثة: البغاة، وهم طائفتان: إحداهما: الباغية على الإمام عليه السلام، فإنّه يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم حتى يفيئوا إلى أمر اللهّ وإطاعة الإمام عليه السلام، ولا

خلاف في ذلك بين المسلمين وسيجيء البحث عن ذلك. والأخرى: الطائفة الباغية على الطائفة الأخرى من المسلمين، فإنّه يجب على سائر المسلمين أن يقوموا بالإصلاح بينهما، فإن ظلّت الباغية على بغيها قاتلوها حتى تفيء إلى أمر اللهّ. قال اللهّ تعالى: ﴿وإِنْ طائِفتانِ مِن الْمُؤْمِنِين اِقْتتلُوا فأَصْلِحُوا بيْنهُما فإِنْ بغتْ إِحْداهُما على الْأُخْرى فقاتِلُوا الّتِي تبْغِي حتّى تفِيء إِلى أَمْرِ اللهّ﴾.

ثم يبدأ سماحة السيدقدس سره بمناقشة شرائط الجهاد من البلوغ والذكورة والحرية والقدرة، واشتراط إذن الإمام أو إذن الفقيه في عصر الغيبة، والفرار من الزحف، وأحكام الأسارى والغنائم، والمرابطة على الثغور، وأحكام عقد الأمان، وسائر أحكام الجهاد.[1]

فحقيقة الجهاد الذي أمر به الشارع وقام به الإسلام هو قتال الكفار بعد دعوتهم إلى الإسلام بالحجة التامة، فإذا تمت الحجة ولم يستجب الكافر للدعوة وجب القتال ابتداءً لإعلاء كلمة لا إله إلا الله، وتطهير الأرض من لوث الكفار فإن بقاءهم فتنة، هذا إذا تمت شروط الجهاد وأذن الشارع بالقيام به.

وإنه لا خلاف بين المسلمين في حكم الجهاد، غير أن الأئمةعليهم السلام لم يأذنوا في كثير من الأحيان بالجهاد مع أئمة الجور، وربما أذنوا في موارد أخرى. روى شيخ الطائفةرحمه الله عن أبي حمزة الثمالي قال: قال رجل لعلي بن الحسينعليهما السلام: أقبلت على الحج وتركت الجهاد، فوجدت الحج ألين عليك، واللهُ يقول:﴿إِنَّ اللهَّ اشْتَرَى

(١) راجع منهاج الصالحين للسيد الخوئي، كتاب الجهاد ج١ ص٣٥٩

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم...﴾ قال: فقال علي بن الحسين عليه السلام: اقرأ ما بعدها، قال: فقرأ ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ الله﴾ قال: فقال علي بن الحسين عليه السلام: إذا ظهر هؤلاء لم نؤثر على الجهاد شيئا.(١)

وليس الكلام حول حكم الجهاد ومشروعيته لا في زمن الغيبة ولا في ذلك الزمن، وإنما الكلام أن حال المسلمين عامة آنذاك كانت على تعظيم الجهاد، والمرابطة على الثغور، وأن الدولة الإسلامية كانت تعد جيوشها لتوسيع رقعة الإسلام في مختلف ثغور الدولة الإسلامية.

وفي نفس الوقت فإن الإمبراطوريات العظمى كالروم وفارس تحمل في فلسفة بقائها فكرة توسع الحدود الجغرافية وإدخال ما أمكن من ممالك ودول تحت سلطانها، لذلك فإنها تُعِدّ الأساطيل البحرية والجيوش البرية ومختلف الأسلحة وأدوات القتال. ومنها إمبراطورية الروم التي أعادت تنظيم قواتها العسكرية في هذه الحقبة عقيب هزيمتها في عمورية من المسلمين، وتسعى لاسترداد أراضيها بل التوسع كما فعلت وفرضت سلطانها على بلغاريا.

وبقي الطرفان في ذلك الوقت خصمين قويّين ومازالت الثغور بينهما مضطربة، والمعارك في شد وجذب وقتل وأسر، ثم تبادل أسرى وهدن متفرقة.

وكان الغالب أن يغزو المسلمون الروم كل سنة صيفًا فتسمى غزواتهم (صائفة) وقد يغزونهم شتاءً إلا أن ذلك أصعب عسكريًّا، فتكون (الشواتي) غالبًا

(١) التهذيب ٦/ ١٣٤

لبلدان أخرى غير الروم. وأهم المعارك التي وقعت في هذه المرحلة الزمنية بحيث يتوقع ارتباطها برواية السيدة نرجس عليها السلام هي[١]:

(١) غزوة للمسلمين بقيادة علي بن يحيى الأرمني سنة ٢٤٢هـ-٨٥٦م، وكانت صائفة تقليدية لم تذكر تفاصيلها.

(٢) غزوة للروم من ناحية شمشاط حتى قاربوا آمدبقيادة بتروناس خال الإمبراطور، سنة ٢٤٢هـ-٨٥٦م، وكان خروجهم بعد صائفة علي بن يحيى الأرمني، وانتهبوا عدة قرى وأسروا نحوا من عشرة آلاف إنسان، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم.

(٣) عاود علي بن يحيى الأرمني غزو الروم شتاءً هذه المرة، وتتابعت غزوات العرب للانتقام، وهي عدة غزوات متتابعة لم تدون بالدقة تاريخيًّا.

(٤) غزوة للمسلمين بقيادة بغا الكبير سنة ٢٤٤هـ-٨٥٨م ناحية دمشق.

(٥) غزوة للمسلمين بقيادة علي بن يحيى الأرمني سنة ٢٤٥هـ-٨٥٩م صائفة، كما وقع فيها اضطراب في أهالي لؤلؤة[٢] وادعاؤهم الرغبة في دخول

---

(١) تعرضت لهذه الغزوات عامة كتب التاريخ كالطبري وابن الأثير وابن خلدون. وصنفّت في هذا الموضوع كتب خاصة، مثل:

الحدود الإسلامية البيزنطية: بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، تأليف فتحي عثمان

والثغور البرية الإسلامية على الحدود البيزنطية في القرون الوسطى، تأليف علية عبد السميع

(٢) كانت أحداث لؤلؤة في ذي الحجة من سنة ٢٤٥هـ، أي في مطلع سنة ٨٦٠م، والتواريخ في المتن تقريبية، وإنما نلتزم المداقة في التوفيق بين التواريخ في مواضع الحاجة.

النصرانيّة[١] ثم غلبة المسلمين عليها وفيها حادثة مفصلة أسر فيها البطريق الذي بعثه إمبراطور الروم للمفاوضة وحمل البطريق أسيرا إلى المتوكل في سامراء.

(٦) غزوة للروم على سميساط سنة ٢٤٥هـ-٨٥٩م بقيادة القيصر باراداس والإمبراطور ميخائيل الثالث. وهي المعركة المتوقع أن تكون أسرت فيها السيدة نرجس عليها السلام.

(٧) وفي سنة ٢٤٦هـ-٨٦٠م عدة غزوات، فمن ذلك غزو عمر بن عبد الله الأقطع[٢] الصائفة أخرج سبعة آلاف رأس، ومنها غزوة قربياس[٣] أخرج خمسة آلاف رأس، ومنها غزوة الفضل بن قارن بحرا في عشرين مركبا فافتتح حصن

---

(١) كان أهالي لؤلؤة من الصقالبة (البيالقة) وكانوا يسكنون جنوب الأناضول، وكانوا من أتباع مذهب يصفه المسعودي بأنه متوسط بين مذاهب النصارى والمجوس.

وقد كان للبيالقة ثارات تاريخية مع القسطنطينية، وكانت الإمبراطورية عزمت على إرجاعهم إلى الأرثوذوكسية وإن هلكوا! وعقد الصقالبة اتفاقات مع المسلمين فكانوا يتلقون رواتبهم من الدولة الإسلامية، وشكلوا حائط صد للمسلمين في سيطرتهم على حصن لؤلؤة، وهو حصن بالغ الأهمية من حيث كونه خط دفاع متقدم ضد الروم؛ وذلك أنه حصنٌ مرتفع يُشرف على البحر، ما يُمَكّن من اكتشاف أي محاولة هجوم بحري مبكرا، لتنبيه المسلمين في ثغر طرسوس الذي يعد أهم ثغر في تلك المنطقة.

راجع خريطة الثغور في قسم الملاحق.

(٢) كان أميرًا لملطية ٢٨ سنة نشطًا في حروبه ضد البيزنطيين طوال هذه السنوات، وما استقرت أمور الروم في المنطقة حتى قتلوه ٢٤٩هـ-٨٦٣م.

(٣) قربياس من قيادات البيالقة (الصقالبة)، وقد تعرّب كلبياس.

أنطالية[1]، ومنها غزوة بلكاجور فغنم وسبى، ومنها غزوة علي بن يحيى الأرمني الصائفة أخرج خمسة آلاف رأس ومن الدواب والرمك والحمير نحوا من عشرة آلاف.

(٨) غزوة لإمبراطور الروم سنة ٢٤٧هـ-٨٦١م[2]، لكنه تراجع وترك الجيش ولم يكمل الطريق بسبب وصول عساكر الروس إلى القسطنطينية، فمني جيش الإمبراطور بهزيمة في آسيا الصغرى، ولكنه نجح في العودة إلى القسطنطينية واستطاع عبور المضيق بصعوبة.

(٩) عودة الإمبراطور إلى قتال المسلمين -نفس السنة- في سهل دازيمون ولاقى فيها عمر الأقطع أمير ملطية، وانهزم فيها الروم.

(١٠) غزوة للمسلمين بقيادة وصيف التركي صائفة سنة ٢٤٨هـ-٨٦٢م بجيش قوامه زهاء عشرة آلاف مقاتل.

(١١) غزوة للمسلمين بقيادة جعفر بن دينار سنة ٢٤٩هـ-٨٦٣م ومعه أمير ملطية عمر الأقطع، وفيها انتصارات للجيش الإسلامي حتى وصلوا البحر الأسود، ولكن إمبراطور الروم استطاع تنظيم جيشه وهم زهاء خمسين ألفٍ بقيادة خاله بتروناس، فحقق فيها نصرًا عظيمًا وحاسمًا، وقتل فيها عمر الأقطع، وقتل من العسكرين خلق كثير.

---

(١) مدينة الشاطئ الآسيوي الجنوبي لبلاد الروم.

(٢) هناك اختلاف في التواريخ البيزنطية والتواريخ الروسية في تعيين تاريخ هذه الغزوة.

ويعتبر النصر البيزنطي هذا نقطة انتقالية في سياسة حروب المسلمين مع الروم وتحوّلوا إلى موقع القوة بعد هذه المعركة.

(١٢) غزوة للمسلمين بقيادة بلكاجور صائفة سنة ٢٥٠هـ-٨٦٤م.

(١٣) غزوة للمسلمين بقيادة بلكاجور صائفة سنة ٢٥١هـ-٨٦٥م، قاتل وأسر فيها كثيرا من أشراف الروم، ولكن هذه الغزوة كانت متزامنة مع اضطرابات وثورات شديدة داخل الدولة الإسلامية.

وتوقفت المعارك مع الدولة البيزنطية حتى توفي ميخائيل الثالث، وكانت الإمبراطورية مضطربة آنذاك وحدث فيها انقلابات متعددة (اغتيال القيصر ثم الإمبراطور) وتغيير في النظام السياسي، حتى آلت الأمور إلى حكم المقدونيين، وعاود البيزنطيون (بقيادة المقدونيين) قتال المسلمين. كما كانت الدولة الإسلامية مضطربة أيضًا، حيث انتقلت عاصمة المسلمين إلى بغداد وكان المستعين لعنه الله خليفةً على المسلمين، وبويع المعتز لعنه الله في سامراء في نفس الوقت، فصار في الدولة الإسلامية خليفتان يحكمان في آن واحد وتجبى لهما الأموال والخراج! ولم تهدأ الأحداث إلا بعد خلع المستعين، لذلك كان القتال متوقفًا على ثغور الروم فترة، لكن الدولة بعد استقرارها عاودت الغزو على الثغور.

نعم وقعت عدة معارك بين المسلمين والنصارى لكننا استبعدنا كثيرًا من المعارك في سرقوسة والأندلس وجزيرة كريت، إذ يطول المقام بتعدادها مفصلا، وإنما انتخبنا الحوادث الأقرب من حيث الاحتمال التاريخي.

كما يطول المقام أيضًا في النقض والإبرام لمناقشة الاحتمالات غير المستبعدة، ولكننا نكتفي باختيار الاحتمال الراجح وقرائن إثباته فالظاهر أن فيما نأتي من قرائن الكفاية بالاطمئنان لتحديد تاريخ المعركة.

والذي يغلب عليه الظن بل يطمأن بصحته أن أسر السيدة نرجس عليها السلام وقع بعد غارة الروم على حامية سميساط[1] في سنة ٢٤٥هـ-٨٥٩م لعدة قرائن، بعضها في نفس أحداث المعركة، وبعضها خارجة عنها متوافقة مع تسلسل الأحداث التاريخي.

وقبل الحديث عن المعركة ينبغي التعريف بحامية سميساط؛ أما الحامية

(١) بسبب الاشتباه في التعريب فإنه يقع الخلط كثيرًا بينها وبين شمشاط في كتب التاريخ، ومنه وقع الاختلاف في تعيين تاريخ استيلاء المسلمين عليها.

والحق أنهما مدينتان مختلفتان قريبتان من بعضهما ذكر الاصطخري في المسالك والممالك أن بينهما مسير يومين، وسميساط في حدود الشام وأرمينيا الصغرى، أما شمشاط فإنها تتبع أرمينيا، وذكر الحموي أن سميساط من أعمال الشام وشمشاط في طرف أرمينية.

ولابد للتمييز بينهما من الرجوع إلى القرائن، فإن بتروناس في حملته على شمشاط قارب الوصول إلى آمد، وهذه قرينة على أن غارته كانت من جهة ثغور أرمينية. وذكر الطبري موقفًا لهرقل عند خروجه من الشام وأنه مر على شمشاط، والصحيح أنها سميساط الشامية بقرينة بلوغه الرها ثم شمشاط، فالتي وقف عليها هرقل كانت سميساط.

لذا فإن المؤرخ والمحقق العربي قد لا يكون دقيقًا في ذلك ويكثر الخلط فلابد من التنبه إلى القرائن وعدم الاكتفاء بنقل عبارات كتب التاريخ.

راجع الخريطة الملحقة آخر الكتاب لتتعرف المواقع الجغرافية لهذه المناطق.

فهي مجموعة من القوات العسكرية أو الجيوش تتمركز في منطقة معينة لتكون المقر الرئيسي لها؛ باصطلاح اليوم: قاعدة عسكرية، ويتم تأسيس هذه الحامية لأغراض متعددة دفاعية وهجومية تختلف باختلاف اعتبارات المناطق وظروفها.

أما سميساط فإنها تقع في منطقة ثغور ولذلك فإنها تتبع إداريًّا -ضمن منظومة الدولة الإسلامية- إلى والي الثغور، فيكون هو حاكم المنطقة وأمير الحامية. والثغور أقرب المناطق الحدودية للعدو تتمركز فيها الجنود والمجاهدون والمتطوعون وليس مقامهم مقام استقرار ولكن من أجل الفتوحات وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية، ويتقاضون رواتبهم جراء هذه الوظيفة.

والمناطق العامرة التي تسبق الثغور تسمى العواصم، سميت بالعواصم لأنها تمد الثغور بالجنود عند الحاجة، فهي تمنع وتعصم سائر أراضي الدولة الإسلامية من أي غزو وتجبر أي ضعف في مواقع الثغور[1]؛ أي أن العواصم التي تكون عامرة اليوم كانت بالأمس ثغرًا عسكريًّا، والثغر العسكري يرجى أن يكون عاصمة في الغد ليعقبه ثغر، وهكذا تتوسع رقعة الدولة الإسلامية.

وللعواصم أمراء وولاة كسائر الولايات لكن لها اعتباراتها الاستراتيجية في تنظيم الدولة باعتبارها الأقرب إلى الحدود البيزنطية، أما الثغور جهة الدولة

---

(١) ويطلق على العواصم (القصبات) أيضًا، ويعبر أحيانا عن مركز العواصم بقصبة العواصم فيقال قصبة العواصم الجزرية أنطاكيا، وكل عاصمة تنقسم إلى مدن، والمدن تنقسم إلى قرى ونواحٍ. ولا يخفى أن التسميات قد تختلف باختلاف الأزمنة لتغييرات تطرأ على النظام الإداري في الدولة.

البيزنطية فإنها تنقسم إلى ثغور شامية وجزرية[1] (نسبة إلى شبه الجزيرة العربية)، ولها أمراؤها وحكامها، ولكن الحكم هناك عسكري لا مدني خلافا للعواصم وسائر ولايات الدولة.

وتقع سميساط على الفرات الأعلى، وحولها جبال كثيرة، وفيها قلعة حصينة[2] يقال أن بناءها قديم يرجع إلى زمن إبراهيم خليل الله عليه السلام بناها ملك ذلك العصر[3]، وهي ثغر إسلامي من ثغور الجزيرة يخضع لإمرة قائد ثغر ملطية[4]، وثغر ملطية هو الثغر الأقرب إلى الروم يومذاك، ومنه يتم تنظيم الغزوات

---

(١) ومعيار كون الثغر تابعًا للجزيرة ليس قربه من مناطق الجزيرة العربية، بل قد يكون أقرب إلى الشام ولكن يقطنها مهاجرو الجزيرة، والبعض زاد على هذا التقسيم قسما ثالثًا بعنوان: الثغور البكرية لأنها تابعة لديار بكر بن وائل.

(٢) قال الإدريسي في نزهة المشتاق: ومدينة سميساط على الفرات ولها قلعة حصينة وهي في شرقي اللكام مطلة على الفرات ويحتف بها جبال كثيرة فيها الجوز والكروم وسائر الثمار الشتوية والصيفية مباحة لا مالك لها. وبين سميساط وملطية مدينة صغيرة تسمى حصن منصور وهي حسنة مشهورة ولها رساتيق وقرى، وبها خصب كثير وإصابة غلة وبينها وبين سميساط مرحلة وهي من الأميال أحد وعشرون ميلا ومن حصن منصور إلى ملطية ثلاثون ميلا ثم إلى زبطرة خمسة عشر ميلا. ومن منبج إلى ملطية خمسة أيام ومن منبج إلى سميساط يومان وقيل ثلاثة.

وهذه مناطق معروفة تكرر ذكر بعضها في التاريخ الإسلامي كأحداث صفين وصلح الإمام الحسن عليه السلام.

(٣) الثغور البرية الإسلامية على الحدود البيزنطية في القرون الوسطى د. علية عبد السميع ص١٤١

(٤) مالطية (malatya) مدينة تقع شرق الأناضول سيطر عليها المسلمون في القرن الهجري الثاني.

والصوائف والشواتي وسائر الحملات العسكرية الهجومية والدفاعية.

وتسمى سميساط اليوم مدينة سامسات[١] وهي تابعة في جغرافيا اليوم إلى تركيا، وكانت في فترة من الزمن تتبع أرمينية الصغرى[٢]، ودخلت ضمن ثغور الدولة الإسلامية بعد معركة اليرموك مع التوسع الإسلامي جهة الشام.

غزت الروم هذا الثغر مرارا متعددة منذ الفتح الإسلامي لها، ومن تلك الغزوات ما وقع سنة ٢٤٥هـ-٨٥٩م، حيث غارت الروم عليها وقتلوا من المسلمين وأسروا منهم خلقًا كثيرًا[٣].

وكان على قيادة جيش الروم يومذاك الإمبراطور ميخائيل الثالث والقيصر باراداس[٤]، وكان هذا الظهور العسكري للإمبراطور هو أول ظهور له في ساحة المعارك وكان خروجه بإشراف القيصر باراداس[٥]، أي أن القيصر هو من

---

(١) سامسات، أو ساموساتا، أو Samsat أو باليونانية: Σαμόσατα

(٢) وكانت أرمينية قبل ذاك منطقة صراع الفرس والبيزنطيين، وكان جلهم نصارى يعاقبة على غير مذهب الملكانية، لذلك فإنهم كانوا خصوم البيزنطيين رغم نصرانيتهم.

(٣) عبارة ابن الأثير في أحداث سنة خمس وأربعين ومائتين: وفيها أغارت الروم على سميساط فقتلوا، وسبوا، وأسروا خلقًا كثيرًا. أما عبارة الطبري في أحداث نفس السنة: وفيها أغارت الروم على سميساط، فقتلوا وسبوا نحوا من خمسمائة.

(٤) بيزنطة والعالم الخارجي د.طارق منصور ج١ البيزنطيون والمسلمون ص١٤٢، والروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب أسد رستم ص٢٩٨، العرب والروم تأليف فازيليف ترجمة د.محمد عبد الهادي شعيره ص٢٠٦

(٥) راجع: Bury, Eastern Roman Empire, 279

قاد الجيوش فعلا وهو من سيّرها أما الإمبراطور فكانت تجربته العسكرية الأولى وهو لايزال في ريعان شبابه، وقد أعدوا العدة بإحكام لهذا الهجوم وزودوا المدينة بكل التعزيزات اللازمة كي يضمنوا قاعدة قوية لإنجاح الحملة[1].

ورغم أن قوة الروم كانت لها الغلبة وكانت تحاصر حامية المسلمين ثلاثة أيام، إلا أنه وبسبب انشغال قيادات الدولة البيزنطية في قداس يوم الأحد استطاع المسلمون اقتحام معسكر الروم، وقد كان انتصارًا ساحقًا، استولوا فيه على خيمة الإمبراطور وكل متعلقاته، وأما الإمبراطور فإنه نجى بأعجوبة[2]!

---

(١) الثغور البرية الإسلامية على الحدود البيزنطية في القرون الوسطى د. علية عبد السميع ص١٤٣

(٢) راجع:

Genesios, On the Reigns of the Emperors: introduction, translation, and commentary (Canberra: Australian Association for Byzantine Studies, 1998 = Byzantina Australiensia vol. 11). 82

والنص الأصلي:

Under the leadership of Amer, the ruler of Melitene, the impious Ishmaelites raided the land of the Romans. The Emperor did not want to sit by idly, and pretended to possess a manly and active disposition. Hence he marched with his army to Samosata, an Ishmaelite city. He laid siege to it for three days, but on Sunday he arranged for a Christian service, desiring to partake of the bloodless communion. But at that very moment the Agarenoi suddenly threw open their gates, sallied forth, and easily routed the Emperor. Their success was so complete that they cap-tured his tent and all his supplies. The Emperor himself barely managed to survive.

والإسماعيليون وأبناء هاجر -في هذا النص- كناية عن المسلمين، فإنه من المتعارف في ذلك الزمان تسمية المسلمين بأتباع إسماعيل أو أبنائه كما يصفهم الكتاب المقدس، باعتبار أن الأنبياء كانوا من ذرية إسحاق، ونبينا الخاتمﷺ كان من ذرية إسماعيل.

وقيل أن عددًا كبيرًا من جنود الروم أسروا في هذه الحملة على يد القائد الصقلبي قارياس[١].

ويجدر التنبيه على قضية مهمة: أن تفاصيل الهزيمة التي لحقت بالإمبراطور لم يتعرض لها الطبري وغيره من مؤرخي العرب، ويظهر أنها لم تكن هزيمة تامة بالاصطلاح العسكري وإنما مجرد غارة مباغتة من جيش المسلمين كردة فعل حربية على معسكر الإمبراطور.

إن المعايير العسكرية في النصر والهزيمة نسبية، لا يوجد انتصار مطلق في الحرب أو هزيمة مطلقة، وإنما يكون انتصارًا تصحبه خسائر في الأرواح والأموال وغيرها؛ قد يخرج الجيش منتصرًا وإن كان قد مني ببعض الهزائم أثناء القتال[٢]، فإن الحرب كر وفر، وصولات وجولات، يقتل فيها الرجال وتستباح الأموال،

---

(١) الثغور البرية الإسلامية على الحدود البيزنطية في القرون الوسطى د. علية عبد السميع ص١٨٤

(٢) مثال ذلك غزوة أحد: حقق المسلمون أكثر أهدافهم الاستراتيجية من الدفاع عن شخص النبيﷺ والدفاع عن بيضة الإسلام والدفاع عن المدينة المنورة وسكانها، كل ذلك تكلل بالنجاح حيث كان موقف المسلمين دفاعيًّا، بل طاردوا العدو إلى منطقة حمراء الأسد، إلا أن المسلمين لحقتهم خسائر فادحة في الأرواح واستشهد يومذاك سبعين مسلمًا، فاشتهر أن المسلمين هزموا في المعركة، والحال أنها لم تكن هزيمة مطلقة، وكذلك المشركون فإنهم فروا من ساحة القتال وقتل من أبطالهم العدد الكبير، ولم يحققوا من أهدافهم العسكرية إلا الانتقام لقتلى بدر. هذا والمشهور على الألسن أن المسلمين انهزموا في المعركة، وواضح أن في التعبير تسامحًا عرفيًّا، وإلا فالطرفان منهزمان والطرفان منتصران، كل بنسبة. وهذا مطّرد في الحروب عامة.

ويغنم كل من الطرفين شيئا، قد يخرج المنهزم بالغنائم كما يفعل ذلك المنتصر.

إذا علمت ذلك فاعلم أنه وقع الجدل في أحداث هذه المعركة بالذات، ولماذا عرض الطبري جانب النصر للروم وعرض مؤرخو بيزنطة جانب الهزيمة[١]، والواقع أن كلًّا من المؤرخين يروي الأحداث من الزاوية التي بلغته، ولعل المسلمين لم يكونوا عارفين بوجود القيصر والإمبراطور في المعسكر أصلا وظنوا أنهم اقتحموا مقر أحد القادة فلم يدونوا في تواريخهم القديمة هذه الجزئية، أما التواريخ البيزنطية فإنها كانت تعرف ذلك فدوّنته[٢].

وعلى كل حال فإن المرجحات التي جعلتنا نستقرب احتمال كون المعركة المقصودة في رواية الشيخ الصدوق رَحِمَهُ اللهُ هذه المعركة، ما ورد عن لسان السيدة نرجس عَلَيْهَا السَّلَامُ أن جدها القيصر سرّب جيوشًا لقتال المسلمين، وهذا مما امتازت به

(١) احتمل بعض نقاد التاريخ البيزنطي أن ذلك يعود إلى عداء شخصي بين مؤرخي التاريخ البيزنطي في حقبة الدولة المقدونية والقيصر باراداس. ورغم أن العداء ثابت إلا أن افتراضه هنا بعيد جدًّا لأن نفس المؤرخين كانوا يذكرون انتصارات باراداس في سائر الحروب ولم يكن من دأبهم اختلاق هزائم وهمية وإلحاقها بالقيصر، فلماذا يكذبون هنا دون سائر المواضع من التاريخ؟

والأرجح ما استقربه بيوري (Bury) أن نصر الروم كان بادئ المعركة ثم انقلبت الأمور للمسلمين.

(٢) والمؤكد على كل حال أن هناك غارة إسلامية على معسكر الروم أثناء انشغالهم بقداس يوم الأحد، ولا يمكن الجزم إن كانت نهاية المعركة بانهزام الروم أو المسلمين.

وكيف كان فإن ذلك لا يضر بأصل المطلب فإن رواية الشيخ الصدوق رَحِمَهُ اللهُ لا تنص على انتصار للروم أو للمسلمين، وإنما مجرد وقوع السيدة نرجس عَلَيْهَا السَّلَامُ في الأسر، وهذا لا يتوقف على نصر وهزيمة.

هذه المعركة بأن القيصر قاد الجيوش وخرج معهم، أما بقية الحروب فهناك احتمال خروج القيصر معهم لكنه غير مؤكد.

ثم إنه جاء في رواية الشيخ الصدوقﷺ أن كتائب المسلمين وقعت على معسكر القيصر فأسرت السيدة نرجس﵀ وقتها، وهذا أيضًا مما ورد في التواريخ البيزنطية من اقتحام المسلمين معسكر الروم أثناء انشغالهم بقداس يوم الأحد، والرواية البيزنطية لا تصرح بنصر تام للمسلمين وإنما هجوم مباغت لهم، يناسب عبارة الرواية من وقوع طلائع المسلمين عليهم.

هذه المرجحات التي في نفس المعركة، أما من خارجها فأولها توقيت المعركة وكونه في صيف سنة ٨٥٩م أي بعد الزلزال الذي احتملنا وقوعه وقت الحادثة.

وأيضًا بعد العفو عن مجموعة من أسارى المسلمين المنسجم مع طلب السيدة نرجس﵀ من جدها المن على أسارى المسلمين والتخفيف عنهم، ثم طلب الفداء وتبادل الأسرى.

وتوقيت المعركة أيضًا قبل إتمام تبادل الأسرى العجيب الذي تنازل فيه صاحب الروم إلى أبعد الحدود وعفى عن ضعف عدد أسراه في بلاد المسلمين ليرجع كل الأسرى والمفقودين من الروم إلى بلادهم ما يشير إلى وجود أسرى يعنيهم أمره يرغب بإرجاعهم بأي ثمن.

كما أن موقع المعركة في سميساط يتناسب مع أسرها عن طريق الفرات؛

فإن مجرى الفرات كما ذكره القلقشندي: فأوّله من شماليّ مدينة أرزن الروم وشرقيها، وأرزن هذه آخر حدّ بلاد الروم من جهة الشرق؛ ثم يأخذ إلى قرب ملطية ثم إلى سميساط(١)، ثم يأخذ مشرّقا ويتجاوز قلعة الرّوم ويمرّ مع جانبها من شماليها وشرقيها؛ ثم يسير إلى البيرة، ويمرّ من جنوبيها، ثم يمرّ مشرّقا حتّى يتجاوز بالس وقلعة جعبر ويتجاوزها إلى الرّقّة؛ ثم يمرّ مشرّقا ويتجاوز الرّحبة من شمالها ويسير إلى عانة ثم إلى هيت، ثم يسير إلى الكوفة. فإذا جاوز نهر كوثي بستة فراسخ انقسم نصفين، ومرّ الجنوبيّ منهما إلى الكوفة ويجاوزها ويصبّ في البطائح. ويمرّ القسم الآخر وهو أعظمهما ويعرف بنهر سورا، ويمرّ بإزاء قصر ابن هبيرة، ويتجاوزه إلى مدينة بابل القديمة، ويتفرّع منه عدّة أنهر ويمرّ عموده إلى النيل ويسمّى من بعد النيل نهر الصّراة؛ ثم يتجاوز النيل ويصب في دجلة(٢).

والصراة نهر متفرع من الفرات يدخل بغداد ويصب في دجلة، تمر فيه السفن حتى تبلغ قنطرة في آخره فلا تتجاوزها السفن، ويتم إنزال حمولتها هناك.(٣)

وفي الرواية أن الإمام الهادي عليه السلام أمر بشر بن سليمان النخاس أن يتوجه إلى معبر الصراة في بغداد يترقب وصول زوارق السبايا. لذا فقد يكون موقع

---

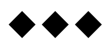
(١) في المصدر شمشاط، والصحيح ما أثبتناه.

(٢) صبح الأعشى ٤/ ٣٩٧، انظر خريطة موقع سميساط وخريطة أنهار بغداد في ملحق الكتاب.

(٣) المسالك والممالك للاصطخري ٨٥

المعركة في سميساط قرينة على أنها هي المقصودة في الرواية.

هذه قرائن مما يورث الاطمئنان أن المعركة المقصودة هي هذه المعركة الواقعة سنة ٢٤٥هـ-٨٥٩م، غير أننا لا نستطيع الجزم ببطلان سائر الاحتمالات[١].



(١) مما جعل بعض الباحثين يرجح معركة أخرى غير هذه المعركة الاختلاف في تاريخ تنصيب باراداس كقيصر للروم، هل كان ذلك بعد نفي ثيودورا سنة ٨٥٦م أو في سنة ٨٦٢م.

على كل حال فإننا لا نرى مشكلة في هذا الاختلاف فإن باراداس كان القيصر الفعلي للإمبراطورية منذ نفي ثيودورا وهو المتصرف بشؤون الإمبراطورية، وقد تقدم أنه مُنح رتبة قربلاط منذ نفيت ثيودورا، وقد ثبت أنه كان في وقت المعركة بهذه الرتبة (Bury, Eastern Roman Empire, 279)، وتقدم في الفصل المتعلق بالألقاب والمناصب الرسمية أن القربلاط هو المؤدي مهام قيصر الروم آنذاك. وعلى كل حال فإنه في سنة ٨٥٩م كان باراداس هو الآمر الناهي في الإمبراطورية، وهو الشاغل الفعلي لمنصب القيصر، غاية ما يقال أنه عقد في سنة ٨٦٢م حفل رسمي بهذا المنصب وهذا أمر متعارف أن تتأخر الاحتفالات بالمناصب لاعتبارات سياسية معينة.

الفصل الرابع

اعتبار الرواية - متن الرواية

التعليق على رواية الشيخ الصدوق

بعد ما تقدم من بيان خلال الفصول السابقة فقد باتت الصورة واضحة من انسجام رواية الشيخ الصدوق رَحِمَهُ اللهُ مع التاريخ، ولا وجه لتكذيب الرواية.

ولكن لتنظيم الكلام مرة أخرى فإننا ندرج نص الرواية هنا كاملا، ونعلق عليها بالهوامش بما ذكره التاريخ وما كان موافقًا لنص الرواية؛ ولكننا لن نشير إلى المصادر هنا، لأن ما نذكره قد تقدم شرحه في الفصول السابقة بالتفصيل، وما نريد بهذا الفصل إلا تنظيم المطالب مرة أخرى لتكون الصورة أكثر وضوحًا.

وقبل ذلك لابد من مناقشة موجزة لمصادر الرواية المفصلة ومدى اعتبارها سندًا ومتنا، أما إثبات أصل كونها من نسل قيصر الروم فقد ناقشناه في الفصل الثاني.

◆◆◆

اعتبار الرواية

أهم المصادر الأولية التي بين أيدينا للرواية المفصلة بأسانيدها المتعددة في خبر وصول السيدة نرجس عليها السلام إلى دار الإمام العسكري، هي:

- الأول: في كمال الدين للشيخ الصدوق (المتوفى ٣٨١هـ)، عن محمد بن علي بن حاتم النوفلي، عن أبي العباس أحمد بن عيسى الوشاء البغدادي، عن أحمد بن طاهر القمي، عن أبي الحسين محمد بن بحر الشيباني، عن بشر بن سليمان النخاس.[١]

- الثاني: في دلائل الإمامة للشيخ أبي جعفر الطبري (من علماء القرن الرابع[٢])، عن أبي المفضل محمد بن عبد الله بن المطلب الشيباني، عن أبي الحسين محمد بن بحر الرهني الشيباني عن بشر بن سليمان النخاس.[٣]

- الثالث: في الغيبة للشيخ الطوسي (المتوفى ٤٦٠هـ)، عن جماعة، عن أبي المفضل الشيباني، عن أبي الحسين محمد بن بحر الشيباني الرهني، عن بشر بن سليمان النخاس.[٤]

---

(١) كمال الدين ٢/ ٤١٧

(٢) الكنى والألقاب ١/ ٢٤٣

(٣) دلائل الإمامة ٤٨٩

(٤) غيبة الطوسي ٢٠٨

• الرابع والخامس: ما رواه الشيخ الطبرسي[١] والشيخ الطرابلسي[٢] في هذه الحادثة، غير أن كتبهم التي نقلت منها الرواية مفقودة اليوم، وحكى ذلك عنهم السيد محمد مير لوحي[٣]، ثم قالرحمه الله: وغيرهم كثير جدا من علماء الإمامية

---

(١) أمين الإسلام الفضل بن الحسن الطبرسي مفسر ومحدث وفقيه ومتكلم، صاحب تفسير مجمع البيان، وله كتاب إعلام الورى وجملة من الكتب المخطوطة، توفي سنة ٥٤٨هـ

(٢) قال الآغا بزرك الطهرانيرحمه الله في الذريعة ١٦/ ١٥٦: (كتاب الفرج الكبير في الغيبة) للشيخ أبي عبد الله محمد بن هبة الله بن جعفر الوراق الطرابلسي، تلميذ شيخ الطائفة، ذكره الشيخ منتجب الدين، وهو كتاب كبير وكان عند المير لوحي الموسوي السبزواري، المعاصر للمولى محمد باقر المجلسي، على ما صرح به في خاتمة المستدرك والنجم الثاقب وغيرهما. والمير لوحي ينقل عنه في أربعينه الموسوم كفاية المهتدي في أحوال المهدي.

وقال السيد الخوئيقدس سره في معجم رجال الحديث ١٨/ ٣٣٩: محمد بن هبة الله: قال الشيخ منتجب الدين في فهرسته: الشيخ أبو عبد الله محمد بن هبة الله الوراق الطرابلسي: فقيه، ثقة، قرأ على الشيخ أبي جعفر الطوسي كتبه وتصانيفه، وله تصانيف منها: كتاب الزهد، كتاب النيات، كتاب الفرج، أخبرنا بها الفقيه أحمد بن محمد بن أحمد القمي الشاهد العدل، عنه.

(٣) ويجدر التنبيه إلى أن السيد مير لوحي حكى ذلك بعد أن روى عن الفضل بن شاذان عن محمد بن عبد الجبار الرواية التي يصرّح فيها بأن والدة الإمامعليه السلام ابنة ابن قيصر الروم.

وأما الشيخ الطرابلسي، فكتابه الفرج الكبير مفقود، وكان عند السيد مير لوحي نسخة منه.

وأما الشيخ الطبرسيرحمه الله فله عدة كتب في السيرة، بعضها مطبوع مثل (إعلام الورى)، وبعضها مخطوط مثل (تاج المواليد) وبعضها مفقود. ويرجح أن هذه الرواية مذكورة في بعض كتبه المفقودة اليوم. لكنه أشار في كتاب تاج المواليد إلى أن والدة صاحب الزمانعجل الله فرجه هي نرجس بنت يشوعا بن قيصر ملك الروم، وأن من أسمائها مليكة، وأشار إلى أن لها قضية عجيبة. (راجع قسم الملاحق)

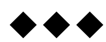
رضي الله عنهم جميعًا، في كتبهم بعبارات مختلفة ومعان متفقة.[١]

- مضافًا إلى هذه المصادر فقد أورد جملة من المحدثين هذه الرواية في كتبهم المعتبرة، منهم: الفتال النيشابوري، وابن شهراشوب، والسيد هاشم البحراني، والحر العاملي، والعلامة المجلسي، وغيرهم رضوان الله عليهم.[٢]

فهذه شواهد تؤيد اعتماد العلماء هذه القضية، لكن لما كان مرجع إيرادهم الرواية الطرق المتقدمة، فإننا نناقش الأسانيد التي أوردها الصدوق والطبري والطوسي، وما حكاه السيد مير لوحي عن الطبرسي والطرابلسي رحمهما الله. ولابد في مناقشة الأسانيد من تقسيم الكلام إلى مرحلتين:

- الأولى: مناقشة رجال السند الذين سبقوا محمد بن بحر الرهني.
- الثانية: مناقشة حال محمد بن بحر الرهني، وبشر بن سليمان النخاس.

مع التنبيه إلى أننا لا نرغب باستيفاء المناقشة فلا نرى حال الكتاب يستدعي ذلك، وليس البناء في البحث التاريخي على المداقة في الأسانيد.



(١) مختصر كفاية المهتدي ١٠٨

(٢) راجع: روضة الواعظين ١/ ٢٥٢، والمناقب ٤/ ٤٤٠، وحلية الأبرار ٥/ ١٤١، وإثبات الهداة ٣/ ٣٦٣، وبحار الأنوار ٥١/ ٦، والجزء الأول من (بحوث علمية في القضية المهدوية) الصادر عن العتبة الحسينية المقدسة، الفصل الثالث: تحقيق حول والدة الإمام صاحب الزمان عجل الله فرجه.

وأما كلامنا في المرحلة الأولى (مناقشة رجال السند قبل محمد بن بحر الرهني) فنقول معقبين على الروايات الثلاث:

• أما ما رواه الشيخ الصدوق، فإن المناقشة الآن في: (محمد بن علي بن حاتم النوفلي، وأبي العباس أحمد بن عيسى الوشاء البغدادي، وأحمد بن طاهر القمي).

أما النوفلي فهو من مشايخ الصدوق روى عنه في عدة موارد وقد ترضى عليه[1]، وهذا يكفي في توثيقه، فضلا عما سيأتي، أما بقية رجال السند (أحمد بن عيسى الوشاء) و(أحمد بن طاهر القمي)، فالطريق إلى توثيقهم ما أفاده المرجع الراحل الشيخ لطف الله الصافي قدس سره ضمن مناقشته لأحوال بعض الرواة في كتابه منتخب الأثر.

قال رحمه الله: أمّا أحمد بن عيسى الوشّاء البغدادي أبو العباس، وشيخه أحمد ابن طاهر القمّي، فأسند إليهما الصدوق أيضا في (كمال الدين) في الجزء الثاني (باب٤١ باب ما روي في نرجس أمّ القائم عليه السلام واسمها مليكة بنت يشوعا بن قيصر الملك)، والظاهر معرفته بحالهما واعتماده عليهما، وذلك لأنّه لم يرو في هذا الباب الذي هو من الأبواب المهمّة من كتابه إلاّ حديثا واحدا، وهو ما رواه عن شيخه محمد بن علي بن حاتم النوفلي، عن أبي العباس أحمد بن عيسى الوشّاء البغدادي، عن أحمد ابن طاهر، بل يظهر من ذلك كمال وثاقتهما عنده، واعتماده

---

(١) معجم رجال الحديث ١٨/ ٢٦

على صدقهما وأمانتهما، ويظهر ممّا عنون به الباب أيضا اعتماده واستدلاله على ما كان مشهورا في عصره من اسم أمّه عليه السلام ونسبها بهذا الحديث، فالرجلان كانا معلومي الحال عنده بالصدق والأمانة، وإلاّ فلا ينبغي لمثله أن يعتمد على رواية غير موثّقة، لا يعرف رواتها بالوثاقة في مثل هذا الأمر المعتنى به عند الخاصّ والعامّ، فالمظنون بل المقطوع اطمئنانه بصحّة الرواية وصدق رواتها، ولو تنزّلنا عن ذلك فلا محيص عن القول باطمئنانه بصدورها بواسطة بعض القرائن والأمارات المعتبرة التي يجبر بها ضعف الراوي، ويقطع بها بصحّتها، وإلاّ فيسأل: ما فائدة عقد باب في كتاب مثل (كمال الدين) للاحتجاج برواية واحدة لا يحتجّ بها ولا يعتمد عليها مؤلّف الكتاب لجهله بأحوال رجالها؟ وما معنى عنوان الباب بمضمونها؟ وكيف يقبل صدور ذلك من الصدوق قدس سره؟ ألم يصنّف كتابه (كمال الدين) لرفع الحيرة والشبهة والاستدلال على وجود الحجة؟[1] فهل هذه الرواية إذا كان مؤلّف الكتاب لا يعتمد عليها تزيد الشبهة والحيرة أو ترفعها؟[2] انتهى كلامه عطّر الله مرقده.

لقد صحح المرجع الراحل الشيخ الصافي قدس سره رجال السند معتمدًا على

(١) ولا بأس بمراجعة مقدمة الشيخ الصدوق رحمه الله في كمال الدين وأنه صنّف الكتاب بأمر المولى صاحب الأمر عجل الله فرجه لرفع الشك والحيرة والارتياب في غيبته عليه السلام، وأنه يعتمد لرفع الارتياب على الآثار الصحيحة.

(٢) منتخب الأثر ٣/ ٣٣٣

كيفية إيراد الشيخ الصدوقﷺ للرواية، حيث استظهر كمال وثاقة رجال الخبر عند الشيخ الصدوق، ومن ثَمّ اكتفى بهذا على عدّهم رواة ثقاة يعتمد عليهم في تصحيح أسانيد روايات أخرى، فالرواية على مبنى الشيخ الصافيﷺ معتبرة الإسناد.

- أما طريق الطبريﷺ، فالكلام في راو واحد وهو أبو المفضل محمد بن عبد الله بن المطلب الشيباني.

أدرك الطبريﷺ محمد بن عبد الله الشيباني وروى عنه[١]، ومحمد بن عبد الله الشيباني يروي مباشرة عن محمد بن بحر الرهني الشيباني عن بشر النخاس.

وأبو المفضل محمد بن عبد الله الشيباني يصفه النجاشي بأنه كان ثبتا في أول أمره ثم خلط[٢]، ووصفه الشيخ الطوسي بأنه كثير الرواية حسن الحفظ[٣]، والحقيقة أن الذي يهمنا اعتبار روايته في أول أمره؛ لأنه روى عن الرهني، والرهني توفي قبل سنة ٣٣٠هـ[٤]، وكان الرهني من المعمرين، وأبو المفضل محمد بن عبد الله الشيباني كان قد تلقى الحديث سنة ٣٠٤هـ[٥]، وتوفي سنة ٣٨٥هـ[٦]،

---

(١) راجع الذريعة للآغا بزرك الطهراني ٨/ ٢٤٢

(٢) رجال النجاشي ٣٩٦

(٣) الفهرست ٢١٦

(٤) ابن حجر في لسان الميزان ٥/ ٨٩، ولكن آغا بزرك في الذريعة ٥/ ٤٤ قال بأنه توفي سنة ٣٤٠هـ

(٥) أمالي الطوسي ٦٠٩

(٦) الذريعة لآغا بزرك الطهراني ٨/ ٢٤٢

وعلى ذلك فلن يتسنى لأبي المفضل الشيباني تحمل الحديث عن الرهني إلا في بادئ أمره؛ لأن الرهني توفي مبكرًّا بالنسبة إليه فلا يسعه تحمل الحديث عنه متأخرًّا، وتهمة التخليط -إن صحت- متأخرة عن وقت تحمله هذه الرواية.

قال شيخ الطائفة: وأما ما ترويه الغلاة والمتهمون والمضعفون وغير هؤلاء، فما يختص الغلاة بروايته[1]، فإن كانوا ممن عرف لهم حال استقامة وحال غلو، عمل بما رووه في حال الاستقامة، وترك ما رووه في حال خطئهم، ولأجل ذلك عملت الطائفة بما رواه أبو الخطاب محمد ابن أبي زينب في حال استقامته وتركوا ما رواه في حال تخليطه... فأما ما يرويه (الغلاة) في حال تخليطهم فلا يجوز العمل به على كل حال.[2]

فإن أشد ما يقال في هذه السند أن أبا المفضل الشيباني خلط في آخر عمره، وهذا لا يضر في قبول روايته هنا، كما يتميز هذا السند بقصره واتصاله ما يزيده قوة واعتبارًا، وقد توهم البعض أن فيها إرسالا أو سقطاً، وهو محض توهم منشؤه الغفلة عن كون الرهني معمرًا.

• أما طريق الشيخ الطوسي رحمه الله، فإنه عن جماعة، عن أبي المفضل الشيباني.

والكلام في أبي المفضل الشيباني عين الكلام المتقدم في سند الطبري، لكن

---

(١) فضلا عن ذلك فإن ما نحن فيه ليس من مختصات أبي المفضل الشيباني، فالأمر فيه أسهل.

(٢) عدة الأصول ١/ ١٥١

الكلام هنا في لفظة (جماعة) في سند الشيخ رحمه الله، لذا نورد كامل عبارته السابقة كما وردت في الفهرست، قال رحمه الله: (محمد بن عبد الله بن المطلب الشيباني، يكنى أبا المفضل، كثير الرواية، حسن الحفظ، غير أنه ضعفه جماعة من أصحابنا. له كتاب الولادات الطيبة الطاهرة، وله كتاب الفرائض، وله كتاب المزار، وغير ذلك، أخبرنا بجميع كتبه ورواياته عنه جماعة من أصحابنا). وظاهر عبارة الشيخ اعتماده على أخبار أبي المفضل الشيباني رغم تضعيف جماعة من الأصحاب له، ثم إن الشيخ أجل وأعلى قدرًا من أن يعتمد على جماعة من أصحابه وليس فيهم ثقة يقبل حديثه[1]!

هذا مضافًا إلى أن جماعة الشيخ الطوسي التي تروي عن أبي المفضل الشيباني أسماؤهم معلومة، منهم أبو عبد الله الحسين بن عبيد الله المعروف بابن الغضائري[2]، وفي هذا مزيد اعتبار للخبر، وبيان ذلك:

أن الشيخ ابن الغضائري رحمه الله قال في ترجمة أبي المفضل الشيباني: محمّد بن

---

(١) وهذا مبنى جملة من العلماء كالميرزا جواد التبريزي قدس سره، راجع الفوائد الرجالية من موسوعته ص١٧٣

(٢) قال المحقق الحلي رحمه الله في الفوائد التسع ص١٩١: الذي وصل إلي في ذلك ووجدته بخطّ بعض الفضلاء أنّ الجماعة الذين هم طريق الشيخ رحمه الله تعالى إلى أبي المفضّل منهم أبو عبد الله الحسين بن عبيد الله، وأبو علي محمد بن إسماعيل بن أشناس، وأبو طالب بن غرور، واسم أبي المفضّل محمّد بن عبد الله بن المطّلب الشيباني.

كما صرح بأسمائهم الشيخ الطوسي رحمه الله في المجلس السادس عشر من الأمالي ص٤٤٥

عبد اللهّ بن محمّد بن المطّلب، الشيبانيّ، أبو المفضّل. وضّاع، كثير المناكير، رأيت كتبه، وفيها الأسانيد من دون المتون، والمتون من دون الأسانيد، وأرى ترك ما ينفرد به.[1]

وقد تقدم كلام النجاشي بأنه كان ثبتًا أول أمره ثم خلط، فيبدو أن التضعيف هنا من ابن الغضائري لِما كان في عاقبته من التخليط، وكيف كان فالمهم أن ابن الغضائري رَحِمَهُ اللهُ صرّح بأنه يرى ترك ما تفرد به أبو المفضل الشيباني، وهذا يلزم أن ابن الغضائري لا يرى هذا الخبر من المناكير وأنه خبر خالٍ من التهمة.

هذا إذا كان مقصود الشيخ ابن الغضائري من عبارة (أرى ترك ما ينفرد به) أنه يترك رواية ما ينفرد به أبو المفضل الشيباني. ولعل هذا الاستظهار من عبارة ابن الغضائري هو ما أشار إليه المحقق التستري رَحِمَهُ اللهُ في قاموس الرجال، حيث قال: والتحقيق ما قاله النجاشي من حصول الخلط له أخيرا وثبته أوّلا وصحّة ما رواه مشايخ الشيخ والنجاشي عنه، وقد أكثر الأوّل في أماليه عنه[2].

أما إذا كان مقصود ابن الغضائري من ذلك أنه قد ينفرد بالرواية عنه ولكنه يرى ترك العمل بما ينفرد به أبو المفضل فإن النتيجة لن تختلف هنا؛ وذلك لأن ابن الغضائري روى عن أبي المفضل الشيباني عدة أخبار معتبرة، وروى عنه أيضًا كتاب الكافي وروى عنه الصحيفة السجادية، وغير ذلك ما يعني أن روايات

---

(١) رجال ابن الغضائري ٩٨

(٢) قاموس الرجال ٩/ ٣٩٠

أبي المفضل الشيباني ليست كلها مردودة فهذا ما لا يمكن افتراضه أصلا فضلا عن القول به! ولابد من وجود ما هو معتبر من مرويات أبي المفضل؛ وضابطة التعامل مع مرويات أبي المفضل ترك العمل بما ينفرد به، فإذا علمت أنه لم ينفرد بخبر مجيء السيدة نرجس عليها السلام من الروم إلى سامراء لأنه خبر موافق لما رواه الشيخ الصدوق بطريق آخر، فإنه لا وجه لترك ما رواه هنا.

- هذا فضلا عن هذه الطرق فقد حكى السيد مير لوحي في كفاية المهتدي طرقًا أخرى لنفس الخبر، حيث قال:

(وليعلم أنه بسبب طولانية حديث والدة صاحب الأمر عليه السلام الماجدة فإننا نقتصر في هذا المقام على ترجمته[1] رعاية للاختصار. روى الفضل بن شاذان وابن بابويه والشيخ الطوسي والشيخ الطبرسي والشيخ الطرابلسي وغيرهم كثير جدًّا من علماء الإمامية رضي الله عنهم جميعًا في كتبهم بعبارات مختلفة ومعان متفقة...)[2].

---

(١) لأن كتاب كفاية المهتدي مبني على إيراد الخبر بالعربية ثم ترجمته للفارسية مع تعليقات السيد رحمه الله لكنه في هذا المورد اكتفى بالترجمة دون نقل النص العربي لطوله.

(٢) راجع مختصر كفاية المهتدي ١٠٨

ونص عبارة المير لوحي بالفارسي من الكتاب الأصلي: كه حديث والده ماجده حضرت صاحب الامر عليه السلام چون طولى دارد به جهت اختصار در اين مقام ترجمه آن اقتصار مينمايد فضل بن شاذان وابن بابويه وشيخ طوسى وشيخ طبرسى وشيخ طرابلسى وبسيار كسى غير ايشان از علماى اماميه رضوان الله عليهم اجمعين در كتابهاى خود روايت كرده اند به عبارات مختلفه و معانى متّفقه...

والطرق التي أشار إليها المير لوحي ولم تصل إلينا، هي ما عن الشيخ الطرابلسي والشيخ الطبرسي.

فإذا اجتمعت هذه الأسانيد المذكورة والمحكية عن علمائنا وكلها تورد نفس التفاصيل، فإنه يلزم العلم بأن الرهني قد حدّث بهذا الخبر، ويمكن القول بأنه قد صح عن الرهني أنه حدّث بهذا الخبر، إذ من الممتنع تواطؤ هؤلاء الرواة على الكذب مورِدين نفس التفاصيل بنفس الكيفية.

والحاصل أنه لا ينبغي الشك بصحة الطريق إلى محمد بن بحر الرهني، وإنما الكلام فيه وفيمن بعده، وهو ما سيأتي بحوله تعالى.



وأما الكلام في المرحلة الثانية من مناقشة السند؛ أعني حال محمد بن بحر الرهني الشيباني، وحال بشر بن سليمان النخاس، فنقول:

- أما محمد بن بحر الرهني الشيباني:

فقد ذكره الشيخ الطوسي رحمه الله في الفهرست قائلا: (محمد بن بحر الرهني من أهل سجستان، كان متكلما عالما بالأخبار فقيها إلا أنه متهم بالغلو، وله نحو من خمس مائة مصنف ورسالة، وكتبه موجودة أكثرها موجود بخراسان ببلاد خراسان، فمن كتبه كتاب الفرق بين الآل والأمة، وكتاب القلائد)[1].

---

(١) فهرست الشيخ الطوسي ١٣٢

وقال النجاشي: (محمد بن بحر الرهني أبو الحسين الشيباني ساكن نرماشير من أرض كرمان. قال بعض أصحابنا: إنه كان في مذهبه ارتفاع، وحديثه قريب من السلامة. ولا أدري من أين قيل ذلك)[1].

وأنت ترى في كلامهم مدحا له ولفقهه وعلمه ولحديثه، غير أن ثمة تهمة في الغلو، لا يدرى ما منشؤها[2]، ولا يمكن الاعتماد عليها لتضعيفه، إذا الغلو -على فرض ثبوته- لا يلزم ضعف رواياته، كما أن صريح النجاشي أن حديثه قريب من السلامة.

ثم إن ههانا وجهًا في تبرئته من الغلو، وهو ما ذكر في ترجمته من أن له كتبًا في الفقه، مثل: كتاب الطلاق، وكتاب المبسوط في الصلاة، وكتاب المناسك[3]، وما حكاه العلامة رحمه الله في ترجمته، حيث قال: (له كتب منها كتاب القلائد فيه كلام على مسائل الخلاف التي بيننا وبين المخالفين. وجدت بخط السيد السعيد صفي الدين محمد بن معد: هذا الكتاب عندي وقع إلي من خراسان، وهو كتاب جيد مفيد وفيه غرائب. ورأيت مجلدا فيه كتاب النكاح حسن بالغ في معناه، ورأيت أجزاء

---

(١) رجال النجاشي تحت رقم ١٠٤٤

(٢) يحتمل أن منشأ التهمة راجع إلى تفضيله الأئمة عليهم السلام على الملائكة، ومعلوم أن هذا القول لا يلزم منه التحرز عن رواياته، بل ليس من الغلو أصلا! وهذا مبرر وجيه ليتهمه العامة بالغلو.

راجع مقال: (شذرات من كتب مفقودة لمحمد بن بحر الرهني الكرماني) للشيخ رسول جعفريان، منشور في مجلة تراثنا العددان ٨٣ و٨٤ رجب وذي الحجة ١٤٢٦هـ.

(٣) معالم العلماء في فهرست كتب الشيعة وأسماء المصنفين قديمًا وحديثا لابن شهرآشوب ٩٦

مقطعة وعليها خطه إجازة لبعض من قرأ الكتاب عليه يتضمن الفقه والخلاف والوفاق. وظاهر الحال أن المجلد الذي يتضمن النكاح يكون أحد كتب هذا الكتاب الذي الاجزاء المذكورة منه)[1].

وكان الغلاة يقولون بسقوط التكاليف، وترك الصلاة والصوم والحج[2]، كما ذُكر أيضًا أن الأصحاب كانوا يمتحنون الغلاة في أوقات الصلاة[3].

ومن ذلك ما روي أن محمد بن أورمة رحمه الله طعن عليه بالغلو، فدُس إليه من يفتك به ويقتله، فوجدوه يصلي أول الليل إلى آخره، فتوقفوا عنه![4] إذ لا تجتمع الصلاة مع الغلو في شخص واحد.

والحاصل أن الغلو المهم في البحث عن وثاقة الراوي ليس اختلافنا في عقيدة ما مع الغالي، فإن كثيرًا من المؤمنين قد يكون في عقيدتهم غلوًّا أو تقصيرًا بما

---

(١) إيضاح الاشتباه ٢٩٠

(٢) راجع أمالي الطوسي ٦٥٠

(٣) رجال الكشي ٢/ ٨١٢

(٤) معجم رجال الحديث ١٦/ ١٢٤

ولعل العامة هم الأصل في اتهام ابن أورمة بالغلو، حيث روى الإربلي في كشف الغمة عن ابن أورمة قال: خرجت إلى سرّ من رأى أيّام المتوكل فدخلت إلى سعيد الحاجب (لعنه الله) ودفع المتوكل أبا الحسن عليه السلام إليه ليقتله، فقال (سعيد الحاجب) لي: أ تحب أن تنظر إلى إلهك؟ فقلت: سبحان اللهّ إلهي لا تدركه الأبصار! فقال (لعنه الله): الذي تزعمون أنه إمامكم!... (الخبر)

فإن شدة ولاء الرجل واتباعه لأهل البيت عليهم السلام جعلت موظفي السلطة يتهمونه بتأليه الأئمة عليهم السلام!

لا يخرجهم عن الدين، وإحرازُ سلامة كل تفاصيل معتقدات الرواة أمر لا مدخلية له بتوثيق الراوي، ولم يقل به أحد! نعم يشير الرجاليون إلى بعض عقائد الراوي عادة كما يشيرون إلى صفاته الأخرى التي تعرّف شخصيته فإن ذلك نافع في دراسة مروياته.

روى الكليني رحمه الله[١] أن ابن أبي عمير رحمه الله كان يقول بأن الدنيا كلها للإمام عليه السلام على جهة الملك وأنه أولى بها من الذين في أيديهم، وكان هشام بن الحكم رحمه الله يقول بأن ما في أيدي الناس للناس إلا ما حكم الله به للإمام من الفيء والخمس والمغنم فذلك له، واختلفوا في ذلك وغضب ابن أبي عمير لذلك على هشام! وعلى هذا فإن ابن أبي عمير يرى هشامًا مقصرًّا، ويرى هشام في مذهب ابن أبي عمير غلوًّا وارتفاعًا؛ فهل يلزم تضعيف أحدهما؟ المقطوع به أن اختلافهما رضي الله عنهما لا يُخل بوثاقتهما، وليس هذا هو الغلو المضعِّف للراوي، فإن ثبت أو لم يثبت فإنه لا يضر من جهة التوثيق والتضعيف[٢].

والظاهر من كلمات المتقدمين أنهم لم يتفقوا في معنى الغلو[٣].

قال العلامة المجلسي رحمه الله: اعلم أن الغلو في النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام إنما

(١) الكافي ١/ ٤١٠

(٢) نعم فإنه يفيد من جهة اعتبار رأي العلماء، وهذه مسألة رأي وحدس لا علاقة بها بالتوثيق والتضعيف.

(٣) للتفصيل راجع: الغلو في مصطلح الملل والنحل والرجال للشيخ محمد باقر ملكيان ص٣١٣

يكون بالقول بألوهيتهم أو بكونهم شركاء لله تعالى في المعبودية أو في الخلق والرزق أو أن الله تعالى حل فيهم أو اتحد بهم، أو أنهم يعلمون الغيب بغير وحي أو إلهام من الله تعالى أو بالقول في الأئمة: أنهم كانوا أنبياء أو القول بتناسخ أرواح بعضهم إلى بعض، أو القول بأن معرفتهم تغني عن جميع الطاعات ولا تكليف معها بترك المعاصي. والقول بكل منها إلحاد وكفر وخروج عن الدين كما دلت عليه الأدلة العقلية والآيات والأخبار السالفة وغيرها، وقد عرفت أن الأئمة عليهم السلام: تبرؤوا منهم وحكموا بكفرهم وأمروا بقتلهم، وإن قرع سمعك شيء من الأخبار الموهمة لشيء من ذلك فهي إما مأوّلة أو هي من مفتريات الغلاة. ولكن أفرط بعض المتكلمين والمحدثين في الغلو لقصورهم عن معرفة الأئمة عليهم السلام: وعجزهم عن إدراك غرائب أحوالهم وعجائب شؤونهم فقدحوا في كثير من الرواة الثقات لنقلهم بعض غرائب المعجزات حتى قال بعضهم: من الغلو نفي السهو عنهم أو القول بأنهم يعلمون ما كان وما يكون وغير ذلك، مع أنه قد ورد في أخبار كثيرة لا تقولوا فينا ربا وقولوا ما شئتم ولن تبلغوا، وورد أن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، وورد: لو علم أبوذر ما في قلب سلمان لقتله وغير ذلك مما مر وسيأتي.

فلابد للمؤمن المتدين أن لا يبادر برد ما ورد عنهم من فضائلهم ومعجزاتهم ومعالي أمورهم إلا إذا ثبت خلافه بضرورة الدين أو بقواطع البراهين

أو بالآيات المحكمة أو بالأخبار المتواترة كما مر في باب التسليم وغيره.[١]

وقال الشيخ الأعظم رحمه الله: وأمّا الغلاة، فلا إشكال في كفرهم؛ بناءً على تفسيرهم بمن يعتقد ربوبيّة أمير المؤمنين عليه السلام أو أحد الأئمة عليهم السلام، لا ما اصطلح عليه بعضٌ: من تجاوز الحدّ الذي هم عليه صلوات اللهّ عليهم. ومن هذا القبيل ما يطعن القمّيون في الرجل كثيراً ويرمونه بالغلوّ، ولذا حكى الصدوق قدس سره عن شيخه ابن الوليد قدس سره أنّ أوّل درجةٍ في الغلوّ نفي السهو عن النبيّ صلى الله عليه وآله.[٢]

والحاصل أن للغلو عدة معانٍ لكن المهم في البحث معرفة الغالي إن كان يرى سقوط التكاليف[٣]، فيترك الصلاة والصيام، فإنه حينئذٍ لا يتورع عن الكذب، فيخل ذلك بوثاقته.

وقد صرّح علماؤنا بفقاهة الرهني وعلمه بالأخبار، وبأن حديثه قريب من السلامة، كما ثبت أن له كتبًا في الفقه والأحكام ما ينفي عنه الغلو المضعِف للوثاقة. فضلا عن كل ذلك فقد استظهر الشيخ النمازي حسنه وكماله وصحة عقيدته[٤]. ومن أدلة توثيقه ترحم الشيخ الصدوق عليه في علل الشرايع[٥]،

---

(١) بحار الأنوار ٢٥/ ٣٤٦

(٢) كتاب الطهارة للشيخ مرتضى الأنصاري ٥/ ١٤٩

(٣) راجع قبسات من علم الرجال للسيد محمد رضا السيستاني حفظه الله، ج٣ ص٤٥

(٤) مستدركات علم الرجال ٦/ ٤٧٧

(٥) علل الشرايع ١/ ٢٠ وعبارته رحمه الله: باب ما ذكره محمد بن بحر الشيباني المعروف بالرهني رحمه الله في كتابه من قول مفضلو الأنبياء و الرسل و الأئمة و الحجج صلوات الله عليهم أجمعين على الملائكة.

وترضيه عليه[١]، والترضي على الراوي من أمارات توثيقه[٢] ويبدو أن هذا كافٍ في قبول روايته في مثل ما نحن فيه على الأقل.

- أما بشر بن سليمان النخاس رحمه الله:

فقد قال الوحيد البهبهاني في التعليقة: (هو من ولد أبي أيّوب الأنصاريّ،

---

(١) وترضى عليه في علل الشرايع أيضًا ١/ ٢١١، ونص عبارة الشيخ الصدوق رحمه الله: (قال محمد بن علي مصنف هذا الكتاب قد ذكر محمد بن بحر الشيباني رضي الله عنه في كتابه المعروف بكتاب الفروق بين الأباطيل والحقوق...)

ومقصودنا من نقل نص كلام الشيخ الصدوق رحمه الله أن كيفية ترضيه على الرهني ليست استطرادًا في السند ولا بكيفية يحتمل أنها من إضافة النساخ، فإنها جاءت بكيفية واضح منها أن الشيخ الصدوق رحمه الله قصد الترضي عليه، وهذا آكد في بيان توثيقه للرهني.

كما أن العلامة المجلسي رحمه الله في البحار ٤٤/ ٢ حين نقل كلام الشيخ الصدوق رحمه الله نقل ترضيه عليه، ما يعني أن الترضي كان موجودا في نسخة العلامة المجلسي، ما يؤكد أنها ليست من إضافة النساخ.

(٢) قال الشيخ المامقاني رحمه الله في مقباس الهداية ٢/ ٢٣ في أسباب المدح وأماراته: ومنها ذكر الجليل شخصًا مترضيًا أو مترحمًا عليه، فإنه يكشف عن حسن ذلك الشخص بل جلالته.

وقال السيد محمد رضا السيستاني حفظه الله في القبسات ١/ ٣١: وأما الترضي فالصحيح أنه يدل على الجلالة التي هي فوق مستوى الوثاقة. وقال أيضًا: ولكن مع تتبع كتب السابقين من العامة والخاصة يلاحظ عدم استعمال الترضي في كلماتهم إلا بحق العظماء والأجلاء عندهم، فهو قد تحول إلى لفظ تكريم وتعظيم على لسان المتشرعة وإن كان مدلوله اللغوي هو مجرد الدعاء، ونظيره لفظة (عليه السلام) التي لا تطلق عند العامة إلا في حق النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ولا تطلق عندنا إلا في حق المعصومين ومن يدانيهم في الرتبة كبعض الشهداء مثل العباس عليه السلام مع أنها بحسب معناها اللغوي لا تختص بهم.

والحاصل: أن الترضي ليس محض دعاء -كما قيل- بل يدل على التعظيم والتبجيل، فليتدبر.

أحد موالي أبي الحسن وأبي محمّدعليهما السلام، هو الّذي أمره أبو الحسنعليه السلام بشراء أمّ القائم. وقالعليه السلام فيه: أنتم ثقاتنا أهل البيت، وإنّي مزكّيك ومشرّفك بفضيلة تسبق بها سائر الشيعة.)[1].

وقد نقل الشيخ المامقانيرحمه الله كلام الوحيد البهبهانيرحمه الله، ثم قال: (فالرجل حينئذ من الثقات، والعجب من إهمال الجماعة ذكره مع ما هو عليه من الرتبة)[2].

ثم إن دقة النقل في الخبر وما تقدم من قرائن تثبت انسجامه مع أخبار إمبراطورية الروم بما لا يتصور صدوره من كذاب ملفق للأخبار دليل على صدق الراوي ووثاقته، هذا مضافًا إلى تزكيته لنفسه فإنها -هنا- دليل جلالة قدره، خلافا للأصل الغالب في أن تزكية الراوي لنفسه لا اعتبار لها[3]، ففي مطاوي الخبر المفصل شواهد صحة التزكية، فإنه -فضلا عن دقة الخبر بكل حيثياته- قد ادعى أمرًا مهمًّا، وهو قوله: (كان مولانا أبو الحسن علي بن محمد العسكريعليه السلام فقهني في أمر الرقيق، فكنت لا أبتاع ولا أبيع إلا بإذنه فاجتنبت بذلك موارد الشبهات، حتى كملت معرفتي فيه، فأحسنتُ الفرق فيما بين الحلال والحرام).

ثم قال في سرده للخبر أن الإمام الهاديعليه السلام أمره أن يتوجه إلى عمر بن

(١) راجع منهج المقال في تحقيق أحوال الرجال للأسترابادي بتعليقة الوحيد البهبهانيرحمهما الله ٣/ ٥٠

(٢) تنقيح المقال ١٢/ ٢٧١

(٣) في هذه الكبرى خلاف بين الرجاليين.

يزيد النخاس في سوق نخاسة بغداد، يقول له: (إن معي كتابا ملصقًا لبعض الأشراف كتبه بلغة رومية وخط رومي ووصف فيه كرمه ووفاءه ونبله وسخاءه، فناولها لتتأمل منه أخلاق صاحبه فإن مالت إليه ورضيته فأنا وكيله في ابتياعها منك. قال بشر بن سليمان النخاس: فامتثلت جميع ما حده لي مولاي أبو الحسن عليه السلام في أمر الجارية، فلما نظرت في الكتاب بكت بكاء شديدًا، وقال لعمر بن يزيد النخاس: بعني من صاحب هذا الكتاب...)

وموضع الشاهد من الخبر عبارتي: (فأنا وكيله في ابتياعها منك)، و(بعني من صاحب هذا الكتاب)، فإن المداقة في ألفاظ الوكالة شأن لنخبة المتفقهين في أحكام الحلال والحرام، وإن عامة المتشرعة -فضلا عن العوام- لا يدققون في مثل هذه الموارد على كون البيع بالأصالة أو الوكالة، وهذا الأسلوب لا يكون إلا من متفقه مدقق في الحلال والحرام، يتحرى الاحتياط ويتوخى موارد الشبهات.

فكان ما خرج من فلتات لسانه شاهدًا على صدق مدعاه من فقاهة وامتثال لأوامر الإمام عليه السلام، لأن الراوي بطبيعة الحال حين ينقل حادثة بهذا الطول يقتصر على المواضع المهمة لا كل التفاصيل، وتدقيقه في هذا الموضع ملفت.

إنك إذا تأملت قضايا شراء جواري الأئمة عليهم السلام السابقة لهذه القضية، لا تجد فيها لفظة الوكالة، رغم أن الراوي يخرج وكيلا عن الإمام بأمره وبأمواله ليشتري جارية معينة للإمام عليه السلام، لكن الراوي يُغفِل هذه الجزئية.

قال الراوي في خبر شراء السيدة حميدة المصفاة عليها السلام حين بلوغه إلى النخاس: (فقلنا: بكم تبيعنا هذه المتماثلة؟ قال: بسبعين دينارا. قلنا: أحسِن. قال:

لا أنقص من سبعين دينارا. قلنا له: نشتريها منك بهذه الصرة ما بلغت ولا ندري ما فيها)[١]. وأنت ترى هنا تعبير الراوي (تبيعنا) و(نشتريها)، ولم يشر الراوي إلى أن الشراء كان بالوكالة عن غيره، وتجد الراوي يقايض البائع على البيع بجهالة الثمن[٢]، وهذا شائع في العرف راجع إلى عدم المداقة في المعاملات.

ولو أردنا تعداد الأمثلة لطال الكلام، ودونك السلوك العملي للمجتمع فإن هذه المداقة نادرة في المعاملات راجعة إلى تفقه وتوخٍّ للشبهات؛ وهنا تنبيه لطيف دقيق مناسب للمقام بأن لتأكيد الراوي على كونه وكيلا لوازم فقهية مهمة ذكرت في مطاوي بحوث الفقهاء[٣]، وهي أنه هل يشترط في صحة البيع تعيين طرفي العقد (الموجِب والقابل)، وفي ذلك شِقّان؛ إما أن يكون لشخصهما دخل في مراد الموجِب أو القابل أو لا يكون.

وذلك يختلف باختلاف العقود وظروفها، فإن ذلك مراد في عقود النكاح مثلا، كما يراد أيضًا إذا كان للبائع أو المشتري خصوصية لها مدخلية في المعاملة، كما نرى في أصحاب التجارات الخاصة فإنهم يتبايعون فيما بينهم بأقل مما يبيعون لغيرهم، وترى ذلك في ذوي الأرحام والعلق الاجتماعية فإنهم يبيعون للمقربين بأقل من غيرهم تقديرًا للرحم أو أي علقة محترمة. فلو أن شخصًا أراد شراء

---

(١) أصول الكافي ١/ ٤٧٦

(٢) تنويه: لم تقع المعاملة في نهاية الأمر على جهالة الثمن، والبيع لم يقع إلا بعد معلومية الثمن.

(٣) راجع المكاسب للشيخ الأعظم ٣/ ٣٠٣ (بحث القصد من شروط المتعاقدين)

سلعة من ذي رحم فإنه قد يشتريها بنصف السعر إكراما للرحم، ولو جاءه غيره لباع بسعرها المتعارف، كما أن بعض التجار قد لا يبيع سلعة معينة -كخاتم أو مسبحة- إلا لمن يستحقها، فإذا جاء من لا يستحق لم يبع وإن كان في ذلك خسارة له، اعتزازًا بالسلعة، ونحوها من سلوكيات في التجارة أمثلتها لا تحصر كلها تعود إلى أن يكون لطرفي العقد مدخلية في البيع والشراء، وهنا يرد الكلام... أنه لو اشترى من له هذه الخصوصية لكن بالوكالة عن غيره، أي أن شخصًا اشترى من ابن عمه دارًا بالوكالة عن غيره، فباعه ابن عمه بأدنى من الثمن المتعارف إكراما للرحم، ثم تبيّن لاحقا أن الرجل اشترى بالوكالة لا بالأصالة، فإن البيع هنا لا يخلو عن شبهة، لأن قصد البائع كان لذي الرحم لا لغيره.

هذا كله إذا لم يشهد الحال بوجود شرط ارتكازي: بأني أبيع بهذا الثمن لك لا لغيرك، فحينها تكون الشبهة أوضح في التشكيك بصحة البيع.

وفضلا عن شائبة الحرمة الوضعية واحتمال بطلان البيع فإن هذه المعاملة لا تخلو عن شائبة غش وحرمة تكليفية!

وبشر بن سليمان النخاس بصفته نخاسًا يشتري من نخاس، فإن ثمن البيع قد يختلف عما لو اشترى بالنيابة عن رجل من الأشراف، فكان التنبيه على الشراء بالوكالة أوفق وأقرب للاحتياط، وهو تنبه والتفات دقيق لا يصدر إلا من محتاط متفقه في الأحكام لا من محتاطي العوام، وهو شاهد صدقه في مدعاه في مبدئ كلامه بأن الإمام عليه السلام فقهه في أمر الرقيق، وأنه كان يجتنب موارد الشبهات، وأنه قد أحسن الفرق فيما بين الحلال والحرام! وكل هذه الشواهد قرائن على وثاقةِ

الرجل وصدقِه واعتمادِ روايته رَحِمَهُ اللهُ.

ومن التزكيات الواردة بشأنه أيضًا ما ذكره محمد بن بحر الرهني حين رأى فيه سيماء العبادة حيث قال في وصفه أنه شيخ تقوّس منكباه، وثفنت جبهته وراحتاه. ووجود أثر العبادة وحسن الظاهر عليه أدعى لتصديقه فضلا عن اقترانها بأمارات الصدق في كلامه.

مضافًا إلى إن تهمة الكذب بدعواه التشيع بعيدة عنه، فلا مقتضي له في ظل ظروف العصر العباسي من مطاردة وملاحقة لأتباع أهل البيتعَلَيْهِمُ السَّلَامُ ما يورث الخوف في قلوبهم ويدعوهم إلى التخفي، فالحال يقتضي كتمان الانتماء إلى أهل البيتعَلَيْهِمُ السَّلَامُ وهو ما كان منه فعلا بادئ الأمر، ولم يبح بانتمائه إلا بعد وثوق واطمئنان، ثم حدّث بحديث مفصل يذكر فيها معلومات دقيقة في قصور الروم، وتفاصيل سريّة جرت داخل بيت الإمامعَلَيْهِ السَّلَامُ، كلها مؤيدة ومعتضدة بروايات أخرى، وغيرها من المعلومات مما لا يمكن لكاذب أن يطلع عليها.



وحاصل الكلام وخلاصة البحث في سند الرواية أنه لا ينبغي الشك باعتبار الطريق إلى الرهني بعدة قرائن أهمها توافق الروايات وتطابقها -على اختلاف أسانيدها- ما يورث اليقين والعلم بأن الرهني حدّث بهذا الخبر.

وأما الرهني فيكفي في توثيقه ترضي الشيخ الصدوق عليه، وأما بشر النخاس فدليل وثاقته ما ثبت في مطاوي كلامه من صدق دعواه بفقاهته واجتنابه

موارد الشبهات بكيفية لا تصدر إلا من متفقه. مضافًا إلى ما أخبر به الرهني من ظهور سيماء الصالحين عليه، ومن إدعائه التمسك بأهل البيتعليهم السلام دون داع للكذب أو مصلحة تقتضي ذلك وإنما يعرّض نفسه للخطر بهذه الدعوة.

هذا فضلا عن بقية القرائن التي تثبت اعتبار سند الرواية ككلمات الرجاليين المتقدمة.

يضاف إلى ذلك كلام الشيخ الأعظمقدس سره في المكاسب في بحث الأرض المفتوحة عنوة بعد إيراده رواية عن خصال الشيخ الصدوقرحمه الله، قالقدس سره: وفي سند الرواية جماعة تخرجها عن حد الاعتبار إلا أن اعتماد القميين عليها وروايتهم لها مع ما عرف من حالهم لمن تتبعها من أنهم لا يثبتون في كتبهم رواية في راويها ضعف إلا بعد احتفافها بما يوجب الاعتماد عليها جابر لضعفها في الجملة.[1]

فضلا عن ذلك فإن اعتضاد الرواية بصحيحة محمد بن عبد الجبار بأن والدة الإمامعجل الله تعالى فرجه الشريف من نسل قيصر الروم، وما حدّث به محمد بن علي بن حمزة من أن اسمها مليكة بما يوافق رواية الشيخ الصدوق، يخرجها عن كونها خبر آحاد إلى خبر مستفيض ومشهور[2].

---

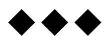
(١) المكاسب ١/ ٣٠١

(٢) قال الشيخ حسين بن عبد الصمد العامليرحمه الله (والد الشيخ البهائي) في وصول الأخيار إلى أصول الأخبار: قد يروى الحديث من طريقين حسنين أو موثقين أو ضعيفين أو بالتفريق، أو يروى بأكثر من طريقين كذلك فيكون مستفيضاً. وقال في مورد آخر من الكتاب: المشهور: وهو ما زاد روايه على ثلاثة، ويسمى (المستفيض) أيضاً، وقد يطلق على ما اشتهر العمل به بين الأصحاب.

والإنصاف -رغم ذلك- أن الكلام قابل للنقض والإبرام، وتصحيح الرواية على بعض المباني لا يلزم صحتها على جميع المباني، وما كان قرينة على اعتبار سندها عند الشيخ الصافي‌قدس‌سره ليس شرطًا أن يكون قرينة على ذلك عند غيره من الفقهاء. وتعبير الشيخ عباس القمي‌رحمه‌الله عن سندي الصدوق والطوسي في هذا الخبر بأنها أسانيد معتبرة(١) وإن أورث القناعة عند البعض إلا أن ثمة مساحة للمناقشة فلا يحق مصادرة اجتهاد الطرف الآخر في مناقشة السند.

ولكن المتتبع يرى رغم ذلك أن هذا الخبر بالقياس إلى نظائره في أخبار ولادات الأئمة‌عليهم‌السلام مثل خبر: (بأبي ابن النوبية الطيبة)، ونحوه في أخبار السيرة، من أكثر الأخبار اعتبارًا، فإن ضعف سنده غير واضح والأقرب صحته.

ثم إن اللازم بعد وضوح إمكانية تصحيح السند أنه لا يجوز الاستخفاف بالرواية، فعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ الْحَذَّاءِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍعليه‌السلام يَقُولُ: وَاللهِ إِنَّ أَحَبَّ أَصْحَابِي إِلَيَّ أَوْرَعُهُمْ وَأَفْقَهُهُمْ وَأَكْتَمُهُمْ(٢) لِحَدِيثِنَا، وَإِنَّ أَسْوَأَهُمْ عِنْدِي حَالًا وَأَمْقَتَهُمْ لَلَّذِي إِذَا سَمِعَ الْحَدِيثَ يُنْسَبُ إِلَيْنَا وَيُرْوَى عَنَّا فَلَمْ يَقْبَلْهُ اشْمَأَزَّ مِنْهُ وَجَحَدَهُ وَكَفَّرَ مَنْ دَانَ بِهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي لَعَلَّ الْحَدِيثَ مِنْ عِنْدِنَا خَرَجَ وَإِلَيْنَا أُسْنِدَ فَيَكُونُ بِذَلِكَ خَارِجاً عَنْ وَلَايَتِنَا(٣).



(١) منتهى الآمال ٢/ ٦٩٣

(٢) تحت عنوان (الظروف الحرجة والتقية) تقدم ما يتعلق بكتمان الأسرار وإذاعتها.

(٣) الكافي ٢/ ٢٢٣

هذا كله؛ وإن كان قبول الرواية التاريخية لا يعتمد على صحة الأسانيد[1]

---

(١) راجع رسالة أبوية ومسائل تهم طلبة الحوزة والمبلغين للمرجع الراحل السيد محمد سعيد الحكيم قدس سره ص٨٤

ومن المناسب أيضًا نقل كلام السيد علي جمال أشرف الحسيني حفظه الله في كتابه (المولى الغريب مسلم بن عقيل ١/ ٥٠):

لكل علم قوانين وضوابط وأدوات تدور حوله مسائله وجزئياته وتفاصيله، وله أصوله وأجواؤه ونفسياته وتأثيراته وتأثراته، ولا يصح توظيف قوانين علم وأدواته في علم آخر، إلا إذا كان ثمة اشتراك واتحاد في الموضوع. وهنا نريد الإشارة من بعيد إلى أن التاريخ وأسانيده وطرق إثبات الحدث أو الحقيقة التاريخية يختلف تمامًا عن علم الدراية والفقه والأصول، فالشواخص والموازين الفاعلة في الفقه لإثبات الحكم الشرعي لا يصح تحكيمها في مجال التاريخ وإعمال نفس الضوابط والارتكاز إلى ذات الأصول الفنية المتشددة المعمول بها في الفقه بغية الوصول إلى الحكم الشرعي الإلزامي.

فإن لكل واحد من هذه العلوم طرق ووسائله للوصول إلى المعلومة المبتغاة فيه، بل ربما كانت الموازين تختلف في نفس العلم الواحد، إذ أن التشدد السندي المفروض في إثبات الحكم الشرعي الإلزامي بشقيه لا تكون فاعلة عند إثبات الحكم الترخيصي، حيث تتفعل روايات من بلغ، ويرتكن إلى قاعدة التسامح بأدلة السنن.

ومن هنا يعد التداخل الذي يحصل في تحكيم قواعد التشدد السندي في تمحيص الحدث أو المعلومة التاريخية خلطًا غير موفق ولا مستقيم وغير منتج، بل سيكون عقيمًا.

ولو أردنا إعمال مقاسات التشدد السندي والتركيز على ميزان الجرح والتعديل في معالجات التاريخ لتبدد التاريخ ومحيت صفحاته ولما سمعنا بما جرى في كربلاء، إلا عمومات ونوادر ربما صمدت في حقل الدراسات السندية إذ أنها وردت بأسانيد صحيحة عن أهل البيت عليهم السلام.

إلى أن قال سماحته في تعليقه على الأخبار التاريخية إن وردت ضعيفة سندًا بمتن صحيح، قال حفظه الله: فلا قدرة للسند حينئذ على إسقاط المتن لتصحيحه وفق الموازين وموافقته لها، وغاية ما يفيد ←←←

ووثاقة رجالها بالدرجة الأولى خلافا للأخبار الفقهية.

إن أدنى اشتباه في نقل الرواية الفقهية -حتى لو كان بزيادة حرف أو خطأ في ضبط وإعراب- قد يؤدي إلى تغيير المعنى ومنه الخطأ في الفتوى، ما يلزم بذلك مداقةً في رجال السند ومعرفة أحوالهم ومقدار ضبطهم وفقاهتهم، وهذا يختلف عن الخبر التاريخي فلا يستدعي هذه الدرجة من المداقة -ما لم يلزم منه استنباط حكم فقهي-، وعمل العرف على هذا في المجتمع، فإن الناس لا يدققون حرفيًّا في تلقي الحوادث والأخبار، بينما في تلقي الأحكام الشرعية (أو تفاصيل المراسيم

➡➡➡

ضعف السند تشكيل ثغرة يمكن لمن أراد التشكيك أن يستند إليها، وربما كانت أكثر أخبار التاريخ من هذا القبيل، إذ أن الأسانيد لا تصمد أمام ضوابط التشدد السندي المعمول بها، وما أكثر الأحداث التي يرويها الأعداء والمجرمون الذين شاركوا في قتال المولى الغريب وسيد الشهداء عليه السلام فلو اقتصر الباحث على الأخبار الصحيحة سندًا لما بقي لنا من كربلاء وأخبارها إلا القليل، إن بقي!

إلى هنا تم موضع الشاهد من كلام سماحة السيد، وأضيف عليه بأنك لو تتبعت كتب التاريخ -سواء التاريخ الإسلامي أو عامة التاريخ الإنساني- لوجدت أن دأب مدوني التاريخ عدم التشدد السندي إلا في حالات، كما لو كان في الخبر تهمة وريبة فإن السند يكون وجهًا لدفعها من الحيثية التي تناسب دفعها، فلو كان الخبر في فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام كان من المناسب نقل السند عن ناصب معاند كشاهد على صدق الخبر رغم ضعف الراوي! ولو كان في الخبر لوازم فقهية لزم نقل الخبر برجاله الثقاة كخبر ورود الريان بن شبيب على الرضا عليه السلام أول يوم من المحرم فإن فيه فضل صيام اليوم الأول من شهر المحرم، واستحباب زيارة سيد الشهداء عليه السلام والبكاء عليه، وفيه إخبار بإمطار السماء دمًا لقتل الحسين عليه السلام وعدد من استشهد معه من بني هاشم، وفيه إخبار بشيء من كيفية شهادته عليه السلام؛ وكلها إخبارات تاريخية ما كانت ضرورة لإيرادها بسند صحيح لولا اللوازم الفقهية في الخبر.

والقوانين المدنية) فإن الناس قد لا يقبلون نقل الثقاة -فضلا عن غيرهم- ما لم يحرزوا الضبط والدقة في نقل الفتوى وحيثيات الحكم الشرعي أو القانون المدني.

على ذلك فإنه يبنى على قبول الرواية التاريخية وفق عدة اعتبارات؛ منها ورودها في مصادر معتبرة وانسجامها مع بقية التاريخ عموماً، ما يؤدي إلى قبول الخبر إجمالا، ومع المحاكمة التدريجية للنص التاريخي يتبين مدى دقة تفاصيل الخبر، وإمكان قبول كل عباراته أو قبوله قبولا إجماليًّا، وهذا يختلف باختلاف النصوص وحيثياتها، فإنه يكثر في التاريخ قبول بعض جزئيات الرواية، وردّ جزئيات أخرى، بالضبط كالمتعارف في قبول الأخبار المنقولة في المجتمع مثل تفاصيل حادثة تفجير قبة العسكريين عليهما السلام؛ فإن السامع يقبل أولاً العناوين الرئيسة والإجمالية (وقوع عملية تفجير أدت إلى انهيار القبة الشريفة)، ثم يتدرج في قبول التفاصيل الأخرى (تعيين الجاني، وعدد الإصابات...).

على سبيل المثال ولتقريب الصورة في الأخبار التاريخية وإمكان قبول جزء من الخبر وردِّ بعضه -وفق الموازين- فإنه ذكر بعض المتعصبين أن يزيد لعنه الله لم يكن راضيًا بقتل سيد الشهداء عليه السلام وأنه أكرم السبايا لما وردوا عليه، وإنما القتل كان باجتهاد من ابن زياد لعنه الله[1].

والحقيقة أن هذا الخبر ليس بكاذب تمامًا، فإن ابن زياد بالفعل أمر بقتل الحسين عليه السلام ولكن بإذن من يزيد، وكذلك فإن يزيد بن معاوية أكرم السبايا لما

(١) راجع منهاج السنة لابن تيمية ٤/ ٥٥٧

وردوا عليه بالفعل لكن ليس في بادئ الأمر، ولا لعدم رضاه بفعل ابن زياد، وإنما لأنه خاف الفتنة نهاية الأمر لكثرة المعترضين على فعله سواء داخل بيته من نسائه أو خارج بيته من الصحابة والوجهاء والأشراف وعامة الناس فإنه أظهر عدم رضاه بفعل ابن زياد.

فإنك ترى أن الكاذب حين حاول تبرئة يزيد بن معاوية لم يأت بأخباره من العدم، بل جاء بأخبار صحيحة وحرّف فيها.

أي أن الخبر التاريخي -حتى المكذوب منه- يحمل في كثير من الأحيان جانبًا صادقًا من التاريخ، وأن الأكاذيب لا تستحدث من العدم دائمًا، وأن التعامل مع الخبر التاريخي يشمل مساحة رمادية لا بيضاء ولا سوداء، وإنما وسطية تحمل جانبًا من الصدق وجانبًا من الكذب.

هذا إذا كان راوي الخبر كاذبًا أو غير ثقة أو متعصّبًا معاندًا، أما إذا كانت تهمة الكذب بعيدة عن راوي الخبر -حتى لو كان مجهولا- فإن احتمالية الصدق فيه تتزايد تدريجيًّا سيما إذا وثق بنقله الأكابر، فضلا عن انسجام ما رواه مع أحداث التاريخ، وانسجامه مع العقائد الصحيحة وغيرها من عناصر تدعو إلى تصديق الخبر.

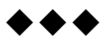
ثم إن الخبر -حتى لو كان ضعيف السند- قد يحوي مضامين من الدقة والضبط ما لا يتصور فيه الكذب ويكون أدعى لقبول الخبر بنسبة أكبر.

هذا فضلا عما إذا وردت مؤيدات تاريخية للخبر بأسانيد صحاح تجعله

أكثر وثوقًا واعتبارا، ثم أضف إلى ذلك تلقي العلماء للخبر بالقبول وإيرادهم إياه في كتبهم اطمئنانا له.

كل ذلك (متن الرواية وورودها في المصادر المعتبرة وتلقي العلماء لها بالقبول، واعتبار سندها، ووجود المؤيدات لها في أخبارنا الصحاح والتاريخ الإنساني وتاريخ الحضارات عموما) مؤيدات وقرائن ستصب في النهاية إلى اعتماد رواية بشر النخاس بتفاصيلها التي رواها الشيخ الصدوق رحمه الله وكلها مؤكدات على صدق الراوي وضبطه، فإنه يصعب على الإنسان إذا لم يكن دقيقًا ضابطًا لأموره أن ينقل المعلومات بهذه التفاصيل والدقة.

هذا، وليس وراء عبادان قرية، ولا يردّ ما نقول منصف!



متن الرواية

قال أبو جعفرٍ محمدُ بن عليّ بنِ بابَوَيْه القُمّي المعروفُ بالشيخ الصدوق رحمه الله[1] في كمال الدين: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ حَاتِمٍ النَّوْفَلِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عِيسَى الْوَشَّاءِ الْبَغْدَادِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ طَاهِرٍ الْقُمِّيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ بَحْرٍ الشَّيْبَانِيُّ، قَالَ: وَرَدْتُ كَرْبَلَاءَ سَنَةَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ، قَالَ: وَزُرْتُ قَبْرَ غَرِيبِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، ثُمَّ انْكَفَأْتُ إِلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ[2] مُتَوَجِّهاً إِلَى مَقَابِرِ قُرَيْشٍ[3] فِي وَقْتٍ قَدْ تَضَرَّمَتِ الْهَوَاجِرُ[4] وَتَوَقَّدَتِ السَّمَائِمُ[5]، فَلَمَّا وَصَلْتُ مِنْهَا إِلَى مَشْهَدِ الْكَاظِمِ عليه السلام وَاسْتَنْشَقْتُ نَسِيمَ تُرْبَتِهِ الْمَغْمُورَةِ مِنَ الرَّحْمَةِ، الْمَحْفُوفَةِ بِحَدَائِقِ الْغُفْرَانِ، أَكْبَبْتُ عَلَيْهَا بِعَبَرَاتٍ مُتَقَاطِرَةٍ

---

(١) الاعتماد على رواية الصدوق وسنشير إلى بعض موارد الاختلاف بينها وبين روايتي الطبري والطوسي رحمهم الله. وننوه على أنه تقدم ذكر المصادر في مطاوي الكتاب، فلا نكرر.

(٢) من أسماء بغداد.

(٣) دفن الإمام الكاظم عليه السلام في مقابر قريش، وكانت قبته منفصلة عن قبة الإمام الجواد عليهما السلام، وتؤدى صلاة الزيارة لهما عليهما السلام في قبة الإمام الجواد عليه السلام. ذكر الشيخ الصدوق رحمه الله في من لا يحضره الفقيه ٢/ ٦٠٢ بعد ذكرة زيارة الإمامين الكاظمين عليهما السلام: ثم صل في القبة التي فيها محمد بن علي عليه السلام أربع ركعات بتسليمتين عند رأسه؛ ركعتين لزيارة موسى عليه السلام، وركعتين لزيارة محمد بن علي عليهما السلام، ولا تصل عند رأس موسى عليه السلام فإنه يقابلك قبور قريش، ولا يجوز اتخاذها قبلة إن شاء الله.

(٤) الهواجر: جمع هاجرة، وهي نصف النهار عند اشتداد الحر.

(٥) السمائم: جمع سَموم، وهي الريح الحارة.

وَزَفَرَاتٍ مُتَتَابِعَةٍ، وَقَدْ حَجَبَ الدَّمْعُ طَرْفِي عَنِ النَّظَرِ، فَلَمَّا رَقَأَتِ الْعَبْرَةُ وَانْقَطَعَ النَّحِيبُ، فَتَحْتُ بَصَرِي فَإِذَا أَنَا بِشَيْخٍ قَدِ انْحَنَى صُلْبُهُ[١] وَتَقَوَّسَ مَنْكِبَاهُ[٢]، وَثَفِنَتْ[٣] جَبْهَتُهُ وَرَاحَتَاهُ، وَهُوَ يَقُولُ لِآخَرَ مَعَهُ عِنْدَ الْقَبْرِ: يَا ابْنَ أَخِي لَقَدْ نَالَ عَمُّكَ شَرَفاً بِمَا حَمَّلَهُ السَّيِّدَانِ مِنْ غَوَامِضِ الْغُيُوبِ وَشَرَائِفِ الْعُلُومِ الَّتِي لَمْ يَحْمِلْ مِثْلَهَا إِلَّا سَلْمَانُ[٤]، وَقَدْ أَشْرَفَ عَمُّكَ عَلَى اسْتِكْمَالِ الْمُدَّةِ وَانْقِضَاءِ الْعُمُرِ وَلَيْسَ يَجِدُ

(١) الصُّلب: فقار الظهر.

(٢) المنكِب: مجتمع رأس العضد مع الكتف.

(٣) ثفِن: غلظ، والثفنات في الجبهة والراحتين وسائر مواضع السجود علامة لكثرة عبادة الإنسان، وكان إمامنا زين العابدين عليه السلام يعرف بذي الثفنات لكثرة عبادته.

(٤) الروايات الواردة فضل سلمان رضوان الله عليه كثيرة منها أنه علّم الاسم الأعظم، وأنه كان محدَّثا تحدثه الملائكة، ويحدثه رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام بما لا يحدثان به غيره من مخزون علم الله ومكنونه. وقد صنف الميرزا النوري رحمه الله كتابًا بهذا الخصوص اسمه: نفس الرحمن في فضائل سلمان.

لكن ما يجدر التنبيه إليه أن مقامات سلمان الكثيرة وفضله كان غائبًا عن عامة أهل عصره، حتى بيع عبدًا بادئ أمره، وكان بعض الصحابة ينظرون له نظر ازدراء لأعجميته، وغير ذلك من سلوكيات صدرت من الصحابة توحي بأن لا أحد منهم يعرف حقيقة مقام سلمان رضوان الله عليه، وما ذاع وعُرفت حقيقة مقامه إلا متأخرًا بعد وفاته حين حدّث الأئمة عليهم السلام بذلك. لذلك فإن وجود نظائر لسلمان في سائر العصور ممن لا يعرف فضلهم ليس بمستحيل.

هذا والراوي على كل حال لم يدع أنه حمل مقامًا كمقام سلمان وفضلا كفضله، وإنما ادعى أنه حمل علمًا لا يحمله إلا مثل سلمان، وهذا ليس ببعيد عن أصحاب الأئمة عليهم السلام أن يحملوا شيئا من العلوم الخاصة التي يكون شأن تحملها لائقًا بسلمان، ولعل مراد الراوي أقل من ذلك، وأن ما حمله من علوم عنوان مشير إلى الخبر الذي سيرويه لا أكثر.

فِي أَهْلِ الْوَلَايَةِ رَجُلًا يُفْضِي إِلَيْهِ بِسِرِّهِ!

قُلْتُ: يَا نَفْسُ لَا يَزَالُ الْعَنَاءُ وَالْمَشَقَّةُ يَنَالانِ مِنْكِ بِإِتْعَابِيَ الْخُفَّ وَالْحَافِرَ(١) فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَقَدْ قَرَعَ سَمْعِي مِنْ هَذَا الشَّيْخِ لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَى عِلْمٍ جَسِيمٍ وَأَثَرٍ عَظِيمٍ. فَقُلْتُ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، وَمَنِ السَّيِّدَانِ؟ قَالَ: النَّجْمَانِ الْمُغَيَّبَانِ فِي الثَّرَى بِسُرَّ مَنْ رَأَى(٢).

فَقُلْتُ: إِنِّي أُقْسِمُ بِالْمُوَالاةِ وَشَرَفِ مَحَلِّ هَذَيْنِ السَّيِّدَيْنِ مِنَ الْإِمَامَةِ وَالْوِرَاثَةِ إِنِّي خَاطِبٌ عِلْمَهُمَا وَطَالِبٌ آثَارَهُمَا وَبَاذِلٌ مِنْ نَفْسِيَ الْأَيْمَانَ الْمُؤَكَّدَةَ عَلَى حِفْظِ أَسْرَارِهِمَا(٣).

قَالَ: إِنْ كُنْتَ صَادِقاً فِيمَا تَقُولُ فَأَحْضِرْ مَا صَحِبَكَ مِنَ الْآثَارِ عَنْ نَقَلَةِ أَخْبَارِهِمْ(٤). فَلَمَّا فَتَّشَ الْكُتُبَ وَتَصَفَّحَ الرِّوَايَاتِ مِنْهَا. قَالَ: صَدَقْتَ(٥)، أَنَا بِشْرُ بْنُ سُلَيْمَانَ النَّخَّاسُ مِنْ وُلْدِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ(٦) أَحَدُ مَوَالِي أَبِي الْحَسَنِ وأَبِي

---

(١) إتعاب الخف والحافر كناية عن كثرة السفر، والخف للبعير والحافر للفرس. ومقصوده أنه يكثر السفر طلبًا للعلم، وهذه بالفعل من الخصال التي تعرف من سيرة الراوي محمد بن بحر الرهني.

(٢) يعني الإمامين علي بن محمد الهادي والحسن بن علي العسكري عليهما السلام.

(٣) وهذه قرينة على أن الراوي حين تحمّل الخبر لم يذعه بادئ الأمر، وهذا يفسر عدم اطلاع جملة من العلماء المعاصرين له على هذه الرواية فإنها كانت سرّا في وقتها بذل الرهني الأيمان وأقسم على حفظه.

(٤) أي أنه أراد أن يطلع على كتب الرهني ويعرف إن كان صادقًا من أنه يجمع أخبار أهل البيت عليهم السلام.

(٥) أي أنه حين اطلع على كتب الرهني علم صدق دعواه، وأنه مؤهل لتحمل هذا الخبر.

(٦) ذكر المؤرخون أن لأبي أيوب رضي الله عنه ذرية معروفة منهم من سكن بغداد، وذريته باقية إلى اليوم.

مُحَمَّدٍ عليهما السلام وَجَارُهُمَا بِسُرَّ مَنْ رَأَى.

قُلْتُ: فَأَكْرِمْ أَخَاكَ بِبَعْضِ مَا شَاهَدْتَ مِنْ آثَارِهِمَا.

قَالَ: كَانَ مَوْلَانَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَسْكَرِيُّ عليه السلام فَقَّهَنِي فِي أَمْرِ الرَّقِيقِ[1] فَكُنْتُ لَا أَبْتَاعُ وَلَا أَبِيعُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَاجْتَنَبْتُ بِذَلِكَ مَوَارِدَ الشُّبُهَاتِ، حَتَّى كَمَلَتْ مَعْرِفَتِي فِيهِ، فَأَحْسَنْتُ الْفَرْقَ فِيمَا بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ[2].

فَبَيْنَمَا أَنَا ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي مَنْزِلِي بِسُرَّ مَنْ رَأَى وَقَدْ مَضَى هَوِيٌّ مِنَ اللَّيْلِ[3] إِذْ قَرَعَ الْبَابَ قَارِعٌ، فَعَدَوْتُ مُسْرِعاً فَإِذَا أَنَا بِكَافُورٍ الْخَادِمِ[4] رَسُولِ مَوْلَانَا أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ عليهما السلام يَدْعُونِي إِلَيْهِ، فَلَبِسْتُ ثِيَابِي وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَرَأَيْتُهُ يُحَدِّثُ ابْنَهُ أَبَا مُحَمَّدٍ وَأُخْتَهُ حَكِيمَةَ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ.

فَلَمَّا جَلَسْتُ، قَالَ عليه السلام: يَا بِشْرُ إِنَّكَ مِنْ وُلْدِ الْأَنْصَارِ وَهَذِهِ الْوَلَايَةُ لَمْ تَزَلْ فِيكُمْ يَرِثُهَا خَلَفٌ عَنْ سَلَفٍ، فَأَنْتُمْ ثِقَاتُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ وَإِنِّي مُزَكِّيكَ وَمُشَرِّفُكَ بِفَضِيلَةٍ تَسْبِقُ بِهَا شَأْوَ الشِّيعَةِ[5] فِي الْمُوَالاةِ بِهَا، بِسِرٍّ أَطَّلِعُكَ عَلَيْهِ وَأُنْفِذُكَ فِي ابْتِيَاعِ

---

(١) يعني أحكام بيع العبيد والإماء.

(٢) وهذا ادعاء بتفقهه وتتلمذه عند إمامنا الهادي عليه السلام، وسيأتي ما يدل على صدق دعواه.

(٣) هوِيّ من الليل: قسم منه.

(٤) كافور خادم الإمام الهادي عليه السلام وعده الشيخ من ثقاة أصحابه.

(٥) الشأو: يعني الأمد والغاية. وفي بعض النسخ وردت العبارة: سائر الشيعة. وفي غيبة الطوسي: تسبق بها الشيعة. وفي دلائل الإمامة: تسبق بها سوابق الشيعة في الولاية.

أَمَةٍ(١). فَكَتَبَ كِتَاباً مُلَطِّفاً(٢) بِخَطٍّ رُومِيٍّ وَلُغَةٍ رُومِيَّةٍ وَطَبَعَ عَلَيْهِ بِخَاتَمِهِ وَأَخْرَجَ شِقَّة صَفْرَاءَ(٣) فِيهَا مِائَتَانِ وَعِشْرُونَ دِينَاراً.

فَقَالَ: خُذْهَا وَتَوَجَّهْ بِهَا إِلَى بَغْدَادَ وَاحْضُرْ مَعْبَرَ الْصَّرَاة(٤) ضَحْوَةَ كَذَا، فَإِذَا وَصَلَتْ إِلَى جَانِبِكَ زَوَارِقُ السَّبَايَا وَبَرْزَنَ الْجَوَارِي مِنْهَا فَسَتَحْدِقُ بِهِمْ طَوَائِفُ الْمُبْتَاعِينَ مِنْ وُكَلَاءِ قُوَّادِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَشَرَاذِمُ مِنْ فِتْيَانِ الْعِرَاقِ، فَإِذَا رَأَيْتَ ذَلِكَ فَأَشْرِفْ مِنَ الْبُعْدِ عَلَى الْمُسَمَّى عُمَرَ بْنَ يَزِيدَ النَّخَّاسَ عَامَّةَ نَهَارِكَ، إِلَى أَنْ يُبْرِزَ

---

(١) ابتياع أمة: يعني شراء جارية. وفي دلائل الإمامة: وأنفذك في تتبع أمره.

(٢) في بعض النسخ: مطلقًا، وملصقًا. وفي نسخة الطوسي والطبري: كتابًا لطيفًا بخط رومي ولغة رومية.

وهو من لطف الإمام وعلمه بآداب الروم أن خاطبها بهذه الكيفية فإن الرسالة من أكثر الطرق تأثيرًا في قلوبهم.

(٣) كما في نسخة البحار، وفي أكثر النسخ: شستقة صفراء. أما الشيخ الطوسي فذكر: شُقيقة صفراء، مصغر شقة. وعلى أي حال فالمراد: الصرة التي يجعل فيها الدنانير.

(٤) في أكثر النسخ: معبر الفرات، وهو خطأ بلا شك فإن الفرات لا يمر في بغداد. والصحيح ما أثبتناه.

والمعبر: الجسر الذي يعبر الناس عليه. والصراة: من أنهار بغداد متفرع من الفرات ويدخل بغداد ويصب في دجلة، وفيه جسر معروف تتوقف عنده السفن وتنزل حمولتها عنده ثم ترجع السفن من حيث أتت.

وقد تنبه المرحوم السيد كاظم القزويني في كتاب الإمام المهدي من المهد إلى الظهور إلى هذا الاشتباه الشائع بين النساخ.

لِلْمُبْتَاعِينَ جَارِيَةً صِفَتُهَا كَذَا وَكَذَا:[١] لَابِسَةً حَرِيرَتَيْنِ صَفِيقَتَيْنِ[٢] تَمْتَنِعُ مِنَ السُّفُورِ[٣] وَلَمْسِ الْمُعْتَرِضِ[٤] وَالانْقِيَادِ لِمَنْ يُحَاوِلُ لَمْسَهَا وَيَشْغَلُ نَظَرَهُ بِتَأَمُّلِ مَكَاشِفِهَا مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ الرَّقِيقِ[٥]، فَيَضْرِبُهَا النَّخَّاسُ فَتَصْرَخُ صَرْخَةً رُومِيَّةً، فَاعْلَمْ أَنَّهَا تَقُولُ وَا هَتْكَ سِتْرَاهْ[٦].

فَيَقُولُ بَعْضُ الْمُبْتَاعِينَ عَلَيَّ بِثَلَاثِمِائَةِ دِينَارٍ فَقَدْ زَادَنِي الْعَفَافُ فِيهَا رَغْبَةً، فَتَقُولُ بِالْعَرَبِيَّةِ: لَوْ بَرَزْتَ فِي زِيِّ سُلَيْمَانَ وَعَلَى مِثْلِ سَرِيرِ مُلْكِهِ مَا بَدَتْ لِي فِيكَ رَغْبَةٌ فَأَشْفَقْ عَلَى مَالِكَ! فَيَقُولُ النَّخَّاسُ: فَمَا الْحِيلَةُ وَلَا بُدَّ مِنْ بَيْعِكِ؟ فَتَقُولُ الْجَارِيَةُ: وَمَا الْعَجَلَةُ؟ وَلَا بُدَّ مِنِ اخْتِيَارِ مُبْتَاعٍ يَسْكُنُ قَلْبِي إِلَيْهِ وَإِلَى أَمَانَتِهِ وَدِيَانَتِهِ.

---

(١) أي وصف ثيابها الذي يميزها عن سائر الجواري، فإن الناظر لعشرات الجواري أول ما يميز ألوان الثياب وأشكالها.

(٢) الصفيق من الثوب الغليظ الكثف المحكم نسجه، وضده ثوب سخيف: أي خفيف الغزل. وقد ذكر السيد العاملي في مدارك الأحكام (ج٣ ص١٨٧) في شروط لباس المرأة المصلية اعتبار كون ثوبها صفيقًا يحول بين الناظر والبشرة.

(والصفيق من الرأي المحكم الصائب المتين، والصفيق من الناس الوقح غليظ الوجه)

(٣) وهي من العفة الشائعة آنذاك عند ملوك الروم ونبلائهم، خلافًا لسلوك الجواري من الابتذال في الحجاب.

(٤) في دلائل الإمامة: وليس يمكن التوصل والانقياد لمن يحاول لمسها.

(٥) أي أن هناك سترين، الأول صفيق غليظ، والثاني رقيق لا تمكن أحدًا من النظر إليه.

(٦) فليس من المعتاد عند أميرات بيزنطة البروز بين الرجال.

فَعِنْدَ ذَلِكَ قُمْ إِلَى عُمَرَ بْنِ يَزِيدَ النَّخَّاسِ وَقُلْ لَهُ: إِنَّ مَعِي كِتَاباً مُلْصَقاً[١] لِبَعْضِ الْأَشْرَافِ كَتَبَهُ بِلُغَةٍ رُومِيَّةٍ وَخَطٍّ رُومِيٍّ وَوَصَفَ فِيهِ كَرَمَهُ وَوَفَاءَهُ وَنُبْلَهُ وَسَخَاءَهُ فَنَاوِلْهَا لِتَتَأَمَّلَ مِنْهُ أَخْلَاقَ صَاحِبِهِ فَإِنْ مَالَتْ إِلَيْهِ وَرَضِيَتْهُ فَأَنَا وَكِيلُهُ[٢] فِي ابْتِيَاعِهَا مِنْكَ.

قَالَ بِشْرُ بْنُ سُلَيْمَانَ النَّخَّاسُ: فَامْتَثَلْتُ جَمِيعَ مَا حَدَّهُ لِي مَوْلَايَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام فِي أَمْرِ الْجَارِيَةِ فَلَمَّا نَظَرَتْ فِي الْكِتَابِ بَكَتْ بُكَاءً شَدِيداً، وَقَالَتْ لِعُمَرَ بْنِ يَزِيدَ النَّخَّاسِ: بِعْنِي مِنْ صَاحِبِ هَذَا الْكِتَابِ[٣] وَحَلَفَتْ بِالْمُحَرِّجَةِ الْمُغَلَّظَةِ[٤] إِنَّهُ مَتَى امْتَنَعَ مِنْ بَيْعِهَا مِنْهُ قَتَلَتْ نَفْسَهَا. فَمَازِلْتُ أُشَاحُّهُ[٥] فِي ثَمَنِهَا حَتَّى اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ فِيهِ عَلَى مِقْدَارِ مَا كَانَ أَصْحَبَنِيهِ مَوْلَايَ عليه السلام مِنَ الدَّنَانِيرِ فِي الشِّقَّةِ الصَّفْرَاءِ[٦]، فَاسْتَوْفَاهُ مِنِّي وَتَسَلَّمْتُ مِنْهُ الْجَارِيَةَ ضَاحِكَةً مُسْتَبْشِرَةً. وَانْصَرَفْتُ بِهَا إِلَى حُجْرَتِيَ

---

(١) في دلائل الإمامة: كتابًا لطيفًا.

(٢) هذه الدقة في نقل لفظة الوكالة أمارة على صدق دعوى الراوي بفقاهته.

(٣) وهذا التأكيد على أن المعاملة وقعت على صاحب الكتاب لا على الوكيل أمارة على المداقة والاحتياط واجتناب موارد الشبهات في البيع والشراء، وهي موارد الاحتياط التي لا يفطن إليها عامة الناس.

(٤) المحرجة: أي القسم الذي يضيّق على الحالف، بحيث لا يبقى له مجال عن برّ قسمه. والمغلّظة: أي القسم المؤكّد.

(٥) أشاحه: أماكسه وأحاول تخفيض الثمن.

(٦) أي: مائتان وعشرون دينارا.

الَّتِي كُنْتُ آوِي إِلَيْهَا بِبَغْدَادَ[١].

فَمَا أَخَذَهَا الْقَرَارُ حَتَّى أَخْرَجَتْ كِتَابَ مَوْلَاهَاعليه السلام مِنْ جَيْبِهَا وَهِيَ تَلْثِمُهُ وَتَضَعُهُ عَلَى خَدِّهَا وَتُطْبِقُهُ عَلَى جَفْنِهَا وَتَمْسَحُهُ عَلَى بَدَنِهَا.

فَقُلْتُ تَعَجُّباً مِنْهَا: أَتَلْثِمِينَ كِتَاباً وَلَا تَعْرِفِينَ صَاحِبَهُ؟!

قَالَتْ: أَيُّهَا الْعَاجِزُ الضَّعِيفُ الْمَعْرِفَةِ بِمَحَلِّ أَوْلَادِ الْأَنْبِيَاءِ! أَعِرْنِي سَمْعَكَ وَفَرِّغْ لِي قَلْبَكَ؛ أَنَا مليَكَةُ[٢] بِنْتُ يَشُوعَا بْنِ قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ[٣] وَأُمِّي مِنْ وُلْدِ الْحَوَارِيِّينَ تُنْسَبُ إِلَى وَصِيِّ الْمَسِيحِ شَمْعُونَ[٤].

---

(١) مما تقدم من مظاهر احتياط وورع عند الراوي يتأكد أن نزولها في منزله بكيفية يرتضيها أهل البيتعليهم السلام، فضلا عن ذلك فإن السيدةعليها السلام في واقع الحال حرة لا تقع عليها أحكام الإماء، لأن السبي الذي وقع عليها لم يكن شرعيًّا إذ أسرت وهي مسلمة، فلا يصح استرقاقها، وإنما وقع البيع والشراء ظاهريًّا، ولما بيّنت السيدةعليها السلام حقيقة إسلامها فإن حكمها شرعًا حكم الحرائر، وكل ما يأتي من كونها جارية فهو على سبيل المجاز لا الحقيقة.

(٢) مليكة اسم سرياني، يظهر أنه أحد أسماء السيدةعليها السلام فالمتعارف عند كثير من نبلاء بيزنطة تعدد الأسماء.

(٣) القيصر منصب يختلف عن الإمبراطور، وقيصر الروم آنذاك اسمه باراداس، وكان هو الملك والحاكم الفعلي للإمبراطورية، لأن الإمبراطور ميخائيل الثالث كان صغير السن غير مؤهل لإدارة البلاد.

(٤) في دلائل الإمامة: ونسبي متصل إلى وصي المسيح شمعون.

وذكرت الروايات أن ذرية شمعون كانوا أوصياء، كما يحتمل أن النصارى تجاهلوا ذكر ذرية شمعون لانحرافهم عنه.

أُنَبِّئُكَ الْعَجَبَ الْعَجِيبَ إِنَّ جَدِّي قَيْصَرَ أَرَادَ أَنْ يُزَوِّجَنِي مِنِ ابْنِ أَخِيهِ[١] وَأَنَا مِنْ بَنَاتِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً[٢].

فَجَمَعَ فِي قَصْرِهِ مِنْ نَسْلِ الْحَوَارِيِّينَ وَمِنَ الْقِسِّيسِينَ وَالرُّهْبَانِ ثَلَاثَمِائَةِ رَجُلٍ، وَمِنْ ذَوِي الْأَخْطَارِ سَبْعَمِائَةِ رَجُلٍ، وَجَمَعَ مِنْ أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ وَقُوَّادِ الْعَسَاكِرِ وَنُقَبَاءِ الْجُيُوشِ وَمُلُوكِ الْعَشَائِرِ[٣] أَرْبَعَةَ آلَافٍ[٤].

وَأَبْرَزَ مِنْ بَهْوِ[٥] مُلْكِهِ عَرْشاً مَسُوغاً مِنْ أَصْنَافِ الْجَوَاهِرِ[٦] إِلَى صَحْنِ الْقَصْرِ فَرَفَعَهُ فَوْقَ أَرْبَعِينَ مِرْقَاةً[٧].

فَلَمَّا صَعِدَ ابْنُ أَخِيهِ وَأَحْدَقَتْ بِهِ الصُّلْبَانُ وَقَامَتِ الْأَسَاقِفَةُ عُكَّفاً وَنُشِرَتْ

---

(١) أخو القيصر اسمه بتروناس وهو قائد القوات المسلحة في الشرق، وكان له أولاد في سن الزواج.

(٢) وهو السن المتعارف للزواج في بيزنطة آنذاك.

(٣) عبارة (ملوك العشائر) تؤكد أن تفاصيل الرواية منقولة بلسان بيزنطي، فإن العربي يقول أمراء وشيوخ العشائر.

(٤) أعداد المدعوين للحفل ليست جزافًا وإنما تيمنا برمزيتها ودلالتها للصليب والثالوث والشموع وغيرها من معاني نصرانية دقيقة يهتم بيها البيزنطيون للتبرك.

(٥) البهو مكان استقبال الضيوف في القصور وسائر البيوت.

(٦) كانت تلك الحقبة الزمنية مرحلة نهضة علمية وفنية فأبدع البيزنطيون تلك الفترة في الزينة وتعظيم العروش وغيرها.

(٧) اختيار عدد المراقي الأربعين ليس جزافًا وإنما الأربعون يرمز إلى عدم التناهي، والعلاقات الزوجية عند النصارى لا تنفسخ. والمأمول من هذا الزواج أن ينتج عنه السلطان اللا متناهي للعالم.

أَسْفَارُ الْإِنْجِيلِ[١] تَسَافَلَتِ الصُّلْبَانُ[٢] مِنَ الْأَعَالِي فَلَصِقَتْ بِالْأَرْضِ وَتَقَوَّضَتِ الْأَعْمِدَةُ[٣] فَانْهَارَتْ إِلَى الْقَرَارِ[٤] وَخَرَّ الصَّاعِدُ مِنَ الْعَرْشِ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ، فَتَغَيَّرَتْ أَلْوَانُ الْأَسَاقِفَةِ وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُمْ[٥].

فَقَالَ كَبِيرُهُمْ[٦] لِجَدِّي: أَيُّهَا الْمَلِكُ اعْفِنَا مِنْ مُلَاقَاةِ هَذِهِ النُّحُوسِ[٧] الدَّالَّةِ عَلَى زَوَالِ هَذَا الدِّينِ الْمَسِيحِيِّ وَالْمَذْهَبِ الْمَلِكَانِي[٨].

فَتَطَيَّرَ جَدِّي مِنْ ذَلِكَ تَطَيُّراً شَدِيداً، وَقَالَ لِلْأَسَاقِفَةِ: أَقِيمُوا هَذِهِ الْأَعْمِدَةَ

---

(١) يمسك الأساقفة والرهبان الصلبان بأيديهم عند أداء الصلوات ويطوفون للتيمن بالصليب وهم يتلون أسفار الإنجيل في حفل الزفاف فإن الزواج هو الإكليل المقدس وهو أحد أسرار الكنيسة السبعة، وهي حالة يتوقعون فيها حضور الرب.

(٢) الصليب رمز النصارى وشعارهم يرجون فيه الظفر عند كل شيء.

(٣) الأعمدة تمثل الرقي نحو السماء.

(٤) هذه العلامات تدل في الفكر النصراني على انهيار الدين، كما أن اهتزاز الصلبان ينذر بوقوع كارثة ووقوع حرب وأسر وسبي!

(٥) الملفت أن الخوف عم الأساقفة والرهبان لا عامة الحضور، وذلك أن الحفل منضبط وفق موازين اليُمن والبركة!

(٦) كبير الأساقفة في ذلك الوقت هو القديس فوتيوس.

(٧) قد تعود النحوس بنظر الأسقف إلى تمرد القيصر على المجامع المسكونية وإصراره على إمضاء زواج الأقارب، فإنه مما صدر من أباطرة سابقين وكان سببًا للحوق الخسائر بالامبراطورية.

(٨) الملكاني هو المذهب الحاكم آنذاك في بيزنطة، وترجع أحكامه إلى المجامع المسكونية التي عقدها الأباطرة والملوك، فكان المذهب ينسب إلى ملوك بيزنطة. والملكانية لفظ سرياني نقل كما هو إلى العربية لقرب اللفظ والمعنى ونقل كما هو إلى الإنجليزية (melkite) دون تغيير اللفظ.

وَارْفَعُوا الصُّلْبَانَ(١) وَأَحْضِرُوا أَخَا هَذَا الْمُدْبَرِ الْعَاثِرِ الْمَنْكُوسِ جَدُّهُ(٢) لِأُزَوِّجَ مِنْهُ هَذِهِ الصَّبِيَّةَ فَيُدْفَعَ نُحُوسُهُ عَنْكُمْ بِسُعُودِهِ(٣).

فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ حَدَثَ عَلَى الثَّانِي مَا حَدَثَ عَلَى الْأَوَّلِ!(٤) وَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَقَامَ جَدِّي قَيْصَرُ مُغْتَمّاً وَدَخَلَ قَصْرَهُ(٥)، وَأُرْخِيَتِ السُّتُورُ.

فَأُرِيتُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ(٦) كَأَنَّ الْمَسِيحَ وَالشَّمْعُونَ وَعِدَّةً مِنَ الْحَوَارِيِّينَ قَدِ اجْتَمَعُوا فِي قَصْرِ جَدِّي، وَنَصَبُوا فِيهِ مِنْبَراً يُبَارِي السَّمَاءَ عُلُوّاً وَارْتِفَاعاً فِي الْمَوْضِعِ

---

(١) الأعمدة والصلبان وسائر ما يوضع للتبرك لا يرفعها وبينصبها المعماريون أو أي من العمال، إنما هو شأن الأساقفة وخدام الكنيسة.

(٢) الجِد هو الحظ والبخت، والمنكوس جده يقصد منه تعيس الحظ.

(٣) كأنه أراد توجيه الأنظار إلى أن سبب النحوس يرجع إلى ابن أخيه، لا إلى حفيدته، ولا إلى سبب ديني.

(٤) الهزات المتكررة في الحفل لعلها تناسب هزات ارتدادية للزلزلة التي وقعت سنة ٨٥٩م في أنطاكيا، وما صحبها من فيضان في البحر الأبيض المتوسط، وما له من آثار بلغت القسطنطينية من فيضان المياه وهبوب ريح عظيمة.

وهو الزلزال الذي حدث في القسطنطينية ولم يخلف دمارًا لكن أورث قلقًا عامًّا في العاصمة، ما دعا كبير الأساقفة فوتيوس إلى إلقاء موعظة بعد ذلك يصرّح فيها بأن الزلزال لم يكن بسبب الذنوب وإنما يرجع إلى سبب جيولوجي!

(٥) في رواية الشيخ الطوسي: فدخل منزل النساء. وليس بينهما تعارض ولكن رواية الشيخ الطوسي تعين موضع دخوله في القصر إلى منزل النساء.

(٦) يعني في المنام، والبيزنطيون يعتقدون بالمنامات أشد الاعتقاد ويرتبون عليها الآثار المهمة.

الَّذِي كَانَ جَدِّي نَصَبَ فِيهِ عَرْشَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ مَعَ فِتْيَةٍ(١) وَعِدَّةٍ مِنْ بَنِيهِ، فَيَقُومُ إِلَيْهِ الْمَسِيحُ فَيَعْتَنِقُهُ(٢). فَيَقُولُ(٣): يَا رُوحَ الله إِنِّي جِئْتُكَ خَاطِباً مِنْ وَصِيِّكَ شَمْعُونَ فَتَاتَهُ مُلَيْكَةَ لِابْنِي هَذَا وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ ابن(٤) صَاحِبِ هَذَا الْكِتَابِ.

فَنَظَرَ الْمَسِيحُ إِلَى شَمْعُونَ فَقَالَ لَهُ: قَدْ أَتَاكَ الشَّرَفُ؛ فَصِلْ رَحِمَكَ بِرَحِمِ رَسُولِ الله ﷺ. قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ.

فَصَعِدَ ذَلِكَ الْمِنْبَرَ وَخَطَبَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَزَوَّجَنِي(٥) وَشَهِدَ الْمَسِيحُ عليه السلام وَشَهِدَ بَنُو مُحَمَّدٍ ﷺ وَالْحَوَارِيُّونَ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي أَشْفَقْتُ أَنْ أَقُصَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا عَلَى أَبِي وَجَدِّي مَخَافَةَ الْقَتْلِ، فَكُنْتُ أُسِرُّهَا فِي نَفْسِي وَلَا أُبْدِيهَا لَهُمْ.

وَضَرَبَ صَدْرِي بِمَحَبَّةِ أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام حَتَّى امْتَنَعْتُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَضَعُفَتْ نَفْسِي وَدَقَّ شَخْصِي وَمَرِضْتُ مَرَضاً شَدِيداً، فَمَا بَقِيَ مِنْ مَدَائِنِ الرُّومِ طَبِيبٌ إِلَّا أَحْضَرَهُ جَدِّي وَسَأَلَهُ عَنْ دَوَائِي.

فَلَمَّا بَرَّحَ بِهِ الْيَأْسُ(٦)، قَالَ: يَا قُرَّةَ عَيْنِي، فَهَلْ تَخْطُرُ بِبَالِكَ شَهْوَةٌ فَأُزَوِّدَكِهَا

(١) في دلائل الإمامة: مع ختنه وعدة من أهل بيته، وهو أقرب إلى الصواب.

(٢) في غيبة الطوسي: فتقدم المسيح إليه فاعتنقه.

(٣) في غيبة الطوسي: فيقول له محمد ﷺ: يا روح الله..

(٤) لفظة (ابن) سقطت من بعض النسخ.

(٥) في غيبة الطوسي: وزوجني من ابنه.

(٦) يعني أجهد اليأس وأتعبه.

فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؟

فَقُلْتُ: يَا جَدِّي أَرَى أَبْوَابَ الْفَرَجِ عَلَيَّ مُغْلَقَةً فَلَوْ كَشَفْتَ الْعَذَابَ عَمَّنْ فِي سِجْنِكَ مِنْ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ وَفَكَكْتَ عَنْهُمُ الْأَغْلَالَ وَتَصَدَّقْتَ عَلَيْهِمْ وَمَنَنْتَهُمْ بِالْخَلَاصِ لَرَجَوْتُ أَنْ يَهَبَ الْمَسِيحُ وَأُمُّهُ(١) لِي عَافِيَةً وَشِفَاءً.

فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَدِّي(٢) تَجَلَّدْتُ فِي إِظْهَارِ الصِّحَّةِ فِي بَدَنِي وَتَنَاوَلْتُ يَسِيراً مِنَ الطَّعَامِ فَسَرَّ بِذَلِكَ جَدِّي، وَأَقْبَلَ عَلَى إِكْرَامِ الْأُسَارَى إِعْزَازِهِمْ.

فَرَأَيْتُ أَيْضاً بَعْدَ أَرْبَعِ لَيَالٍ(٣) كَأَنَّ سَيِّدَةَ النِّسَاءِ قَدْ زَارَتْنِي وَمَعَهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ(٤) وَأَلْفُ وَصِيفَةٍ مِنْ وَصَائِفِ الْجِنَانِ، فَتَقُولُ لِي مَرْيَمُ: هَذِهِ سَيِّدَةُ النِّسَاءِ أُمُّ زَوْجِكِ أَبِي مُحَمَّدٍعليه السلام، فَأَتَعَلَّقُ بِهَا وَأَبْكِي وَأَشْكُو إِلَيْهَا امْتِنَاعَ أَبِي مُحَمَّدٍعليه السلام مِنْ زِيَارَتِي.

فَقَالَتْ لِي سَيِّدَةُ النِّسَاءِعليها السلام: إِنَّ ابْنِي أَبَا مُحَمَّدٍ لَا يَزُورُكِ وَأَنْتِ مُشْرِكَةٌ بالله

---

(١) يرى البيزنطيون أن كل خير يلحق بهم فهو بعناية السيدة العذراء، ويصفونها بأنها والدة الإله.

(٢) ذكر المؤرخون أن ملك الروم بعث سبعا وسبعين أسيرًا مسلمًا إلى خليفة المسلمين وعفا عنهم دون مقدمات ولا سبب. وطلب من خليفة المسلمين تبادل بقية الأسرى.

وذلك بعد وقوع زلزال سنة ٨٥٩م – ٢٤٥هـ بفترة وجيزة.

(٣) في غيبة الطوسي ودلائل الإمامة: بعد أربع عشرة ليلة.

(٤) كان للبيزنطيين علاقة خاصة بمريم ابنة عمران، ويسمونها: والدة الإله، ويعتقدون أن النصر والخير يدركهم ببركاتها، فيحملون أيقوناتها في الحروب، ويتيمنون بحمل الاستغاثات بها، وهي حاضرة معهم في كل مكان.

وَعَلَى مَذْهَبِ النَّصَارَى[١]، وَهَذِهِ أُخْتِي مَرْيَمُ تَبَرَّأُ إِلَى الله تَعَالَى مِنْ دِينِكِ، فَإِنْ مِلْتِ إِلَى رِضَا الله عَزَّ وَجَلَّ وَرِضَا الْمَسِيحِ وَمَرْيَمَ عَنْكِ، وَزِيَارَةِ أَبِي مُحَمَّدٍ إِيَّاكِ، فَتَقُولِي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ أَبِي مُحَمَّداً رَسُولُ الله.

فَلَمَّا تَكَلَّمْتُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ[٢] ضَمَّتْنِي سَيِّدَةُ النِّسَاءِ إِلَى صَدْرِهَا فَطَيَّبَتْ لِي نَفْسِي، وَقَالَتِ: الْآنَ تَوَقَّعِي زِيَارَةَ أَبِي مُحَمَّدٍ إِيَّاكِ، فَإِنِّي مُنْفِذَتهُ إِلَيْكِ. فَانْتَبَهْتُ وَأَنَا أَقُولُ وَا شَوْقَاهْ إِلَى لِقَاءِ أَبِي مُحَمَّدٍ.

فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الْقَابِلَةُ جَاءَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ عليه السلام فِي مَنَامِي فَرَأَيْتُهُ كَأَنِّي أَقُولُ لَهُ: جَفَوْتَنِي يَا حَبِيبِي بَعْدَ أَنْ شَغَلْتَ قَلْبِي بِجَوَامِعِ حُبِّكَ[٣]. قَالَ: مَا كَانَ تَأْخِيرِي

---

(١) كونها على هذا الدين في الظاهر تترتب عليها أحكامه، لا يعني إيمانها التام بشركيات النصارى. على سبيل المثال: فإن كثيرًا من المسلمين اليوم يعتبر موحدًّا على دين الإسلام، فإذا فتشت قلبه وجدته مشركًا مجسّمًا، ورغم ذلك يترتب عليه عنوان المسلم الموحد، والكلام نفسه فيمن يعلن نصرانيته ظاهرًا إذ ليس شرطًا أن يكون مذعنا بعقائدهم الباطلة.

(٢) وهذا تصريح بأنها عليها السلام أسلمت قبل أسرها، والحكم المترتب على ذلك بطلان سبيها واسترقاقها.

(٣) من الخطأ محاكمة هذه العبائر وفق الثقافة العربية، ولابد من تقييم العبارات وفق الآداب البيزنطية وأدب التحاور عندهم، بل العرب أنفسهم يختلفون في ثقافاتهم في كيفية التخاطب بين الرجل والمرأة، فقد تصدر نظائر هذه العبارة حتى بين الأجانب في مجتمعات متدينة دون أخرى.

وأدب الحوار يرجع إلى موروث ثقافي يتراكم على الإنسان فيبني ذائقته، بدءًا من الطبيعة الخضراء أو الصحراوية، أو ربما مدنية، إلى سائر عناصر بناء الثقافة من تركيب اجتماعي وظروف مادية واستقرار سياسي وغير ذلك، وهذه العناصر تبني الثقافة والذائقة، فما يكون متعارفًا طبيعيًّا في مجتمع يكون من غريبًا في مجتمع آخر، ولا يمكن محاكمة نص أدبي بثقافة مجتمع آخر.

عَنْكِ إِلَّا لِشِرْكِكِ، وَإِذْ قَدْ أَسْلَمْتِ فَإِنِّي زَائِرُكِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، إِلَى أَنْ يَجْمَعَ اللهُ شَمْلَنَا فِي الْعَيَانِ. فَمَا قَطَعَ عَنِّي زِيَارَتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ.

قَالَ بِشْرٌ: فَقُلْتُ لَهَا وَكَيْفَ وَقَعْتِ فِي الْأَسْرِ؟

فَقَالَتْ أَخْبَرَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ عليه السلام لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي أَنَّ جَدَّكِ سَيُسَرِّبُ[1] جُيُوشاً إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ كَذَا، ثُمَّ يَتْبَعُهُمْ[2] فَعَلَيْكِ بِاللَّحَاقِ بِهِمْ مُتَنَكِّرَةً فِي زِيِّ الْخَدَمِ مَعَ عِدَّةٍ مِنَ الْوَصَائِفِ مِنْ طَرِيقِ كَذَا، فَفَعَلْتُ. فَوَقَعَتْ عَلَيْنَا طَلَائِعُ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى كَانَ مِنْ أَمْرِي مَا رَأَيْتَ وَمَا شَاهَدْتَ.

وَمَا شَعَرَ أَحَدٌ بِي بِأَنِّي ابْنَةُ مَلِكِ الرُّومِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ سِوَاكَ وَذَلِكَ بِإطلاعِي إِيَّاكَ عَلَيْهِ. وَقَدْ سَأَلَنِي الشَّيْخُ الَّذِي وَقَعْتُ إِلَيْهِ فِي سَهْمِ الْغَنِيمَةِ عَنِ اسْمِي فَأَنْكَرْتُهُ، وَقُلْتُ: نَرْجِسُ[3]. فَقَالَ: اسْمُ الْجَوَارِي!

---

(١) أي سيرسل، وفي غيبة الطوسي ودلائل الإمامة: سيُسَيّر.

(٢) الظاهر أن المقصود هي المعركة التي وقعت في سميساط قرب الفرات في صيف ٨٥٩م - ٢٤٥هـ، حيث سار القيصر ليقود جيوش بيزنطة، وصاحبه الإمبراطور الصغير ميخائيل الثالث، ليستكشف ويتعلم بإشراف القيصر في أول خروج عسكري للإمبراطور، ووقعت معركة انتصر فيها البيزنطيون بادئ الأمر، ثم انقلبت الأحداث أثناء مراسم قداس يوم الأحد وغار المسلمون على معسكر الروم وهرب القيصر ومن معه إلى القسطنطينية.

(٣) نرجس اسم يوناني بيزنطي معرّب، نطقه باليونانية: نرجسوس.

وقد نطقته السيدة عليها السلام نطقًا عربيًّا. ومنه يتضح أن اختيار هذا الاسم البديل عن اسمها الأصلي يناسب ثقافتها اليونانية واطلاعها على الآداب وكيفية تعريب الكلمات اليونانية، فيكون هذا الاسم مناسبًا للإجابة السريعة على السليقة.

فَقُلْتُ: الْعَجَبُ أَنَّكِ رُومِيَّةٌ وَلِسَانُكِ عَرَبِيٌّ! قَالَتْ: بَلَغَ مِنْ وُلُوعِ جَدِّي وَحَمْلِهِ إِيَّايَ عَلَى تَعَلُّمِ الْآدَابِ(١) أَنْ أَوْعَزَ إِلَيَّ امْرَأَةَ تَرْجُمَانٍ(٢) لَهُ فِي الِاخْتِلَافِ إِلَيَّ(٣)، فَكَانَتْ تَقْصِدُنِي صَبَاحاً وَمَسَاءً(٤) وَتُفِيدُنِي الْعَرَبِيَّةَ حَتَّى اسْتَمَرَّ عَلَيْهَا لِسَانِي وَاسْتَقَامَ(٥).

قَالَ بِشْرٌ: فَلَمَّا انْكَفَأْتُ بِهَا إِلَى سُرَّ مَنْ رَأَى(٦)، دَخَلْت عَلَى مَوْلَانَا أَبِي الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ عليه السلام. فَقَالَ لَهَا: كَيْفَ أَرَاكِ اللهُ عِزَّ الْإِسْلَامِ وَذُلَّ النَّصْرَانِيَّةِ وَشَرَفَ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله؟ قَالَتْ: كَيْفَ أَصِفُ لَكَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ مَا أَنْتَ

---

(١) كان باراداس قيصر الروم آنذاك مولعا بالعلوم والآداب، وسببًا لإعادة فتح جامعة القسطنطينية، وتوفير أرضية خصبة لعلماء الروم، فعاشت الإمبراطورية في عهده نهضة علمية، وكانت مرحلة هذا القيصر مرحلة انتقالية في التاريخ البيزنطي عقبت عصور ظلام وجهل وفتحت أبواب العصور الذهبية البيزنطية.

(٢) ترجمان يعني عارفة باللغات، وكان شائعًا الاستفادة من أسرى المسلمين للتبادل العلمي والثقافي والترجمة، كما كان العرب كذلك يستفيدون من أسرى الروم لنفس الغرض.

(٣) الاختلاف إلي: يعني الذهاب والعودة.

(٤) كانت بنات الملوك والطبقات النبيلة في بيزنطة تتلقى التعليم مبكرًا ويأتي إليهن المعلمون في بيوتهن حفاظا على الستر والعفة.

(٥) كانت اللغة العربية من أهم لغات العلم والحضارة في ذلك العصر وكان لزامًا على كل مثقف تعلمها، وهذا شأن أبناء الملوك، وقد تأثر البيزنطيون بالعرب ولغتهم فتعلموها.

(٦) أي لما جاء بها إلى سامراء.

أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي![1]

قَالَ عليه السلام: فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُكْرِمَكِ، فَأَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكِ: عَشَرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ أَمْ بُشْرَى لَكِ فِيهَا شَرَفُ الْأَبَدِ؟ قَالَتْ عليها السلام: بَلِ الْبُشْرَى.

قَالَ عليه السلام: فَأَبْشِرِي بِوَلَدٍ يَمْلِكُ الدُّنْيَا شَرْقاً وَغَرْباً وَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْماً وَجَوْراً[2].

قَالَتْ: مِمَّنْ؟ قَالَ عليه السلام: مِمَّنْ خَطَبَكِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله لَهُ مِنْ لَيْلَةِ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا مِنْ سَنَةِ كَذَا بِالرُّومِيَّةِ! قَالَتْ: مِنَ الْمَسِيحِ وَوَصِيِّهِ! قَالَ عليه السلام: فَمِمَّنْ زَوَّجَكِ الْمَسِيحُ وَوَصِيُّهُ؟ قَالَتْ: مِنِ ابْنِكَ أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام.

قَالَ عليه السلام: فَهَلْ تَعْرِفِينَهُ؟ قَالَتْ: وَهَلْ خَلَوْتُ لَيْلَةً مِنْ زِيَارَتِهِ إِيَّايَ مُنْذُ اللَّيْلَةِ الَّتِي أَسْلَمْتُ فِيهَا عَلَى يَدِ سَيِّدَةِ النِّسَاءِ أُمِّهِ؟

فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: يَا كَافُورُ ادْعُ لِي أُخْتِي حَكِيمَةَ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ قَالَ عليه السلام لَهَا: هَا هِيَهْ[3]. فَاعْتَنَقَتْهَا طَوِيلًا وَسُرَّتْ بِهَا كَثِيراً.

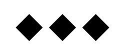
---

(١) وهذا مما يدل على فضلها ومقامها وأهليتها لهذا الاصطفاء، فإن العز والذل هنا عز معنوي، ولم يكن للذل الظاهري في السبي والعز المادي من سلطان الملوك ورفعة قصورهم مكان في نفسها، وإنما المهم هو العز الناتج عن سلامة العقيدة والطاعة لله واطمئنان القلب وسلامة النفس.

(٢) وهذه البشارة مما لم يرد ذكره في منامتها، وإنما الذي رأته في المنام خطبة النبي صلى الله عليه وآله لها من جدها شمعون ومن النبي عيسى، وزواجها من الإمام العسكري عليه السلام.

(٣) يبدو وكأن الإمام الهادي عليه السلام كان قد حدّث أخته السيدة حكيمة عليها السلام بأن السيدة نرجس ستصل في هذا الوقت، فإن كلام الإمام لأخته يوحي بأنها كانت مسبوقة الذهن بقرب وصولها عليها السلام.

فَقَالَ لَهَا مَوْلَانَا: يَا بِنْتَ رَسُولِ الله أَخْرِجِيهَا إِلَى مَنْزِلِكِ وَعَلِّمِيهَا الْفَرَائِضَ وَالسُّنَنَ(١)؛ فَإِنَّهَا زَوْجَةُ أَبِي مُحَمَّدٍ وَأُمُّ الْقَائِمِ عليه السلام(٢).



(١) وقد ورد في روايات أخرى أن السيدة حكيمة هي التي علمت زوجة الإمام العسكري عليه السلام الفرائض والسنن قبل اقترانها بالإمام العسكري، ومعرفة الراوي بهذه الجزئية دليل على صدقه وعلى تطابق قوله مع قول السيدة حكيمة في موارد أخرى وردت في روايات متعددة.

(٢) تم الخبر الذي رواه الشيخ الصدوق رحمه الله وهو من الانسجام والانضباط والتوافق مع الأخبار التاريخية المختلفة وما ورد في سائر رواياتنا من شأن مولاتنا والدة الخلف الحجة عجل الله فرجه الشريف من كونها ابنة قيصر الروم، وأن السيدة حكيمة هي التي علمتها الأحكام والفرائض، وما ثبت في التاريخ البيزنطي من أحداث متوافقة معها، ومن تماسك العبارات في الرواية ودقتها في وصف حال النصارى ومعتقدهم وغير ذلك بمستوى عال جدًّا لا يرد فيه احتمال تلفيق وتدليس، فهو محكم المتن إلى أبعد الحدود؛ راويه ينقل أخبار الروم وأخبار بيت الإمام الهادي عليه السلام بدقة كأنه يعيش في المكانين؛ هناك حيث أسرار الروم، وهنا حيث الإمام يلتزم التقية، وبين هذا وذاك فهو راو محيط بأسرارهم كما ادعى أول الأمر، فجزاه الله خيرًا على ما أوصل لنا من خبر.

نسأل الله أن يرزقنا عناية مولانا الخلف عجل الله فرجه الشريف وعناية آبائه الطاهرين عليهم السلام، ووالدته السيدة الطاهرة عليها السلام .

خاتمة القول

قرائن أخرى - حياة السيدة نرجس عليها السلام بعد الإمام العسكري

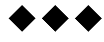
فضائلها ومناقبها - ختام المطاف

كلمات موجزة في نهاية المطاف

ولِمَن سِوَى عَيْنيك يا ابنَ مَليكةٍ   تُفنى النّفوسُ حرامُها وحلالُها

وجَميلةٌ لُقياكَ غيرَ مُسالمٍ   والخيلُ يَعثرُ بالقنا تِصهالُها

هو مِن دمٍ أو مِن دمٍ قسطالُها   ما عاد يُجدي في العِدى إمهالُها



قرائن أخرى

كان السعي في هذا البحث إلى إثبات رجوع السيدة نرجس عليها السلام إلى قيصر الروم، ولكننا لم نستوفِ البحث وإنما اكتفينا بهذا المقدار إذ وجدنا فيه الكفاية، وإلا فهناك قرائن أخرى من المناسب السعي في التحقق من نتائجها.

مثلا: ما ذكره الخصيبي في الهداية الكبرى بهذا النص: (وجعفر الكذاب هو جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر الصادق، وهو المعروف بزِقِّ خمرٍ، وهو الذي سعى بجارية أخيه الحسن بن علي إلى السلطان وقال له: إن أخي قد توفي ولم يكن له ولد، وإنما خلّف حملًا في بطن جاريته نرجس، وأخذت هي ووردا س الكتابية جاريتا الحسن بن علي من داره في سوق العطش، وحبستا سنتين فلم يصحّ على نرجس ما ادعى عليها ولا غيرها فأطلقتا)[1].

وبغض النظر عن اعتبار الكتاب ورواياته، فإن اسم ورداس هو الأقرب إلى باراداس حسب طريقة القدماء في التعريب؛ لذلك فإن هذا الخبر -على ما فيه- يحمل ملاكا كملاك التواتر؛ إذ يمتنع عادة التواطئ على مثل هذه الكذبة.

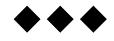
ومن المهم التنبيه على أن جعفرًا بن الإمام الهادي عليه السلام من البعيد جدًّا أن يعرف الجواري بعينهن، والتفريق بين نرجس وورداس قد يرجع إلى اشتباهه في الأسماء، فإن محض وجود هذا الاسم الغريب في بيت الإمام عليه السلام أمر ملفت.

كما تعرض بعض الباحثين إلى جانب مهم في هذه الرواية، وهو أن هذا

(١) الهداية الكبرى ٢٤٨

الاسم ليس عربيًّا وإنما هو اسم بيزنطي ذو جذور أرمنية، ثم ساق الشواهد على أن من عادة البيزنطيين تلقيب الشخص باسم جده إذا كان الجد -القريب أو البعيد- معروفًا وأنه من الطبيعي أن فتاة تلّقب باسم جدها لكونه من عليّة القوم.(١)

وقد خطر بالبال أمر آخر وهو أن في الرواية تصحيفًا أو اشتباهًا في النسخ وأن المقصود نرجس ابنة ورداس الكتابية، وهذا ما دعاني إلى البحث في مخطوطات الهداية الكبرى، لكن تبين أن بعض المخطوطات خلت من هذا الخبر أصلا واحتوته مخطوطات أخرى، ولا أدري إن كان الخبر من إيراد الخصيبي أو ألحقه غيره بالكتاب، وهو في كل الأحوال شاهد ومؤيد مهم، ولابد من التحقيق في مصدر الخبر للوصول إلى نتائج أكثر اعتبار.



(١) راجع:

Hadi Taghavi, Ehsan Roohi & Navid Karimi (2019): An Ignored Arabic Account of a Byzantine Royal Woman, Al-Masāq, DOI: 10.1080/09503110.2019.1660847

حياة السيدة نرجس عليها السلام بعد الإمام العسكري عليه السلام

قال المرجع الراحل الشيخ لطف الله الصافي قدس سره في منتخب الأثر:

اعلم أنّه اختلفت الروايات في نهاية حال أمّ الإمام عليه السلام، ففي بعضها أنّها حصلت بعد وفاة الإمام أبي محمّد العسكري عليه السلام في دار محمّد بن علي بن حمزة بن الحسن بن عبيد اللهّ بن العبّاس بن مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (وصفوه بأنّه ثقة عين في الحديث، صحيح الاعتقاد، له كتاب)، وفي بعضها أنّها طلبت من الإمام أبي محمّد عليه السلام أن يدعو لها بالموت قبل وفاته عليه السلام فاستجيب دعاؤه، وفي بعضها أنّها كانت حاضرة عند وفاة الإمام عليه السلام (و هو هذا الخبر)[1]، وفي بعضها أنّها هاجرت إلى مكّة المكرّمة في حياة الإمام عليه السلام مع ابنه الحجّة عليه السلام، بأمر الإمام أبي محمّد عليه السلام.

وكما ترى أكثر هذه الروايات قد دلّ على حياتها بعد الإمام عليه السلام، والظاهر الأرجح حياتها بعد وفاة الإمام أبي محمّد عليه السلام، والشاهد على ذلك وقوع قبرها خلف قبر الإمام أبي محمّد عليه السلام.

وعلى كلّ حال لا يضرّ مثل هذه الاختلافات ما نحن بصدده، فإنّ اعتمادنا في هذا الكتاب[2] على ما تواترت به الأحاديث أو استفاضت به في الأقلّ

---

(١) كان الشيخ قدس سره في معرض تعليقه على خبر شهادة الإمام العسكري عليه السلام وفيه حضور الإمام المنتظر عجل الله فرجه ووالدته السيدة الطاهرة نرجس عليها السلام.

(٢) أي كتاب منتخب الأثر.

دون أخبار الآحاد، فالأخبار يؤيّد بعضها بعضا فيما اتّفقت عليه. ولا يخفى عليك أنّ مثل هذه الاختلافات الفرعيّة قد وقعت في تواريخ السائرين من الأئمّة والأنبياء ورجالات التاريخ، وكيفيّات وقوع الحوادث المهمّة المقطوع بأصلها عند الكلّ دون أن يصير ذلك سببا للشكّ في أصل وجود الأشخاص، وأحوالهم المعلومة، والحوادث التاريخيّة المشهورة.

هذا مضافا إلى أنّ الظروف والأحوال الّتي كان عصر الإمام أبي محمّد عليه السلام إلى بعد وفاته محفوفا بها ربّما تقتضي خفاء مثل هذه الامور الجزئيّة.[1]

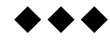
انتهى كلامه نور الله ضريحه في جوار سيد الشهداء عليه السلام، وفي كلامه قدس سره التمام والكفاية.

وقد ورد في زيارته المباركة: اَلسَّلامُ عَلَيْكِ وَعَلى بَعْلِكِ وَوَلَدِكِ، اَلسَّلامُ عَلَيْكِ وَعَلى رُوحِكِ وَبَدَنِكِ الطّاهِرِ، اَشْهَدُ اَنَّكِ أحْسَنْتِ الْكَفالَةَ، وأدَّيْتِ الأمانَةَ، وَاجْتَهَدْتِ في مَرْضاتِ اللهِ، وَصَبَرْتِ في ذاتِ اللهِ، وَحَفِظْتِ سِرَّ اللهِ، وَحَمَلْتِ وَلِيَّ اللهِ، وَبالَغْتِ في حِفْظِ حُجَّةِ اللهِ...

وهذه العبارات في الزيارة تؤيد بقاءها بعد شهادة الإمام العسكري عليه السلام وتحمّلها جملة من المصائب والمحن، سيما مع ما ورد من أن دار الإمام العسكري عليه السلام كبست بعد شهادته عليه السلام وقد غارت الخيل على الدار وانتهب ما

(١) منتخب الأثر ٢/ ٤٠٦

فيها[1]، وما ذكره النجاشي في ترجمة محمد بن علي بن حمزة بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب عليه السلام أن والدة صاحب الأمر عليه السلام حصلت في داره بعد وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام[2]، وما ورد من أن المعتمد لعنه الله وجّه بخدمه فقبضوا عليها عليها السلام بعد شهادة الإمام العسكري عليه السلام وطالبوها بولدها أرواحنا فداه، فادعت حبلا بها لتغطي حال الصبي[3]، وأنه لعنه الله جعل نساءه ونساء أخيه الموفق العباسي ونساء القاضي أبي الشوارب ونساء خدمهم يتعاهدن أمرها ليستبين إن كان فيها أثر حمل[4].



(١) كمال الدين ٢/ ٤٧٣

(٢) رجال النجاشي تحت رقم ٩٣٨

(٣) كمال الدين ٢/ ٤٧٦

(٤) كمال الدين ٢/ ٤٧٤

فضائلها ومناقبها عليها السلام

وردت في فضلها روايات كثيرة متفرقة في الكتب، لعل الزيارة المباركة جمعت كثيرًا من الأوصاف التي تدل على فضلها في نفسها وفي حسبها ونسبها، منها أنها من نسل الحواريين، وأنها شبيهة أم موسى، وأنها مستودعٌ للأسرار.

ووصفت في الزيارة بأنها تقية نقية وصديقة مرضية، وفي الزيارة إشارة إلى تضحيتها، من رغبتها في صلة أبناء رسول الله وما استلزمه ذلك من سبي وتحمل المتاعب حتى تصل إلى دار الإمام عليه السلام وتؤدي وظيفتها، إلى تضحيتها بعد وفاة الإمام عليه السلام في حفظ حجة الله عجل الله فرجه الشريف وما لزمه ذلك من ملاحقة وسجن.

وهذه المعاني واردة متفرقة في الروايات، كما أن من فضائلها ما ورد في خبر ولادتها من إجلال السيدة حكيمة بنت الإمام الجواد عليه السلام وتعظيمها لها[1]، ومخاطبتها لها بالسيادة[2]، ووصفها إياها بأنها سيدة نساء هذا العالم[3]، وأن الإمام العسكري عليه السلام أمر السيدة حكيمة عليها السلام ساعة ولادة مولانا بقية الله عجل الله فرجه الشريف بعد أن صلى على آبائه الطاهرين أن تأخذه ليسلم على أمه[4].

---

(١) دلائل الإمامة ٥٠٠

(٢) كمال الدين ٢/ ٤٢٤

(٣) دلائل الإمامة ٤٩٨

(٤) كمال الدين ٢/ ٤٢٤

ووُصفت سلام الله عليها في جملة من الروايات بأنها سيدة الإماء[١] وخيرة الإماء[٢]؛ وللتبرك ننقل رواية وردت عن مولانا أبي محمد الحسن بن علي المجتبى عليه السلام، وهي رواية واردة في سياق اعتراض بعض أصحابه على مصالحته لمعاوية، فيجيبهم الإمام الحسن عليه السلام ويذكر فضل صاحب الأمر عجل الله فرجه الشريف ويشير إلى والدته عليها السلام بأنها سيدة الإماء، والرواية هي:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَقِيصَا[٣] قَال: لما صالح الحسنُ عليه السلام معاوية بن أبي سفيان دخل عليه الناس فلامه بعضهم على بيعته فقال عليه السلام: ويحكم ما تدرون ما عملتُ؟ واللهِ الذي عملتُ خيرٌ لشيعتي مما طلعت عليه الشمس أو غربت، ألا تعلمون أنني إمامكم مفترض الطاعة عليكم، وأحدُ سيدي شبابِ أهل الجنة بنص رسول الله صلى الله عليه وآله علي؟ قالوا: بلى!

قال عليه السلام: أما علمتم أن الخضر عليه السلام لما خرق السفينة وأقام الجدار وقتل الغلام كان ذلك سخطًا لموسى بن عمران عليه السلام إذ خفي عليه وجه الحكمة في ذلك وكان ذلك عند الله تعالى ذكره حكمةً وصوابًا؟ أما علمتم أنه ما منا أحدٌ إلا ويقع في عنقه بيعة لطاغية زمانه إلا القائم الذي يصلي روح الله عيسى ابن مريم عليه السلام

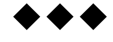
(١) كمال الدين ٢/ ٣٤٥ و ٢/ ٣٦٩ و ٢/ ٣٧٢ و ٢/ ٣٤٥ وغيرها من المصادر

(٢) غيبة النعماني ٣٢٩ وغيبة الطوسي ٤٧٠

(٣) أبو سعيد التميمي واسمه دينار ولقبه عقيصا، صحب أمير المؤمنين عليه السلام ونصره في صفين وصحب الحسن والحسين عليهما السلام، وله موقف مشهور في أحداث صلح الحسن عليه السلام وقد أوردنا موضع الشاهد منه.

خلفه؟ فإن الله عزّ وجلّ يخفي ولادته ويُغيّب شخصه لئلا يكون لأحد في عنقه بيعة إذا خرج؛ ذلك التاسع من وُلد أخي الحسين عليه السلام، ابن سيدة الإماء، يطيل الله عمُرَه في غيبته، ثم يظهره بقدرته في صورة شاب دون أربعين سنة، ذلك ليُعلم أن الله على كل شيء قدير.(١)

والظاهر أن هذه الفضيلة ثابتة لها عليها السلام كما هي ثابتة لغيرها من أمهات الأئمة عليهم السلام، أي أنها خير الإماء بالإضافة إلى نساء زمانها. فقد ورد هذا المعنى في والدة الإمام الجواد عليه السلام(٢)، ووالدة الإمام الكاظم عليه السلام(٣)، وقريب منه ما روي في والدة الإمام زين العابدين عليه السلام(٤). وبتعبير آخر فإن هذه الفضيلة متفرعة على كبرى كلية من أن أمهات الأئمة خير نساء زمانهن من النساء اللاتي يصح زواج الإمام المعصوم عليه السلام منهن.



(١) كمال الدين ١/ ٣١٦

(٢) عن النبي صلى الله عليه وآله: بأبي ابن خيرة الإماء النوبية الطيبة. الكافي ١/ ٣٢٣

(٣) عن الباقر عليه السلام: حميدة سيدة الإماء. دلائل الإمامة ٣٠٨

(٤) المروي أن أمير المؤمنين عليه السلام غيّر اسمها من شاه زنان (ومعناه: سيدة النساء) يوم خطبتها لسيد الشهداء عليه السلام إلى شهربانو (ومعناه: سيدة البلد). دلائل الإمامة ص١٩٦

ختام المطاف

إنه قد ثبت بما لا مزيد عليه انتساب السيدة نرجس عليها السلام إلى قيصر الروم، وحيث كان الغرض من البحث استيفاء هذا المطلب فقد أوجزنا في بيان سائر المطالب ولم نفصل، وكان من المناسب التفصيل في بيان فضائلها وشرح عبارات زياراتها عليها السلام وذكر شيء من كرامتها، وقد عاق عن ذلك القصور وضيق المقام، فنسأل الله التوفيق لكل خير.

ومما ينبغي التذكير به في نهاية المطاف ضرورة حفظ التراث وعدم الاستخفاف به فإنه مما بذل علماؤنا الجهد لحفظه وتنقيحه، فنقلوا الثابت واهتموا به، حتى أوصلوا لنا الموروث نقيًّا عذبا صافيًا، ولسنا اليوم ندافع عن الرواية الرسمية لقضية أم الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف من زمن الصدوق إلى اليوم فحسب، بل نخوض الصراع في خرزة من مسبحة، إذا سقطت وانحلت المسبحة لم يبق شيء! ومن السذاجة التعامل مع تضعيف صغريات الموروث الشيعي على أنها آراء تاريخية فحسب، وإنما لازمها إبطال كبرى كلية في نقاء الموروث الشيعي ونقاء المذهب.

أي أن نتاج هذه المعركة -التي هذا البحث أحد فصولها- إما تشكيك المؤمنين بكل الموروث الديني وبناء حالة رائجة من الشك، أو تثبيت قلوب المؤمنين!

ليس الباب مفتوحًا على مصراعيه للنقد والمناقشة حتى يؤول الأمر إلى

إرباك الساحة الإيمانية عقائديًّا وإن كان بغطاء تاريخي! إنها ليست جزئية كسر ضلع الزهراء عليها السلام، وتحديد موطن السيدة نرجس عليها السلام، ووصول السبايا إلى كربلاء يوم الأربعين أو بعده؛ وإنما هي كليات جور الغاصبين وتثبيت أحقية الأمير عليه السلام، وأصل ثبوت ولادة الصاحب عجل الله فرجه بنسب معروف واضح لا يعتريه شك، وتمام مظلومية سيد الشهداء عليه السلام والتفجع على مصابه.

وليست القضية مناقشة علمية في معذّرية[1] التعبد بجميع الأديان، وعدم ثبوت حد الردة، وإنما المسألة دعوة إلى الإلحاد واللادينية، والقبول بالتحرر والإباحية والشذوذ دون حساب ولا عقاب فإذا كان منكر وجود الله لا يستحق عقابًا في الدنيا فمن عساه يستحق إذن؟!

والمسألة أيضا ليست في رجحان قراءة دعاء الافتتاح في شهر رمضان المبارك، والمواظبة على أدعية شهر رجب، وإنما هي في محاربة البرنامج العبادي والسلوك المقرّب إلى الله بما أمر الشرع سواء استحبابًا أو رجاء؛ ما يخلق حالة غلظة وبعد عن الله وعن التدين وإن كان باسم العلم.

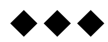
وليست هي مناقشة في عدم الحاجة إلى التقليد في زمن الغيبة ووجوب التفقه في الدين عينًا وإنما هي معركة حول اتصال علماء المذهب وعقائده من زمن المعصوم إلى اليوم أو انقطاع الطائفة قرونا متطاولة وضلالها طوال هذه الفترات؛ وهل الطائفة على معتقد واحد من زمن سلمان وأبي ذر، وميثم التمار وأبي ثمامة

---

(١) عبارة صاحب الشبهة: جواز التعبد بجميع الأديان!!!

الصائدي، وأبي بصير ومحمد بن مسلم، وابن أبي عمير وصفوان، وزكريا بن آدم ويونس بن عبد الرحمن، وأبي هاشم الجعفري وعثمان بن سعيد العمري، والشيخ الكليني والصدوق والمفيد والطوسي، والمحقق الحلي والعلّامة، والشهيدين، والشيخ الأعظم، والآخوند والميرزا النائيني والسيد اليزدي رَحِمَهُمُاللهُ إلى مراجعنا اليوم؟ أهذا دينٌ واحدٌ، أم نحن كغيرنا الذين مر مذهبهم بمعتقدات وتغيرات فلا هم اليوم هم بعقيدتهم الأمس، ولا هم هنا بعقيدتهم هناك، ولا دينهم كدينهم؟! نحن مثلهم؟ أم ديننا ثابت على مر العصور وما فقهاؤنا إلا امتداد لرواة الحديث؟

هذه المعارك الحقيقية ولا يستخفنكم داعية وعي تفجر الجهل من جوانبه! وما الوعي واليقظة إلا تثبيت قلوب المؤمنين ورد الضلالات والجهالات، قال عليه السلام: الرَّاوِيَةُ لِحَدِيثِنَا يَشُدُّ بِهِ قُلُوبَ شِيعَتِنَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ.(1)



(١) أصول الكافي ١/ ٣٣

الملاحق

الصور والوثائق - مصادر الكتاب - فهرس المحتويات

الوثائق والمصادر والفهارس

أحلنا في أكثر من مورد أثناء البحث إلى الوثائق الملحقة، وسندرجها هنا ونشير إلى مصادرها، والوثائق عبارة عن: رسومات مقتبسة من مصادر مهمة في التاريخ البيزنطي، وصور أخرى تمت الإشارة إليها في مطاوي البحث، وبعض الخرائط المهمة، وبعض نسخ المخطوطات.

ثم سندرج قائمة المصادر التي اعتمدنا عليها، علمًا أننا حاولنا قدر الإمكان الاكتفاء بالمصادر العربية فإن لم نجد المعلومة في مصدر عربي أشرنا إلى مصدر أجنبي.

ويليه فهرس المحتويات.

◆◆◆

الصور والوثائق

رسومات حول محطات مهمة في التاريخ البيزنطي

من كتاب: Madrid Skylitzes



تنصيب الطفل ميخائيل الثالث إمبراطورًا بعد وفاة والده.



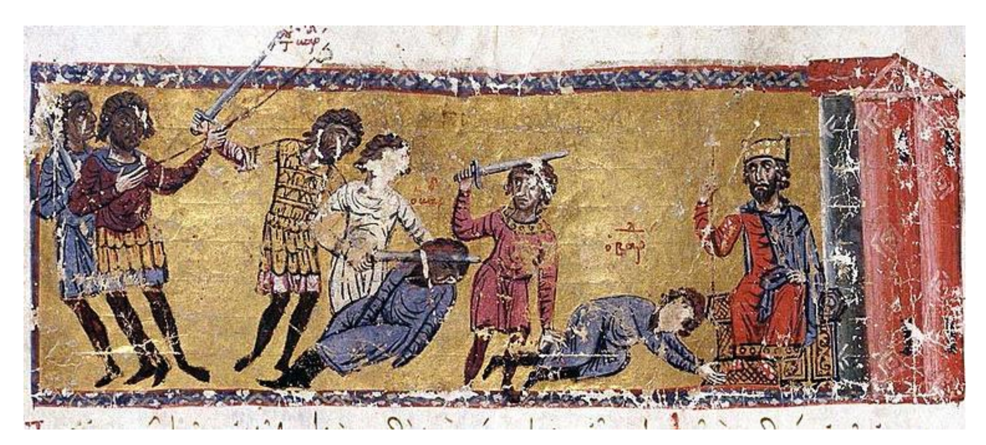
الإمبراطورة ثيودورا والدة الإمبراطور الطفل تدير الإمبراطورية في مجلس الوصاية.



توثيق معركة سميساط التي يحتمل أن السيدة نرجس عليها السلام أسرت فيها.



حلم القيصر باراداس قبل اغتياله في كنيسة آياصوفيا.



اغتيال القيصر باراداس.



التبادل الثقافي بين إمبراطور الروم ثيوفليوس وخليفة المسلمين المأمون.



أيقونة لرسام مسيحي بعنوان (شجرة الأنساب النبوية للمخلص)

أشار فيها إلى انتساب الإمام المهدي عجل الله فرجه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وإلى داود النبي عليه السلام، فيكون مهدي الشيعة هو المهدي الذي تنطبق عليه صفات المخلص في جميع الأديان، حيث يرجع إلى الإمام العسكري عليه السلام وهو من ذرية سيد الشهداء عليه السلام من ولد علي وفاطمة عليهما السلام ومن ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن جهة الأم يرجع إلى شمعون الصفا وصي عيسى وهو من نسل داود، ووضعت صورة لعيسى ويحيى ومريم العذراء عليهم السلام، يلتقون جميعًا مع نبي الله إبراهيم صلوات الله عليه وعلى أهل بيته وعلى رسول الله وآله، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

محمد بن عمران رحمه الله قال حدثنا محمد بن أبي عبد الله الكوفي قال حدثنا موسى بن عمران النخعي عن عمه الحسين بن يزيد النوفلي عن

[الحسن ل] الحسين بن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول إن صاحب هذا الأمر شبه من موسى وشبه من عيسى وشبه

من يوسف وشبه من محمد صلوات الله عليهم فأما شبهه من موسى فخائف يترقب وأما من عيسى فيقال فيه ما قيل في عيسى وأما من

يوسف فالسجن والغيبة وأما من محمد صلى الله عليه وآله فالقيام بالسيف وسيرته وتبيين آثاره ثم يضع سيفه على عاتقه ثمانية

ثم فلا يزال يقتل أعداء الله حتى يرضى الله عز وجل قلت وكيف يعلم أن الله عز وجل قد رضي قال يلقي في قلبه الرحمة حدثنا

عبد الواحد بن محمد بن عبدوس رضي الله عنه قال حدثنا أبو عمرو الكشي قال حدثنا محمد بن مسعود قال حدثنا علي بن محمد القمي

عن محمد بن أحمد بن يحيى عن إبراهيم بن هاشم عن عبد الله بن أحمد الأزدي عن ضريس الكناسي قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول إن صاحب

هذا الأمر فيه شبه من يوسف يصلح الله عز وجل أمره في ليلة (واحدة) وبهذا الإسناد عن محمد بن مسعود قال حدثنا جبرئيل بن أحمد

[ابن خلف الزام ل] قال حدثنا موسى بن جعفر بن وهب البغدادي ويعقوب بن يزيد عن سليمان بن الحسن عن سعد بن أبي خالد الزراد عن

معروف بن خربوذ قال قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام أخبرني عنكم قال نحن بمنزلة النجوم إذا خفي نجم بدا نجم مأمن وأمان وسلم

وإسلام وفاتح ومفتاح حتى إذا استوى بنو عبد المطلب فلم يدر أي من أي (أي أم) أظهر الله لكم صاحبا فاحمدوا الله عليه وهو يخير الصعبة والذلول

[الكابلي] وبهذا الإسناد عن محمد بن مسعود عن نصر بن الصباح عن جعفر بن سهيل قال حدثني أبو عبد الله أخو علي الكابلي عن

القابوسي عن نصر بن السندي عن الخليل بن عمرو عن علي بن الحسين الفزاري عن إبراهيم بن عطية عن أم هانئ الثقفية قالت غدوت

على سيدي محمد بن علي الباقر عليهما السلام فقلت يا سيدي آية من كتاب الله عز وجل عرضت ببالي قد أقلقتني وأسهرتني قال سلي

يا أم هانئ قلت يا سيدي قول الله عز وجل فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس قال نعم المسألة سألتني يا أم هانئ هذا مولود في آخر الزمان

هو المهدي من هذه العترة تكون له حيرة وغيبة يضل فيها أقوام ويهتدي فيها أقوام فطوبى لك إن أدركته وطوبى لمن أدركه

حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد رضي الله عنه قال حدثنا محمد بن الحسن الصفار عن أحمد بن أبي عبد الله البرقي عن

ابن المغيرة عن مفضل بن صالح عن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال يأتي على الناس زمان يغيب عنهم إمامهم فيا طوبى

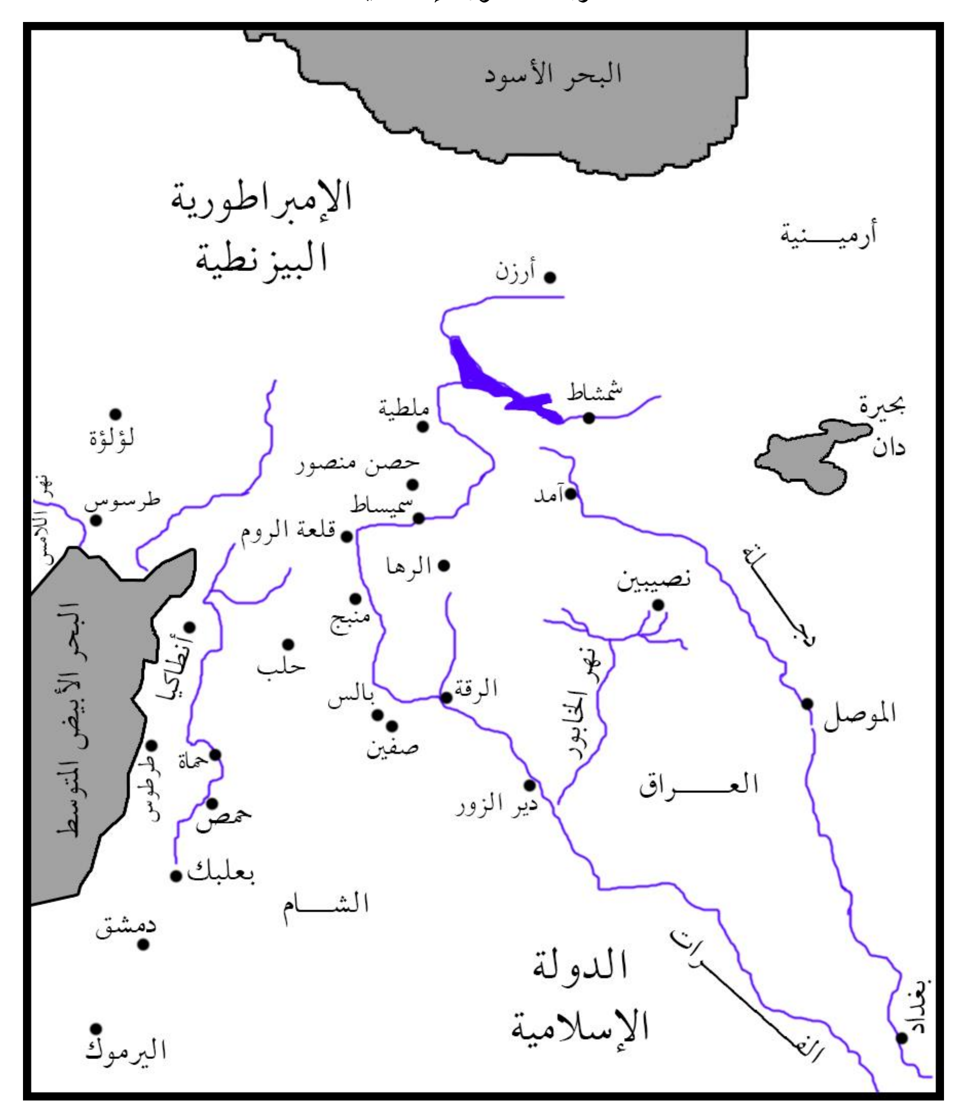
للثابتين على أمرنا في ذلك الزمان إن أدنى ما يكون لهم من الثواب أن يناديهم الباري جل جلاله فيقول عبادي وإمائي آمنتم

نسخة من مخطوطة كمال الدين وتمام النعمة في مكتبة السيد الحكيم قُدِّسَ سِرُّه في النجف الأشرف، وليس فيها عبارة (ابن أمة سوداء).

و مستتراً خائفاً منتظراً للدولة الحق و كان ع قد اخفى مولده و ستر امره
لصعوبة الوقت و شدة طلب اهل الزمان له و اجتهادهم في البحث عن امره
و لما شاع من مذهب الشيعة الامامية فيه و عرف من انتظارهم فلم
يظهر ولده في حياته الا لجماعة من الثقاة و اهل الامانة من شيعته و لا
عرف الجمهور بعد وفاته الا من اختص على ما سنذكره ان شاء الله تعالى
و نعرفنا الباب الرابع عشر في ذكر الامام الثاني عشر ع خمسة فصول
الاول في اسمه و كنيته و لقبه ع اسم الامام الثاني عشر اسم رسول الله
و كنيته كنيته و لا يحل لاحد ان يسميه باسمه و كنيته قبل خروجه
من الغيبة لما ثبت من النهي عن ذلك و انما يعبر عنه باحد القابه من
القابه ع المختصة به الحجة و القائم و المهدي و الخلف الصالح و صاحب
الزمان و الامام المنتظر و قد عبر عنه و عن غيبته بالناحية المقدسة
الباب الثاني في وقت ولادته و لد ع بسامرا ليلة النصف من شهر
شعبان قبل طلوع الفجر سنة خمس و خمسين و مائتين من الهجرة و قد اتاه
الله تعالى في حال طفوليته الحكمة و فصل الخطاب كما اتاه الله يحيى صبياً.
و جعله اماماً و هو طفل قد اتى عليه خمس سنين كما جعل عيسى بن مريم
ع في المهد صبياً و قد سبق النص عليه في ملة الاسلام من النبي ص ثم
من امير المؤمنين ثم من الائمة الطاهرين عليهما السلام واحداً بعد
واحد الى ابيه الحسن العسكري و نص عليه ابوه عند ثقاته و شيعته و
النصوص عليه متواترة على وجه لا يختلج فيه الشك لاحد لا يحتمل
ذلك هاهنا و كانت ام المهدي ع ام ولد و اسمها نرجس و هي
بنت يشوعا بن قيصر ملك الروم من اولاد الحواريين من قبل الامام و
كان اسمها عند ابيها مليكة و لها قصة عجيبة لا يسعها هذا الكتاب
الفصل

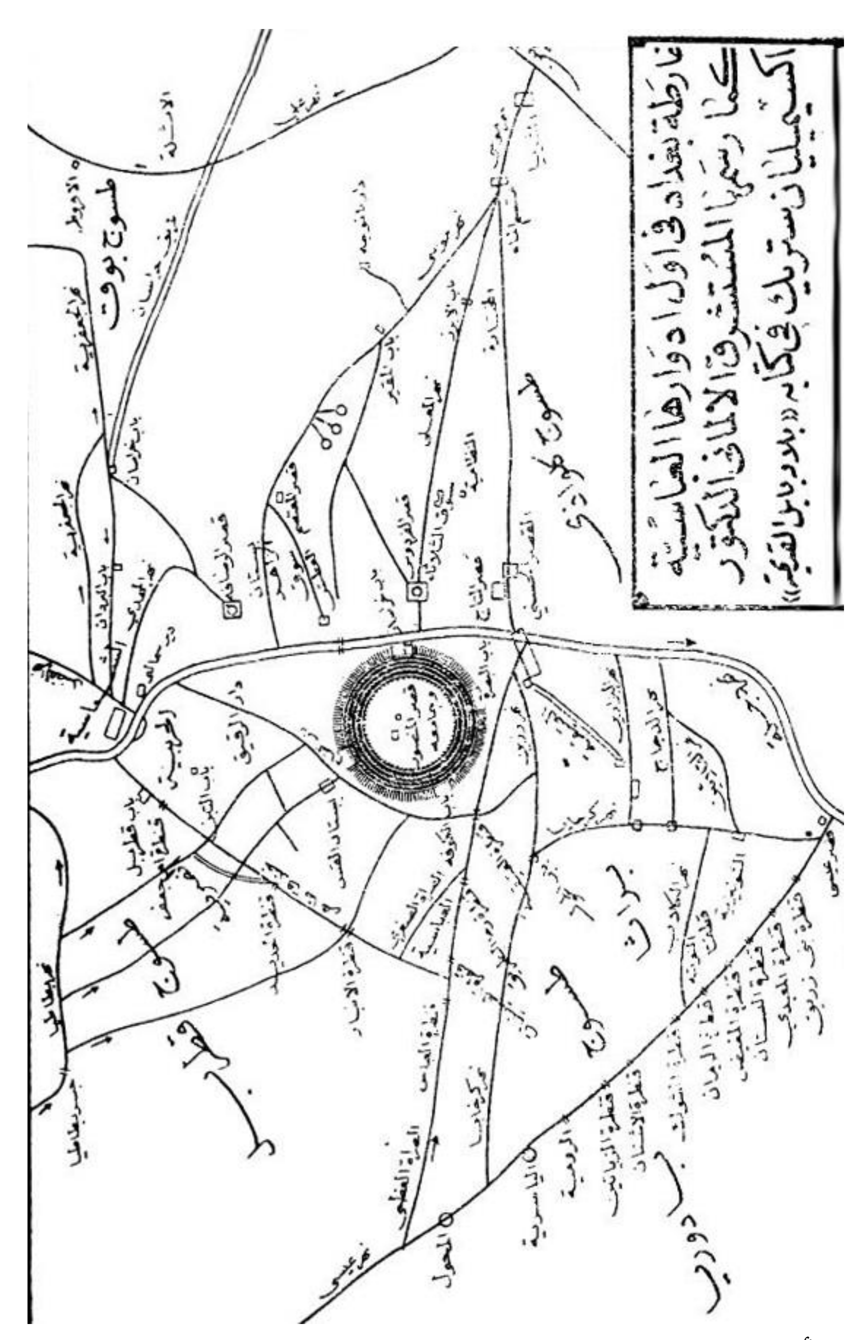
نسخة من مخطوطة كتاب تاج الأئمة للشيخ الطبرسي رحمه الله ذكر فيها بأن والدة الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف هي السيدة نرجس عليها السلام ابنة القيصر وأن من أسمائها مليكة.

خريطة الثغور الإسلامية



لاحظ موقع منطقة سميساط على الفرات، ومسير الفرات في تركيا والشام ثم نزوله بعيدًا عن بغداد (وقرب بغداد تتفرع منه أنهر صغيرة تقطع بغداد وتصب في دجلة).

ولاحظ موقع نهر اللامس، الذي يكون فيه الفداء بين المسلمين والروم، المسلمون على الجانب الشرقي والروم على الجانب الغربي.



خريطة أنهار بغداد في العصر العباسي، وفيها نهر الصراة الذي يصب في دجلة، ونهر الصراة متفرع من نهر عيسى المتفرع من الفرات، حيث نزلت زوارق السبايا في بغداد.

مصادر الكتاب

(١) تفسير القرآن: علي بن إبراهيم القمي

(٢) تفسير الصافي: الملا محمد محسن الفيض الكاشاني

(٣) تفسير الميزان: العلامة السيد محمد حسين الطبطبائي

(٤) الكافي: ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني

(٥) بحار الأنوار: العلامة محمد باقر المجلسي

(٦) وسائل الشيعة: الحر العاملي

(٧) تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي

(٨) من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق

(٩) كمال الدين وتمام النعمة: الشيخ الصدوق

(١٠) الخصال: الشيخ الصدوق

(١١) عيون أخبار الرضا: للشيخ الصدوق

(١٢) الأمالي: الشيخ الصدوق

(١٣) الأمالي: الشيخ الطوسي

(١٤) الغيبة: الشيخ الطوسي

(١٥) الغيبة: الشيخ النعماني

(١٦) تاج المواليد: الفضل بن الحسن الطبرسي، مخطوط

(١٧) مختصر كفاية المهتدي: السيد محمد مير لوحي الأصفهاني، ترجمة وتحقيق السيد ياسين الموسوي، تقديم مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ

(١٨) كفاية المهتدي (فارسي): السيد محمد مير لوحي الأصفهاني، مخطوط ١٠٨٥هـ

(١٩) الأربعون: الآقا مير محمد صادق خاتون آبادي ترجمة وتحقيق السيد ياسين الموسوي، تقديم مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ

(٢٠) شرح أصول الكافي: المولى محمد صالح المازندراني

(٢١) مرآة العقول: العلامة محمد باقر المجلسي

(٢٢) الدر المنثور: علي بن محمد بن الحسن بن زين الدين العاملي، مطبعة مهر، قم، ١٣٩٨هـ

(٢٣) إثبات الهداة: الحر العاملي

(٢٤) الاحتجاج: الشيخ الطبرسي

(٢٥) كامل الزيارات: ابن قولويه

(٢٦) كفاية الأثر: أبو القاسم الخزاز القمي الرازي

(٢٧) كتاب سليم بن قيس الهلالي

(٢٨) روضة الواعظين: الفتال النيشابوري

(٢٩) حلية الأبرار: السيد هاشم البحراني

(٣٠) الإرشاد: الشيخ المفيد

(٣١) إعلام الورى بأئمة الهدى: الشيخ الطبرسي

(٣٢) الوافي: الملا محمد محسن الفيض الكاشاني

(٣٣) النجم الثاقب: المحدث النوري، ترجمة السيد ياسين الموسوي

(٣٤) منتهى الآمال: الشيخ عباس القمي

(٣٥) المناقب: ابن شهرآشوب

(٣٦) الهداية الكبرى: الحسين بن حمدان الخصيبي

(٣٧) منتخب الأثر فى الإمام الثاني عشر: الشيخ لطف الله الصافى الگلپايگانى

(٣٨) معجم أحاديث الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف: الشخ علي الكوراني

(٣٩) عيون المعجزات: الشيخ حسين بن عبد الوهاب

(٤٠) مسار الشيعة: الشيخ المفيد

(٤١) شمعون الصفا: الشيخ علي الكوراني العاملي

(٤٢) بحوث علمية في القضية المهدوية ج١ الفصل الثالث: تحقيق حول والدة الإمام صاحب الزمان، الشيخ نجم الدين الطبسي، العتبة الحسينية المقدسة، مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية، الطبعة الثانية ٢٠١٩م

(٤٣) دلائل الإمامة: أبو جعفر الطبري

(٤٤) إثبات الوصية: علي بن الحسين المسعودي

(٤٥) المزار: ابن المشهدي

(٤٦) مصباح الزائر: السيد رضي الدين علي بن موسى بن طاووس

(٤٧) المزار: الشهيد الأول

(٤٨) زاد المعاد: العلامة محمد باقر المجلسي

(٤٩) المزار: الشهيد الأول

(٥٠) الدروس: الشهيد الأول

(٥١) مصباح الفقاهة: السيد الخوئي

(٥٢) المكاسب المحرمة: الشيخ مرتضى الأنصاري

(٥٣) مصباح الفقاهة: السيد أبو القاسم الخوئي

(٥٤) إرشاد الطالب: الميرزا جواد التبريزي

(٥٥) غاية الآمال: الشيخ محمد حسن المامقاني

(٥٦) كتاب الطهارة: الشيخ مرتضى الأنصاري

(٥٧) مدارك الأحكام: السيد محمد الموسوي العاملي

(٥٨) منهاج الصالحين للسيد الخوئي، كتاب الجهاد

(٥٩) الحدائق الناضرة: المحقق البحراني

(٦٠) الفهرست: الشيخ الطوسي

(٦١) الذريعة: آغا بزرك الطهراني

(٦٢) معجم رجال الحديث: السيد أبو القاسم الخوئي

(٦٣) قاموس الرجال: الشيخ محمد تقي التستري

(٦٤) مقباس الهداية في علم الدراية: الشيخ عبد الله المامقاني

(٦٥) مستدركات علم الرجال: الشيخ علي النمازي الشاهرودي

(٦٦) إيضاح الاشتباه: العلامة الحلي

(٦٧) الفوائد الرجالية من موسوعة الميرزا جواد التبريزي: شيخ علي التبريزي

(٦٨) الفوائد التسع: المحقق الحلي

(٦٩) رجال ابن الغضائري

(٧٠) معالم العلماء في فهرست كتب الشيعة وأسماء المصنفين قديمًا وحديثا: ابن شهرآشوب

(٧١) رجال الكشي

(٧٢) الغلو في مصطلح الملل والنحل والرجال: الشيخ محمد باقر ملكيان، معهد أديب الفقه الجواهري، قم، الطبعة الأولى ٢٠١٩م

(٧٣) قبسات من علم الرجال: أبحاث السيد محمد رضا السيستاني، جمع السيد محمد البكاء، دار المؤرخ العربي، الطبعة الأولى ١٤٣٧ه

(٧٤) رجال النجاشي

(٧٥) تنقيح المقال في علم الرجال: الشيخ المامقاني

(٧٦) منهج المقال في تحقيق أحوال الرجال: الاسترابادي، بتعليقة: الوحيد البهبهاني

(٧٧) المجدي في أنساب الطالبين: السيد علي بن محمد العلوي

(٧٨) الكنى والألقاب: الشيخ عباس القمي

(٧٩) عدة الأصول: الشيخ الطوسي

(٨٠) وصول الأخيار إلى أصول الأخبار: الشيخ حسين بن عبد الصمد العاملي

(٨١) المولى الغريب مسلم بن عقيل: السيد علي جمال أشرف الحسيني

(٨٢) نفس الرحمن في فضائل سلمان: المحدث النوري

(٨٣) الإمام المهدي من المهد إلى الظهور: السيد كاظم القزويني

(٨٤) قادتنا كيف نعرفهم: السيد هادي الميلاني

(٨٥) بحوث في الملل والنحل: الشيخ جعفر السبحاني

(٨٦) العقد الثمين في أحكام الأئمة الهادين: الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان، طبعة مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية

(٨٧) الملل والنحل: الشهرستاني

(٨٨) البداية والنهاية: ابن كثير

(٨٩) نزهة المشتاق: الإدريسي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ

(٩٠) المسالك والممالك: الاصطخري، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م

(٩١) الإشارات إلى معرفة الزيارات: علي بن أبي بكر الهروي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ

(٩٢) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين الأبشيهي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ

(٩٣) معجم الأدباء: ياقوت الحموي

(٩٤) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي

(٩٥) دليل خارطة بغداد المفصل: مصطفى جواد وأحمد سوسة، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٨م

(٩٦) خطط بغداد وأنهار العراق القديمة: مكسمليان شتريك، ترجمة د. خالد إسماعيل علي، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٦م

(٩٧) لسان الميزان: ابن حجر

(٩٨) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: ابن تيمية الحراني الدمشقي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ

(٩٩) بغداد مدينة السلام، طه الراوي، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٥م

(١٠٠) موسوعة الفلسفة: عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨٤م

(١٠١) الفهرست: ابن النديم

(١٠٢) سير أعلام النبلاء: الذهبي

(١٠٣) الاستيعاب: ابن عبد البر

(١٠٤) تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد: محمد بن عبد الله الأنصاري الأحسائي، مطابع الرياض، الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ

(١٠٥) الطبقات الكبرى: ابن سعد

(١٠٦) تفسير القرآن: ابن كثير

(١٠٧) معجم الدوحة التاريخي: وهو معجم الكتروني يبحث في جذور الكلمات العربية وتطور معانيها تاريخيًّا، ساهم في إعداده عدد واسع من الدكاترة وأساتذة اللغة.

(١٠٨) صبح الأعشى: أبو العباس القلقشندي

(١٠٩) تاريخ الأمم والملوك: الطبري

(١١٠) التنبيه والأشراف: أبو الحسن المسعودي

(١١١) الأنس الجليل: عبد الرحمن بن محمد المقدسي العليمي، مكتبة دنديس، عمان

(١١٢) تاريخ ابن خلدون

(١١٣) رحلة ابن جبير

(١١٤) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)

(١١٥) الكامل في التاريخ: ابن الأثير

(١١٦) نهاية الأرب: النويري

(١١٧) تاريخ الإسلام: الذهبي

(١١٨) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ابن الجوزي

(١١٩) أسرار عالم الزلازل والبراكين: عامر علي غبره، منشورات دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٩م

(١٢٠) سجل الزلازل العربي: عبد الله الغنيم، الجمعية الجغرافية الكويتية، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م

(١٢١) الزلازل في البحر المتوسط والشرق الأوسط:

Ambraseys N, Earthquakes In The Mediterranean And Middle East A Multidisciplinary Study Of Seismicity Up To 1900, Cambridge University Press, 1st edition (2009)

(١٢٢) إنجيل متى

(١٢٣) إنجيل مرقس

(١٢٤) إنجيل يوحنا

(١٢٥) رسائل بطرس الأولى

(١٢٦) التفسير الحديث للكتاب المقدس العهد الجديد: ألان م. ستيبز، ترجمة نيكلس نسيم، دار الثقافة ١٩٩٤م

(١٢٧) مدخل إلى المجمعات المسكونية: الأب ميشيل أبرص والأب أنطوان عرب، المكتبة البولسي، الطبعة الأولى ١٩٩٦م

(١٢٨) المجمع المسكوني الأول نيقيا الأول: الأب ميشيل أبرص والأب أنطوان عرب، المكتبة البولسي، الطبعة الأولى ١٩٩٧م

(١٢٩) النبراس في أسماء الناس: جوزيف أسمر ملكي، مكتبة الأمل – القامشلي، الطبعة الأولى ١٩٩٩م

(١٣٠) جنان الأسماء السريانية: كبرئيل صومي (أبو شافير)، دار ماردين – حلب، الطبعة الأولى ١٩٩٦م

(١٣١) رسائل بولس

(١٣٢) إنجيل مرقس

(١٣٣) العهد القديم، سفر القضاة

(١٣٤) تفسير سفر القضاة، القمص تادرس يعقوب

(١٣٥) لاهوت الإكليل: المطران يوسف ريا، والأب جوزيف معلوف البولسي، منشورات المكتبة البولسية، الطبعة الأولى ١٩٩٦م

(١٣٦) اللآلئ النفيسة في شرح طقوس الكنيسة، القمص يوحنا سلامة، مكتبة مارجرس

(١٣٧) المسيح مشتهى الأجيال: الأنبا بيشوري، مطرانية دمياط وكفر الشيخ، الطبعة الثانية ٢٠٠٧م

(١٣٨) موسوعة عالم الأديان ج٩ الكنيسة البيزنطية الأرثوكسية: مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط. ب. مفرّج

(١٣٩) الفن البيزنطي: ثروة عكاشة، دار سعاد الصباح، الطبعة الأولى ١٩٩٣م

(١٤٠) العالم البيزنطي ج م هسى، ترجمة د. رأفت عبد الحميد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٧م

(١٤١) المجتمع البيزنطي: مقال بعنوان (الرفات والأيقونات في المعتقد الشعبي البيزنطي)، محمود الشعيني، دار الحياة، ٢٠١٧م

(١٤٢) الروم والمشرق العربي: د. سيد أحمد الناصري، مركز النشر لجامعة القاهرة، ١٩٩٣م

(١٤٣) الحضارة البيزنطية ستيفن رنسيمان، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية ١٩٩٧م

(١٤٤) حضارة الإمبراطورية البيزنطية: محمود سعيد عمران، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠١١م
(١٤٥) الإمبراطورية البيزنطية من ٣٢٤م – ١٠٢٥م: وسام عبد العزيز فرج، ١٩٨٢م
(١٤٦) المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية: عبد العزيز رمضان، مصر العربية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م
(١٤٧) الملابس والزينة في المجتمع البيزنطي: شعبان حمزة، الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى ٢٠١٦م
(١٤٨) العرب والروم: فازيليف، ترجمة محمد عبد الهادي شعيره، دار الفكر العربي
(١٤٩) مدينة طرسوس ودورها في التاريخ العربي الإسلامي: سناء عبد الله الطائي، رسالة جامعية، مكتبة الروضة الحيدرية ٢٠٠٢م
(١٥٠) تجارب الأمم وتعاقب الهمم: ابن مسكويه، دار سروش للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م
(١٥١) الثغور البرية الإسلامية على الحدود البيزنطية في القرون الوسطى: علية عبد السميع الجنزوري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣م
(١٥٢) المجتمع البيزنطي: مقال بعنوان (التركيب العرقي والطبقي للمجتمع البيزنطي)، محمد زايد عبد الله، دار الحياة، ٢٠١٧م
(١٥٣) الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها د. محمود سعيد عمران
(١٥٤) بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، تأليف أ.د. طارق المنصور
(١٥٥) بيزنطة والعالم الخارجي: طارق منصور، مصر العربية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م

(١٥٦) بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة: رأفت عبد الحميد، عين للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى ١٩٩٧م

(١٥٧) الحدود الإسلامي البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري: فتحي عثمان، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

(١٥٨) بيزنطة في حرب: جون هالدون، ترجمة فتحي عبد العزيز، دار ناشري للنشر، الكويت ٢٠١١م

(١٥٩) تاريخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية، من سقوط إيرين إلى صعود باسيل:

John Bagnell Bury, A History of the Eastern Roman Empire, from the Fall of Irene to the Accession of Basil I

(١٦٠) حياة البطريك أغناطيوس:

Niketas David, The Life of Patriarch Ignatius

(١٦١) المرأة في المنزل:

Kazhdan, A.P. "Women at Home" Dop, Vol. 52,(1998)

(١٦٢) مسح وتقييم الكتابات المسيحية واليهودية والزرادشتية عن الإسلام المبكر:

Theodore of Sykeon's Life, quoted in Robert G. Hoyland, G. Seeing Islam as Others Saw It: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam (Princeton: Darwin Press, 1997)

(١٦٣) تاريخ لوغيثت:

Wahlgren, S. (2019). The Chronicle of the Logothete. Translated Texts for Byzantini. Liverpool University Press

(١٦٤) مواعظ البطريك فوتيوس:

Cyril Mango, The Homilies of Photius, Patriarch of Constantinople: English Translation, Introduction and Commentary (Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press)

(١٦٥) الأرمن في الإمبراطورية البيزنطية:

Charanis P., The Armenians in Byzantine Empire, Livraria Bertrand; 1st edition (January 1, 1963)

(١٦٦) تاريخ جينسيوس:

Genesios, On the Reigns of the Emperors: introduction, translation, and commentary (Canberra: Australian Association for Byzantine Studies, 1998 = Byzantina Australiensia vol. 11). 82

(١٦٧) معجم التراجم البيزنطية أ.د. دونالد نيكول، ترجمة أزد. حسن حبشي

(١٦٨) السجل المصور Madrid Skylitzes: وهو كتاب يوثق جملة من حوادث القرون التاسع والعاشر والحادي العشر الميلادي، وهو السجل المصور الوحيد المحفوظ باللغة اليونانية من الفترة البيزنطية، يحتوي على أكثر من ٥٠٠ رسمة تعرض تفاصيل مهمة في الحياة البيزنطية.

(١٦٩) التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية: محمد مختار باشا، تحقيق الدكتور محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨٠م

مقالات وبحوث علمية:

(١٧٠) تقرير خارج الفقه: الشيخ باقر الأيرواني

(١٧١) مقال: شذرات من كتب مفقودة لمحمد بن بحر الرهني الكرماني: للشيخ رسول جعفريان، منشور في مجلة تراثنا العددان ٨٣ و٨٤، السنة الحادية والعشرون، رجب وذو الحجة ١٤٢٦هـ

(١٧٢) مقال: رسالة حول والدة الإمام المهدي صلوات الله عليه: الشيخ علي الكوراني

(١٧٣) مقال: أُمِّ الإمام المهديﷺ حقيقة ثابتة: الشيخ نزيه محيي الدين، موقع مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي، قسم البحوث والمقالات المهدوية، برقم ٦٩٨

(١٧٤) دراسة أكاديمية بعنوان: حقوق المرأة في القانون البيزنطي: ماهر شعاب عمار عبد السلام وخميس أحمد ارحومة حميد، المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية، المجلد ٦، العدد ١، ٢٠٢١م

(١٧٥) بحث أكاديمي: البيزنطيون وترجمة القرآن الكريم إلى اليونانية في القرن التاسع الميلادي، طارق منصور، ونهى عبد العال

Journal of Medieval and Islamic History, VIII(2013-2014), 83-130. ISSN: 2090-288. JMIH

(١٧٦) دراسة أكاديمية: الآثار الإسلامية في القسطنطينية، ناديا ماريا الشيخ، المركز، مجلة الدراسات العربية، العدد ١، ٢٠٢٢م

(١٧٧) دراسة أكاديمية: موانع زواج الأقارب في الإمبراطورية البيزنطية: وفاء إبراهيم العبدو حميدو، مجلة وقائع تاريخية، العدد ٣٦، يناير ٢٠٢٢م

(١٧٨) مدينة طرسوس ودورها في التاريخ العربي الإسلامي: سناء عبد الله الطائي، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الموصل ٢٠٠٢م

(١٧٩) دراسة أكاديمية:

Hadi Taghavi & Ehsan Roohi (2022): Caesar Bardas and the Earthquake of Constantinople: The Rival Depictions of the Event in the Arabic and Byzantine Sources, Al-Masāq, DOI: 10.1080/09503110.2021.1998943

(١٨٠) دراسة أكاديمية:

Hadi Taghavi, Ehsan Roohi & Navid Karimi (2019): An Ignored Arabic Account of a Byzantine Royal Woman, Al-Masāq, DOI: 10.1080/09503110.2019.1660847

فهرس المحتويات

